أحمد موسى سالم

الإسلام

وقضايانا المعاصرة

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح منصور

أحمد موسى سالم

الإسلام وقضايانا المعاصرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة القاهرة الحديثة
ت : ٣١٥٤٣

الإسلام وقضايانا المعاصرة

أحمد موسى سالم

رسم الغلاف بريشة الفنان

سعيد عارف

بسم الله الرحمن الرحيم

"قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا
لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ
قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي"

قرآن كريم

الإهداء

إلى روح عبد الناصر العظيم
فى وجدان جيله العظيم
وإرادة شعبه العظيم »

المؤلف

مقدمــة

جرعة من الحزن

فى فجر صدور هذا الكتاب مات « جمال عبد الناصر » قوة عمل هذه الأمة ، وشعلة أملها ، طوال الثمانية عشر عاما الماضية . أظلمت الدنيا فجأة على مصر وعلى جميع عناصر الأمة العربية فى لحظة قاتمة طويلة ، لحظة ليست من هذا الزمن ، أخذت فيها السماء الحالكة تمطر على المتفجعين الذين سحقهم أعصار الظلام القابض وابلا من الزهور الذابلة ، والأغصان المتطايرة ، والبسمات الميتة ، والآمال المطحونة ، وشظايا القلوب ، ورذاذ الدموع ، وقطع التأوهات ، داخل مجرى هذا السؤال الوحيد الذى اجترف كل الأنفس ، السؤال الذى جمع بين الجماهير وطلائعها وقياداتها ، وساوى بينها فى حس واحد وصوت واحد ، وهو : « كيف ذهب هذا الذى لا نعيش بغيره ! ؟ » .

ولكن الظلام لم يلبث أن انقشع فجأة كما حل فجأة . لقد انقشع باشراق عبد الناصر مرة أخرى . لقد أشرق بروحه فى أرواح الجماهير ، لقد أشرق فيهم بالكلمة ، والحركة ، والايماءة ، والنظرة ، وبهذه الخطى الشعورية الواسعة منهم نحو أغلى أهدافه ... بهذه الارادة المصممة الواعية على تحقيق كل هذه الأهداف . لقد كانت مسيرة وداعه حشرا للأمة كان هو مركز جاذبيته . لقد كانت تجسيدا ـ بعد جرعة كبيرة من الحزن ـ لصورة الوحدة المنشودة ، وميثاقا بالدموع ، وتماسك الأيدى ، ونشيج الصدور ، وصحوة القلوب ، على المبادىء والغايات التى دعا اليها ، وعاش ومات فى سبيلها ...

ولكن ... لقد كانت حياة عبد الناصر كلها ثمنا لهذه اللحظات العظيمة من الوحدة الشاملة التى صنعتها الجماهير ـ من الخليج للمحيط ـ حول جثمانه الغالى المنطفىء ... والذى ينبغى أن يكون هو أن لا نحتاج ـ مرة أخرى ـ من أجل قيام الوحدة وتجسيدها واستمرارها فى حياتنا القومية الى كل هذا الحزن والفجيعة ... ان ما ينبغى أن يكون هو أن يبقى الروح العظيم لعبد الناصر ، الروح الذى لن ينطفىء أبدا ، هو وارواح كل قادة أمتنا العظام ، فى وعى هذه الجماهير المؤمنة الأمينة وهى على طريقها الصحيح للجهاد بكل منطلقاته، لكى تهزم العدو ، وتبنى التقدم ، وتحقق الوحدة .

وفصول هذا الكتاب ، التى كتبت كلها قبل موته ، هى فى كل حرف منها ثمرات فكرية نضجت تحت شمس حياته ، واستظلت بشرف نضاله ، وامتدت بابعادها وراء صدق عمله ، وتعبيرا عن حاجة الأمة العربية الملحة ـ كما كان يرى ذلك ويؤمن به ـ الى تصاعد الثورة بالفكر العربى ليظل هذا الفكر بصعوده قادرا دائما على أن يقود الثورة الكاملة بالانجاز . وانه لمن البديهى أنه ما كان من الممكن لأحد أن يطرح ويناقش الموضوعات والقضايا التى تعرض لها هذا الكتاب لولا قيام هذه الثورة العربية الأصيلة التى قادها عبد الناصر فى مصر ، ومكن لها فى الوطن

العربى ، رافعا بها من أعلام مبادئها قيمة الحرية ، وقيمة الفكر ، وقيمة العمل ، وقيمة الانسان ...

ولسوف يرى القارىء أن المضمون كله فى « قضايا العصر » وفيما نتلمسه لها من حلول وايضاحات فى ضوء الاسلام هو المضمون كله لحياة عبد الناصر ، وأهداف عبد الناصر ، الذى هو المضمون كله فى نفس الوقت لحياة وأهداف كل من سبقوا ، ومن سيلحقون ، من قادتنا وزعمائنا وأبطالنا ، على طريق وجود ونمو وانتصار الأمة العربية فى كل تاريخها . مثل هذا الهدف العظيم حققه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرة فريدة هادية وباقية على الدهر ـ وهو « جمع شتات الأمة العربية بالايمان على عقيدتها ، حتى يجتمع شتاتها بالوحدة فوق أرضها » !

هذا الهدف فى وضوحه وبساطته يلازمنا ملازمة الظل ـ بغير تغير ـ كل مراحل التاريخ . انه يعكس حاجتنا دائما الى وحدة الفكر ، ووحدة جميع المواطنين ، ووحدة السيادة على الأرض ، والاستثمار للموارد . وهو بذلك يحدد دائما وحدة أسلوب النضال لتحقيق كل هذه الأهداف فى وحدة عمل ووحدة عقيدة . وهو يحدد أيضا خطط العدو التى لا تتغير تجاهنا . ان هدفنا البسيط والواضح عبر التاريخ يعطينا مفتاح فكر العدو ويفضح أهدافه . ان العدو الذى يعانى من الشتات ـ الذى هو سببه فوق كل الأرض ـ يعمل طوال القرون والسنين على أن يجمع « شتات » فكره فى اتجاه غزونا ، وذلك ليجمع « شتات » أفراده وعناصره فوق أرضنا . معنى هذا أن « شتاتنا » هو أعظم أهداف العدو ، وبالمقابل فان « وحدتنا » هى أعظم أهدافنا . ولما كان العدو وهو يزعم أنه يريد أن يجمع شتاته على أرض العرب انما يعنى أنه يبرر بكل الصلف والوقاحة تمزيق وحدتنا الفكرية بالتآمر ، وتمزيق وحدتنا السياسية والاقتصادية بالعدوان ، كانت الحرب العدوانية اللاانسانية هى طريقه الوحيد لتحقيق أهدافه ، وكانت الحرب الدفاعية التحريرية هى طريقنا الوحيد لتحطيم خططه ، فوق كل الاحزان والتحديات .

الشتات والعودة

لقد كنا دائما نريد السلام ، وكان العدو دائما يريد الحرب ، واليوم نحن فى حرب دائمة مع العدو ، حرب فرضتها الصهيونية باسم العودة بعد « الشتات » الى فلسطين ، وفرضها الاستعمار باسم العودة « بعد الرومان » الى احتلال أبدى لأرض العرب ! ... وهى حرب طويلة ضارية مهما تخللها من مراحل هدنة بغير سلام !

ولكن الحرب التى فرضها العدو ، وسيظل يفرضها تحت أى شعار لم تكن وليدة أحداث ١٩٤٨ ، أو يونيو ١٩٦٧ ، لقد كانت عملية غزو ضخمة ، غير مسبوقة ، سارت على مدى عشرات السنين بالتحكم الذاتى والأساليب السيبرناتيكية* Cybernetics لتحريك وتوجيه كل القوى المنظورة

(*) السيبرناتيك علم الظواهر العامة لعمليات التوجيه الذاتى والآلى فى الوحدات =

وغير المتطورة التى تملكها الصهيونية ويملكها الاستعمار نحنو هدفها المحدد . لقد اشتملت هذه الحرب قبل اعلانها على حروب ضامتة ، ضارية ، غير معلنة ، استهدفت فكرنا ، ومعتقداتنا ، وقدراتنا الحضارية ، لكى يسقط العدو علينا هذا « الشتات الفكرى » الذى يساعده على غزونا ، وتحقيق الخلاص مما يزعمه من « شتاته الوطنى » فوق ارضنا !!

لقد كان مضمون سياسة التحالف بين الصهيونية والاستعمار أن اسرائيل هى « الكوبرا » التى ستبتلع الرجل ـ اى العرب ـ وأنه يلزم لكى تبتلع الكوبرا الرجل أن تضعه فى التخدير والذهول وشتات الفكر ، ومن ثم تعلن الكوبرا عن أهدافها وتشرع فى ابتلاعه واحتوائه ، ومن ثم أيضا ـ وهو فى نومة الشتات الفكرى ـ تشرع فى هضمه واذابته وامتصاصه ، مع أقصى ما تريده اسرائيل لنفسها من الأمن دون اعتراض ... ودون مقاومة !

لذلك فان بداية العلنية للخطط الصهيونية فى نهاية القرن التاسع عشر كانت تعنى اقتراب موعد الحرب المسلحة ... كانت تعنى أن العدو قد وثق من انه أصاب قدم « أخيل » العربى ، وأن العرب قد صاروا بأفكارهم الدارسة ، ومعتقداتهم المنطمسة ، وانتماءاتهم المتعددة فى شبه نومة « الشتات » ... وانه فى مستقر كلمة الله من قلوب العرب قد نفث العدو بأكاذيبه نفثة الشيطان فتبددوا ... لذلك رفع العدو رأسه ، وأزاح قناعه ، وأطلق صيحته ، وبدأ فى حملة كراهيته الشديدة على العرب ينشد للمتعصبين الصليبيين فى أوروبا « أغنية رولان » ويذكر بما صنعه فيهم الأتراك المسلمون ... ثم فى ضوضاء أناشيده ودعاياته المسمومة أخذ يسوق جموعه وعتاده وعصاباته الى فلسطين ... ثم أعلن الحرب ... التى لم تنته بعد !!

كان هذا هو السبب فى أننا عندما ظهرت حركة « هاسكالا » أى التنوير أو «الصقل» اليهودية سنة ١٧٨٩ ، وعندما بدأ يهود أوروبا يعيدون تشكيل وتوحيد أفكارهم الحديثة فى اتجاه يلائم الهدف الصهيونى ، فينبهون بينهم حلم « العودة » وأمل « الخلاص من الشتات » ... ويناضلون لتجميع واقامة « ذات قومية » لليهود من التيه والعدم ... كنا هنا فى أعقاب الاستنزاف العثمانى ، وداخل مخطط التخدير الاستعمارى واليهودى نغط فى النوم تحت حكم اثنين من رؤساء عصابات المماليك : مراد بك ... وابراهيم بك !!

وعندما انعقد مؤتمر بال الصهيونى الشهير سنة ١٨٩٧ ليعلن قواعد بناء الدولة اليهودية المقترحة ـ بعد نحو مائة سنة من « الصقل » والتنوير ـ لم نسمع بشىء من ذلك ، وكأنما وقع الأمر فى عالم غير عالمنا ... لم نسمع به الا بعد ما يزيد على نصف قرن من وقوعه ... أى بعد الثورة !

وعندما أعلنت انجلترا على لسان وزير خارجيتها تأييدها لأماني

التكنيكية ، والكائنات الحية ، والمنظمات الانسانية . ولقد نشأ هذا العلم الحديث كنتيجة حتمية لمجموعة من الإنجازات العلمية منها الإلكترونيات التى جعلت فى الإمكان بناء نظام سريع للتحكم الآلى المبرمج بواسطة العقول الالكترونية :

الوطن القومى لليهود نظر كل منا للآخر نظرة « ميتة » ... وتساءلنا : ماذا هناك ... لم نكن ندرى ماذا وراء هذا « التفضل » الانجليزى بوطن قومى لليهود فى فلسطين ... مع تفضل آخر باستقلال وطن عربى للعرب فى فلسطين ايضا ... كانت عقـولنا بالتخدير الاسـتعمارى الصهيونى ... ضائعة فى « الشتات » وعاجزة عن أن تعبر سيناء الى فلسطين .. كنا هنا فى مصر مشغولين بأسعار القطن ـ الذى كان فى أيدى الانجليز واليهود ـ صعودا وهبوطا .. ومشدوهين أمام تلك «التقدمية» المفاجئة التى رأينا عليها كثيرا من عمـد الفلاحين ، ومشايخ الأقاليم القرويين ، يشربون الخمر ، ويجالسون النساء الأنيقات فى منتديات القاهرة المخصصة للطبقة ... وكنا مشغولين ايضا بالهتاف وراء بعض الباشوات الوطنيين ـ الأتراك والجراكسة بالدم والشـعور ـ الذين اشتغلوا بالسياسة من أجل اخراج « أصدقائهم » الانجليز من أرض مصر ... التى يتقاسمون معهم قطنها وشعبها !!

كذلك فانه عندما كانت هذه الحملات والرحلات الكشفية لأرض فلسطين وسيناء تمر بالقاهرة ـ كقوافل الحجاج المنتظمة ـ خلال قرن بأكمله ، وهى تمثل جماعات لا حصر لها تعمل كلها لصالح الصهيونية ـ فى رسم الخرائط وتجنيد العملاء ـ مثل رحـلات اللورد الصهيونى الانجليزى مونتيفيورى الى فلسطين وسيناء ، ورحلات الحلف المدرسى الدولى المسيحى لمكافحة العداء للسامية الى سيناء وفلسطين ، ورحلات الدكتور ليون بنسكر الصهيونى الروسى الى سيناء وفلسطين ... ورحلات مهندسى المساحة الانجليز ـ مثل مرى ـ الذين كانوا يعملون فى الحكومة المصرية الى سيناء ، وكذلك جهود المحافظين الانجليز فى سيناء لحماية هذه الأعمال بين البدو ، وكذلك جهودهم الفذة فى تشتيت هؤلاء البدو باستهوائهم ـ وارغامهم أحيانا ـ على عملية نقل المخدرات الى مصر حتى لا يبقى فى سيناء من يدعى مواطنتها من المصريين ... كنا ننظر الى كل هذه الظواهر بسذاجة ... بل ببلاهة ... بينما كانت الصحف التى تمالىء الاستعمار تشغلنا بأمور كثيرة « ممتعة » ... أهم مما تدبره الصهيونية لفلسطين أمام أعيننا ونحن لا نفهمه ... كانت تشغلنا بصراعات الكبار من « ثيران السياسة الحزبية » .. وبمنازلات وشتائم كتاب محدودى الثقافة عن « القديم والجديد » ... وأكثر امتاعا من ذلك مسلسلات من الأدب الغربى الرخيص مثل «أرسين لوبين» اللص الشريف ... الذى كان رمزا مهذبا ، وتلخيصا مريحا لكل ما كان يجرى حولنا ... !

ثم جاءت الثورة ... ثورة عبد الناصر

جاءت الثورة كفارس الاسطورة ، الذى يحمـل للمحكومين بالموت ـ فى اللحظة الأخيرة ـ عفو السلطة الحاكمـة ... أو غفران المشيئة الالاهية ... جاءت الثورة العربية فى مصر وفى فمها صوت الشعب ، وكلمة التاريخ ، لتوجب على القتلة والجلادين أن يرفعوا أيديهم ... وأن يردوا اعتبار الوجود لهذا الشعب الذى لا يمكن بمشيئة الله ـ أن يموت!

جاءت الثورة علامة على بداية العودة من « الشتات الفكرى » فوق

ارضنا ... العودة الى النبع الذى كشفنا منه الكون ، وبنينا به الحضارات ، وقهرنا به الأعداء ... العودة الى الدين الذى هو حرية وعدل وتقدم !

الدين والثورة

لقد كان الوجود بالايمان هو أقوى اضاءات وضمانات ثورتنا التاريخية بالدين وبالاسلام ... وكان الايمان بالدين ولا يزال هو أقوى ضمانات هذه الثورة ، التى جاءت ـ فى اللحظة الأخيرة ليكون امتداد جديد لهذا الشعب بالحياة فوق أقوى واعتي عوائق الحياة ... لتكون حياة لشعبنا فوق شتات فكره ، وتمزق عقيدته ، وخفاء وجهته ... لتكون حياة له بالثورة ... فى بناء وحدة الفكر ، وسلامة العقيدة ، وصحة الاتجاه ...

قام الناس بالثورة يتساءلون ... من نحن ؟ ... وأين نحن ؟ ... والى اين نحن ؟ ... لقد قاموا بعد المحنة المركزة ... بعد رقدة المستنزفين ، وهجعة المقهورين ، اربعة قرون ونصف قرن ... قاموا بعد أن تأله فوقهم العثمانيون ، وامتص دماءهم المماليك ، وتلهى بخداعهم الفرنسيون ، وأفرط فى تسميم حياتهم الانجليز ... قاموا يتساءلون عما كان ... وعما هو كائن ... وعما يمكن أن يكون ...

ما كان هو الشتات ... وما هو كائن هو العودة ... وما نجاهد اليه ليكون ... هو التحرير والتنمية والوحدة .

من شتاتنا نعود الى ذاتنا الحقيقية ... نعود اليها فى الدين والتاريخ والأرض ... يعود الانسان العربى الى قسمات وجهه ، والى تألقات فكره ، والى الهامات قلبه ، والى مبادرات يده ... يعود لأنه ينبغى أن يعود ... يعود لأنه قد بدأ على طريقه التاريخى يعود ... فوق أرضه يعود ... أمام أعدائه الذين يصدهم ... ويضربهم الله بيده ... يعود .

فى الميثاق الوطنى .. الدين قاعدة لحرية الانسان العربى وتقدمه .. فى الميثاق أن جوهر الدين الذى لا يتصادم مع حقائق الحياة لا يتصادم مع أمانى المؤمنين ... لا يتصادم ـ حتى فى هذا العصر ـ مع بناء حياتهم ، وحماية حريتهم ، وتحقيق وحدتهم ...

فى الميثاق أن « التفسيرات المفتعلة » للدين التى سخرت الدين ـ عصور الانحلال ـ لمصالح الطبقة ، وخدمة الرجعية ، وتجسيد العنصرية ، وتبرير الاستغلال ، والتى لا تزال تجرجر مفاهيمها المدسوسة على الدين ، ينبغى أن تنقشع وتتلاشى فى ضوء وحرارة الجوهر الحقيقى للدين الخالص ...

وفى الميثاق أن واجب المفكرين الدينيين أن يحتفظوا للدين بجوهر رسالته ...

معنى هذا كله أن هناك مرحلة تصحيح أساسية لافكارنا ، ونحن نعود الى ديننا من الشتات ـ مرحلة يرجع بها الدين فى مفاهيمنا الى تحريك جوهره الحقيقى فى حياتنا ... وهذا التصحيح لمفاهيمنا حتمى ... حتى لا يقع التصادم بين هذه « التفسيرات المفتعلة » للدين فى كل

مجال ... وبين هــذه الانجازات الثورية للشعب ، كما ســارت بها خطواته السريعة فى مجال كسر ارادة العدو ، وبناء تقدم المجتمع ...

إن الثورة عندما جاءت فى موعدها كانت رفضا حاسما وقاطعــا لتدخل الغرب المستمر فوق أرضنا بتنحية الدين عن الحياة . لقد ربط الغرب فى تكوينه لأفكارنا التى « هجنها » بأفكاره قبل الثورة بين مفهوم الحــرية وإلنزعة العلمانية ، بل بين مفهوم الثورة ــ بمقياس الثــورة الفرنسية ــ وبين طرح الايمان بتاتا ، واعتناق المطلق المادى .

لقد كانت الثورة وهى رد فعل عصر الشتات لعقيدة الوطن العربى تقدم بعملها السريع ترجمة ايجابية لقصة نشأة هذا الشعب ... لمقومات وجوده النادرة ... لضرورة وجوده بالنسبة لكل الشعوب الانسانية غير العدوانية ... لعوامل استمرار هذا الوجود ...

الانسان العربى

ما هى قصة هذا الشعب الذى لا يمكن أن يحتويه الغرب ... أو أن تفتته وتذيبه اسرائيل ؟ هذه هى الظواهر المتكررة التى ساندت بقاء هذا الشعب ... فى مساره الطويل عشرات الالوف من السنين ... على هذه الأرض نفسها ... والطبيعة الغنية الناطقــة ذاتها ... فى رسالات الرسل ... وتعاقب الحضارة ... وانتفاضات الحياة ... تتحرك بها شعوب متجانسة متتابعــة من أفق النشأة ... الى أفق المغيب ... ليظهر من بعــدها من يجددها ... من الصحــراء حتى البحر ... ومن الخيام حتى القصور ... جذورها راسخة فى أعمــاق الماء ... وفروعها نامية فى أحضان الضياء ... تعيش بين الجــدب والخصب ... بين الكلمة والحركة ... وبين الوحى والمبادرة ... بين الالاهى والانسانى ... فى سلسلة لا تنقطع من نهارات وحدة هذا الشعب ونشاطه ، ومن ليالى انفكاكه وبياته ... نحو نهار جديد ... ويقظة مشرقة ... ونصر مرتقب .

هذه ظواهر حياة شعبنا ... من فجر التاريخ ... الى صــحوة الواقع :

* على أرضه عاش الانسان العربى ــ فى كل منا ــ فطرته الخالصة يوما ما ... عاش هذه الفطرة فى ذروة توازنها مع قوانين الطبيعة كلها .

عاش بها ليتصور ببصيرتها هذا الذى لا ينتهى بامتداد المكان ... ولا ينقضى بانقضاء الزمان ... عاش ليحس به فى حركة الأشياء ... وليواجه سلطانه فى ارتفاع السماء ، وليتلقى آلاءه فى مسارات الظلال والاضواء ... لقــد أتيح له تعايش نادر مع الطبيعة والآفاق التى لم تسرف عليه بالخصب ، ولم تقض عليه بالجدب ، ولم توهنه بالاستقرار ، ولم تخاصمه بالظلمة ، ولم تحجر عليه بالصقيع ــ فتفجرت فى مدركات هذا الانسان فى هذه الصحبة الغنية بالعلم حقيقة أزلية للحرية فى قيد الالتزام ، ودعوة غلابة للوحدة فى صميم انقسامات الأجــزاء ، وقانون أبدى للعدل ينشأ به وجود الفرد من وجود أخيه ... فكانت قبــل الدين ... ومع الدين ... فى حياة القبيلة الأولى « مشاعية الثروة » وتقسيم الأموال ... وسلطة الجماعة ... وكرامة الانسان ...

* هذا الشعب بفطرته عرف الله ... وسماه باسمه ... اتجه اليه بكل قوته ... وكلما نسيه تسمع الى داعى الله فاناب اليه ... وكلما وهن فاضاف اليه شريكا تذكر وحذف الاضافة ... وبرىء من الشريك ... واخلص دينه لله !.

* كان تاريخ هذا الشعب ــ على هذه الارض ــ هو تاريخ الدين .

على طريق القوافل ــ فى الوطن العربى ــ كان يحدث دائما ذلك اللقاء الحتمى بين العرب وغير العرب ... كانت تحدث دائما تلك المواجهة بين نظرة الفطرة السليمة فى حياة البداوة الاولى ــ فى مرحلة سلامة قلب الانسان ــ وبين ما ينشأ بالتطور الاجتماعي على الأرض المستقرة ــ فى شعوب الهند الآسيوية او الهند الأوربية ــ من نظرة الذات المستعلية بالطبقة ، والمتحفزة الى الاستغلال ... فى مثل هذه المواجهات التى يحتك فيها بعنف ــ ودون موارية ــ رأى برأى ، وعقل بعقل ، ودين بدين ، كان يتاح للانسان العربى ــ فى لحظات نادرة ــ أن يرى ثنائية الحياة ... ان يرى جدلها فى نفسين ... أن يرى الشيء ونقيضه على مرآة واحدة .. أن يرى الفطرة وانحرافها ... ان يرى الانسان متحدا والانسان منقسما ... أن يرى الانسان صادقا والانسان كاذبا ، فى لحظة مضيئة للقياس ... وللكشف ... وللادراك ... فى حياة الإنسان الطبقى الذى كان يقابله ! !

وفى طريق طويل للمقارنة بين مجتمع الارباب والالقاب ، والخمر والربا ، والغواية والاستعباد وبين مجتمع الفطرة ، والجماعية ، والآفاق والله ... يبدأ دفاع العربى عن فطرته ، واستمساك الطبيعي بطبيعته وقد تقع الغواية المنحدرة وراء قوافل الابل ، وفى أحمالها، وفوق ظهورها وفى أصوات سادتها ومنشديها وحراسها ... قد تقع الغواية لأهل قرى الصحراء ، للمستقرين المترفين فى محطات القوافل ... فتقوم دعوة للتصحيح ... دعوة لاسترجاع الفطرى ... واستبقاء الطبيعى ... تقوم دعوة نبى ... دعوة الى قوم « من أخيهم » ... دعوة يدعو بها الله الى هذا الطريق الواحد المفتوح ــ بين الطرق المسدودة ــ لبناء حياة الفرد وحياة المجتمع... فى البادية... أو الحاضرة دون استثناء.

* وللمرة الأخيرة ، وبأقصى كماله ــ يظهر الدين من بلاد العرب ... يظهر بدعوة نبى عربى هو محمد ... ونداء كتاب عربى ، من عند الله ، هو القرآن ...

يظهر هذا الدين « ثورة انسانية » تقدم برهانها من الحس والمعقول، وتبنى وجودها على التطهر والعدل ، وتنمى حياتها بالعمل والجهاد ...

وعندما كتب الله القتال على طليعة المؤمنين دافعوا بالسلاح عن وحدة المجتمع ، وعن اتحاد القبائل فى الجزيرة ، ورفضوا انصاف الحلول .

ودافعوا بالسلاح من بعد ذلك عن حرية الشعب العربى ووحدة وطنه باسقاط حكم الطبقة ، وحكم الارباب ، حتى امتد ذلك بغير اكراه الى أرض فارس والروم .

ونشروا من بعد ذلك ثورة سلمية علمية عمرانية ، منفتحة على كل البشر ، من أجل سلام ورخاء كل البشر ، بظهور قاعدة العمران الاسلامية العلمية ، بين أولئك البداة الذين كانوا أول من خطط المدن

حول المساجد التى هى مراكز الدعوة الى الدين والى طهارة النفس والقلب واليد ... وأول من شق فيها الطرق ، وانشأ المكتبات ـ خبز العقل ـ « والحمامات » طهارة الجسد ... انه بظهور الفكر العلمى « المنهج التجريبى » الذى أدركه العرب بطبيعة نظرتهم الواقعية ، وبصحة نظرهم وفهمهم لكتاب الله ... اتيح بالعمران الاسلامى المتسع أن يصل الى أوروبا ليكون بكل مؤثراته فاتحة عصر المكتشفات ، فثورة الصناعة ، ثم ثورة التكنولوجيا .

والسؤال الوارد ... هل من الممكن ان تتجدد هذه الثورة من ذاتها ... فى شعبها ... وعلى ارضها ... وانفتاحا على عصرها وعالمها ؟

والجواب يأتى بالايجاب من ناحيتين :

* يأتى من جانب أعداء هذه الأمة العربية الذين يحاربون وحدتها وبقاءها لهذا السبب بعينه (*) .

* ويأتى من جانب هذه الامة العربية من طريق ثورتها التى تؤكد بها ضرورة الوحدة والبقاء ، وتوحى بقدرتها على اضافة الجديد الى ثورة الشعوب ... وانسانية الانسان .

وسؤال آخر ... ماذا حدث بعد للانسان العربى ... وهو يعبر من سواحل الاحساء الى سواحل الحجاز الى جبال الالب والى مناطق الباسك فى جنوبى فرنسا ... وحتى أطراف الصين ... يعبر بثورته الانسانية الكبرى لأولئك الذين لم يرهم من قبل ؟

حدث ما يحدث من تدفق العذب فى الاجاج ... لقد ذهب العذب وبقى الاجاج ... ولا بد من عذب جديد ... نستقطره من الاجاج ، أو نستمطره من السماء .

ولكن هذا الانسان العربى ، الذى عاد من رحلته الطويلة ببعض الاجاج فى عذوبته ، ببعض الغيوم فى نظرته ، بكثير من الجراح فى قلبه وكثير من بصمات الشعوب فى فكره ... لا يزال من أجل « وجود جديد» يملك الكثير من أسباب هذا الوجود ... لا يزال يملك :

١ ـ أساسا لنظرة علمية
٢ ـ قاعدة لحياة جماعية
٣ ـ قدرة على حركة قومية
٤ ـ حافزا لطفرة تقدمية
٥ ـ تفتحا لعلاقات انسانية
٦ ـ عقيدة يفسر بها الحياة وينفذ بها الى جدل الحياة ، وهو يبنى الحياة ، ويتعمق بها نظره الى واقع الحياة ، حتى لا يتخلف به تطور الحياة عن الطريق الافضل والاعدل فى الحياة ...

الانسان العربى بهذه الخصائص ، وعلى طريق ثورة ، وفى وجه عدو ، وتحت عبء تنمية يستطيع أن يمضى فى جمع ما تناثر من فكره ، وما نزف من عقيدته ، ليخلص من غربة « الشتات » ... عائداً الى نفسه ... الى حقيقته ... الى عقيدته ... عائدا الى النبع ... الى الدين الخالص ... الى الله الحق .

(*) راجع مقررات واستنتاجات لجنة بيترمان رئيس وزراء انجلترا سنة ١٩٠٧ .

وفى هذا الكتاب ... كتاب « الاسلام وقضايانا المعاصرة » لا أقول انى سأقدم فى الصفحات القادمةهذه الدراسات الانسانية والانثروبولوجية عن « الانسان العربى » ـ بطول التاريخ وعرض الجغرافيا وارتفاع الكون ونسبية الحياة ـ ... ان هذه الكتابة بكل هذه الابعاد عن هذا الانسان ـ الذى كان يوما ما نحن .. الانسان الذى نحن اليوم هو بالامس ... الانسان الذى كان « البطل » دائما فى قصة الدين ... الذى كان ـ كما تكلم يوما عن نفسه ـ الانسان الذى سار حيث لم يسر أحد مثله فوق الأرض المجهولة ، مع الطبيعة ومع الآفاق ... الانسان الذى كان الأب للقبيلة ... والنبى للأمة ... ومقسم الأموال فى الجماعة ... الانسان الذى كان مجير الغرباء والمستضعفين وعابرى السبيل ... كان حارس طرق تجارة العالم الامين ... وناقل حدود الشريعة عن طريق انه يحياها بنفسه ... أول ثائر على الملوك ... وأول مكتشف للبر والبحر ... أول انسان يضبط ايقاع حياته على الواقع ، ويفهم حركة الواقع بالعلم ... ويقدم ثمرة حياته للجميع ... الذى كان بيقينه أقل من تفلسف ... وأروع من تكلم ... وأعظم من انجز عملا ... وأصدق من جعل هذا العمل بين الناس وللناس فى سبيل الله ... الذى منحه ومنح الحياة ... هذه الحياة ...

ان هذه الكتابة ، بكل هذه الابعاد ، عن مثل هذا الانسان لا بد أن تكون يوما ما جهد عدد كبير من الكتاب ... وملء موسوعات من الكتب ... ولكنى ـ مع هذا الانسان ـ أحاول أن أقدم اتجاه فكره متجددا فى ستة قضايا من مشكلات عصرنا ... اقدم فيها ضوء الاسلام على هذه المشكلات بفهمه ... اقدمها برأيه ... أو بالادق اقدمها بما أحس واستشرف واومن ان هذا هو فى قلوبنا جميعا فهمه ورأيه ... كما نسمعه أو كما يبدو لنا اننا نسمعه نابضا برتابة ... وديمومة ... ويقين ... من كتاب حياته وكفاحه مع الله ، وفى سبيل الله ... ولن تنفد كلمات الله .

هذه الموضوعات الست هى قضايا الوجود الظاهرة فى حياة الانسان العربى المعاصر ... قضايا هو أساسها الموضوعى ... وفكره الدينى هو المبدد بجوهره لظلماتها وشبهاتها ، وهو جسره المأمون للعبور بها الى حقائقها وغاياتها ...

وهذه الموضوعات التى اقدمها شبه مستقلة بعضها عن البعض الآخر هى فى الحقيقة مترابطة بالاختيار ، وبالترتيب ، وبالتناول ... وهى كما ارجو أن تكون ـ مجال متاح لبيان ان العلاقة بين الانسان العربى وفكره الدينى ، وقلبه الانسانى ـ غير قابلة للانفصام فى كل ما يعبر عنه واقعه النضالى ، وهدفه الحضارى .

هذه الموضوعات التى فرضت نفسها علينا وعلى العصر ـ هى فيما اعتقد ، ومن هذا الفرض نفسه ـ القاعدة ، او الأرضية الصلبة التى ستنمو وتزدهر عليها من جديد خصائص وملامح هذا الانسان الحر ، فى حياته الجديدة ، التى ينبغى ان يتدفق فيها الى أقصى احتماله وبكل حاجته ـ الجديد والصحيح ...

ومن الاحتمالات الواردة أيضا ان تتيح لنا مثل هذه التجربة انقترب بفكر واضح وباستخدام منطقى لخصائص هذا الانسان وتاريخه فى أعماق نفسه ـ من تخليص مقومات الشخصية العربية من كل شبهات عصور الانحلال الماضية ، ومن آثار التجمد لهذه المشكلات الناتجة من ظروف الصراع المعاصر ... فى وقت واحد ...

الموضوع الأول يقدم صورة مركزة عن موقف العرب والاسلام الراهن من العالم الجديد ... موقف البحث عن الذات القومية فى مواجهة الآخرين ، فى مواجهة الصديق والعدو فى وقت واحد .

والموضوع الثانى وهو عن « العلم فى القرآن » تتأكد به النظرة العلمية فى حياة العربى ـ البدوى ـ الأولى ، كما يتأكد بناء العقل العلمي للمؤمنين على أساس هذه النظرة ، وكما يتأكد برهان القرآن على أن ذرة العلم مثل ذرة الكون المادى وحدة من لبنات ثلاث ، والعلم الذى يقود التكنولوجيا هو لبنة واحدة منها ... وتجزئة هذه اللبنات يخرجها من معناها . . . يفتتها ويدمر الحياة ... هذه هى نصوص القرآن ... بسيطة ومحكمة ومتجددة دائما فى روح العصر !

والموضوع الثالث عن القومية العربية فى محاولة لاستخلاص تصور لحركتها الصحيحة فى حياتنا بعيدا عن الشبهات التى تساقطت عليها ، أو تسللت اليها ، كسفينة فى الانواء ، يرجمها من على الشاطىء ... ويخرقها من بالسفينة .. فالقومية العربية ليست اختراعا أوروبيا ـ كما انها ليست بديلا من الدين كما يزعم البعض ... واذا كان القرآن الكريم لم يدع الى « القومية » فما هذا الا لان دعوته فى طبيعتها انسانية ... ولكن القرآن المنفتح لكل من أراد أن يدخل مع العرب فيما دخلوا فيه من دين الله لايسمح قط لهذا الغير أن ينتزع من هذه الامة العربية قوميتها وسيادتها على أرضها ... بل لقد كان القرآن ـ ولا يزال ـ هو الدعامة الأولى لبقاء الأمة العربية ... وبالتالى ـ ومن غير أن يعلن عن ذلك ـ فان القرآن عامل أساسى فى بقاء القومية العربية وحركتها .

والاشتراكية التى انفتحت عليها تطبيقات الثورة العربية فى مصر هى قضية العصر التى يتدخل فيها الاستعمار والصهيونية بالجذب والتمويه والاثارة ... الاشتراكية هى «الفعل المعاصر» بعد أن تقاربت أمم العالم بالعلم بكل اشكال التواصل ، ثم تناقضت ـ بعد التقارب ـ حول مشاكل التقدم والتخلف ، وأساليب علاقات العمل والانتاج ـ لابد لنا اذن من رأى يتحدد به واقع ارتباطنا بالتطبيق الاشتراكى وتطوراته ... هل لهذا الواقع جذور فى « القديم البسيط » من مبادىء اشتراكيتنا الطبيعية ... وفى المتسق النشط والمتطور من مبادىء الاجتماع فى الاسلام ...؟ أم هناك طفرة محتمة نخرج بها عن مسارنا . . . وننفصل فيها عن انفسنا ... ؟ هذه هى قضية عصرنا ... عليها يحاربنا العدو ... ويحالفنا الصديق ... ويستفتينا المواطن ... ولا بد من جواب ... والجواب قريب ... ينطق به الواقع ... اذا انزاحت عنه الحجب !! هذا هو الموضوع الرابع من موضوعات هذا الكتاب .. الاسلام والاشتراكية العلمية .

و «التربية الدينية» فى هذا العصر تماثل فى اهميتها ـ بالنسبة الينا فى الوطن العربى ـ اهمية التربية التنظيمية العقائدية للاحزاب الاشتراكية ،

واهمية التربية الطبقية الفردية فى الدول الرأسمالية ... هذا النوع من التربية الذى تصاغ به وتنظم وتنمى « عقائديا » ملكات وقدرات الاطفال، ونزعات ومبادرات الشباب ، فهى تقوم على تجاوز مبدأ « التلقين » وعلى فتح مجال التقبل ، وعلى تنمية الاقتناع بالحوار ، والتنشيط لروح الكشف، وتأكيد الدليل بالقدوة ، وبناء المعرفة باليقين . ان التربية الدينية التى اصبحت فى هذا العصر مهمة الشعب والدولة معا ليست هى هذه المواعظ المتفرقة فى كتب الدين كانها شعارات للبركة ، أو تذكارات لماضى عظيم لن يعود ، ماض نشم فيه ـ فقط ـ ريح الآباء الذين أصبحنا فى عزلة عنهم ، بل هى بناء حقيقى لنفس الفرد ، من أجل تحرير وتأكيد ذات المجتمع ، انها صياغة انسانية لحقائق الدين ، بحيث تسير مفاهيمه الواحدة بين المؤمنين به ـ مسلمين ومسيحيين ـ فى اتجاه واضح وعملى يؤثر بوضوح فى دعم كفاح هذا الشعب فى معاركه المتصلة ضد العدوان والتخلف ... هذا هو الموضوع الخامس .

ثم موضوع الجهاد ... الذى هو سلاحنا الاقوى فى وجه العدو ... ما هو الجهاد ؟ ... كيف هو ؟ وبمن هو ؟ ... وضد من هو ؟ ... هذا هو الموضوع الأخير فى هذا الكتاب .

وجها لوجه

وبعد ... فانه قد بلغ بهم « النظام » و « التعاون » و « تنسيق التاريخ » فى أوروبا حدا حرصوا معه على أن يضعوا تاريخا مفصلا وكاملا حتى لكل سلعة من السلع ... لقد أرخوا للصناعات الجلدية ، والمجوهرات، وللعطور ، وللخمور ، وللساعات والاثاثات ... وللاجهزة الدقيقة ... وكانت نتيجة هذه الابحاث وكتب الاحصائيات الدقيقة عن هذه السلع قيام السوق الاوربية المشتركة ... التى منحت سلطانا جديدا للاستعمار ... وقيدا ثقيلا على حركة الشعوب النامية ..

ونحن عندما نكتشف « الانسان العربى » فى انفسنا وعلى أرضنا بالثورة ... عندما نكتشف « جوهرنا » رغم كل ما قصد اليه العدو من تفتيت وجوده بخططه الثقافية ، وغزواته الفكرية ـ أليس علينا أن نؤرخ له بكل الحقائق والتفاصيل ؟ وبكل الجهد والحماس ؟ ... اليس علينا أن نتعرف عليه من كل الزوايا والمواقف ، وفى كل العصور والاجيال ... بعمق وجودنا التاريخى ، وملء كياننا القومى ... وبكل واقعنا النضالى ؟ .

أعتقد ان ذلك هو واجبنا كلما كان ذلك متاحا بالعلم والكشف ، وبالتسجيل والمبادرة ...

لقد كانت غيبة الانسان العربى من حياتنا الماضية هى الظاهرة التى تفسر غيبة الانتماء التاريخى من هذه الحياة ، وافتقاد الشعور القومى ، والايجاب النضالى ، والوعى الثورى ... فلما ظهر هذا الانسان ليملأ النهر المهجور فى حياتنا ، وليضىء المنارة الخافتة على طرقنا ـ اضاءت فى حياتنا الفكرة ، وتدفقت الثورة ، وأشرق الانتماء ، واخضرت الارض ، ونشطت العودة ـ بعد الشتات الفكرى والاغتراب التاريخى ـ الى شاطىء أمن ، ونبع تراث ، وحقائق دين ، وانفتاح وجود .

ولما كنا ـ مع تصاعد الصراع على جبهة اسرائيل ـ لا نزال قبل معركة فاصلة فى احتواء الافعى الصهيونية ، وداخل حصار الفكر المعادى من أجهزة مؤسسات الحرب وشركات الاحتكار الاوربية والامريكية فان فك هذا الحصار العدوانى ، واختراق بطن الكوبرا القاتلة هو آية العصر فى حياة العربى المعاصر ، الذى عليه بثورة فكرية أن يبنى وطن أفكاره فكرا فكرا ، وهو يسترد وطن آبائه شبرا شبرا .. عليه أن يبنى وطن تاريخه ودينه ومعتقداته بكل قيمة الاجزاء ، وأهمية الجزيئات ، وروعة التفاصيل . بذلك تدب فى أرض وطنه روح عقيدته ... يدب روح عقلنا وفكر قلبنا فى الأشياء المحيطة بنا ... بذلك يصبح الوطن حيا ، ويصبح الوطن مقدسا ، ويصبح الوطن منيعا ... وبذلك تتم عودة الانسان العربى الى وطنه ... تتم عودة البطل الى أسلحته ... تتم ثورة التشييد للحقائق والاطلاق للقدرات ... بغير حقد ، و لا تمايز ، ولا صراع ، بين أبناء الوطن الواحد ... بذلك يستعيد الانسان العربى قدرته الكاملة على صنع الحياة فوق ارضه ... وهو ينجز فى وحدة أفكاره وقدراته مهام النصر ... ومثل هذا الامر لن يكون سهلا حتى يشرب الانسان العربى المعاصر بحارا من العلم ، ويرتب فى فكره آلافا من الحقائق ، وملايين من الاجابات والومضات ... وحتى يغوص بعمق السنين وراء صحيح الاخبار ، والاحداث ، وهو يعيد كتابة التاريخ ... يعيد بناء ذلك المعبد الوثنى المزخرف للتاريخ ، المعبد الذى أنفق عليه الملوك ، وشيده العملاء ، واستغله المستعمرون ، وزيفه أعداء الشعوب ... ليخرج من التاريخ بهذه الصفحات المضيئة من تاريخه هو لا تاريخ الولاة ، ومن نضاله هو لا نضال الاستعمار .

مثل هذا الامر لن يكون سهلا حتى يقف العربى المعاصر ـ مسلما أو مسيحيا ـ وجها لوجه أمام الله ، فى هذه الطبيعة العظيمة لبلاده ... الطبيعة التى منحها الله له ، ولم يستتر فيها عنه ... حتى يسير ويرتحل ويتفكر ويملأ العين والقلب من آيات هذا الوطن العظيم ... وطن الجماهير المؤمنة ، المتفائلة ، البسيطة ، الحكيمة ، النشطة ، التى تتحرك دائما ، وتبنى دائما ، ولا تتحدث عن نفسها ابدا ... وطن الأنبياء والعلماء ، وطن الجنود والقادة ، وطن الشهداء والقديسين ، وطن المناضلين والعاملين ... ليتذكر هذا الانسان المؤمن وهو يرى الله وراء كل شىء ، وفوق كل شىء ، أولئك الذين صنعوا على أرض بلاده هذه الصفحات المضيئة من تاريخه ... فيتعلم وهو يضيف سطرا جديدا للتاريخ درس البناء العظيم ... والايمان العظيم ...

شىء كهذا أردت ـ بتواضع ـ فى موضوعات الكتاب المتفرقة أن أوجه اليه الاهتمام ... أن أحدد به اتجاها ذاتيا عربيا لفهم التاريخ والأرض والدين ... فى حياتنا ... بنظرة انسانية كاشفة الى الأمام ... وليس بنظرة تعصبية متخلفة الى الوراء ... لو وقعت هذه الآية ـ ثمرة لنضال قادتنا وأبطالنا وعلمائنا ، ثمرة لهذا النضال المستمر فى حياتنا وحياة جماهيرنا ـ فهى آية العصور حقا ... وما أظن انه على أرضنا ستنفد كلمات الله وآياته ... أبدا .

السويس : رمضان ١٣٩٠ ـ نوفمبر ١٩٧٠ — **احمد موسى سالم**

العرب والإسلام والعالم الجديد

« ان دور البطل الذى أرهقه التجوال
فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل
مكان حولنا قد استقر على حدود
بلادنا يشير الينا أن نتحرك ... فان
أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به »

جمال عبد الناصر

١ — العرب فى العالم

قضية العرب فى الحياة ، بطول الزمن ، واتساع الأرض ، أشق قضايا الشعوب . فالعرب يظهرون فى فكرة العالم التاريخية فى هالة الشعب الذى لا يمكن أن يتكرر ، الشعب الذى كان فى فجر الوجود نقطة البداية المضيئة ، والصلة بين المنظور وغير المنظور ، بين الطبيعى والخارق للطبيعة فى حياة الانسان الأول . على الرغم من أن اسرائيل تحاول فى هذا العصر تحت اسم « الشعب المختار » أن تمتص كل التاريخ العربى ، كما تحاول تحت نجمتها السداسية المرفوعة على العدوان خداع كل العالم .

انه من هذه النقطة المثيرة للخيال ، والتى لم تفقد اثارتها بعد ، تدور فى أفلاك رائعة حول كلمة «عربى» فى التاريخ قصص الحضارات الأولى ، وقصص وأسفار الدين التى لا تزال مغروسة فى وجدان كل البشر ، قصة هذا الالاه الواحد المنزه عن المثيل ، وقصص العظماء البسطاء ونبواتهم المتماثلة الوصايا ، والحافلة بآيات ورواسخ النضال عبر الأزمان السحيقة والقرون . ان العربى لذلك ، ورغم كل شىء ، باق على الزمن فوق أرضه ، رغم اندثار الشعوب ، باق تحت هذه الأسماء الكثيرة التى يحفظ أدوارها قراء التاريخ ، كالبابليين والأشوريين ، والفراعنة والفينيقيين ، والعموريين والأدوميين ، والأمويين والعباسيين ، والفاطميين والأيوبيين ، فاذا كانت منعطفات التاريخ ، ومواقفه الحاسمة برز الانسان « العربى » كما هو ناطقا باسمه ولسانه وفطرته ودينه وهدفه الانسانى الذى لا يتغير ...

ان قضية العرب أشق قضايا الشعوب لأنها ارتبطت بالدين ، وما يدل عليه من المسئولية والجهاد ، ومن دعوة السلام والعدل ، ولأنهم مع تطور الزمن ، وتطور « أدوات » الحياة المادية ، وأشكال وسرعة الحركة بين الأفراد والمجموعات والشعوب ، وعلاقات العمل وثمراته ، وقوانين التوزيع ونتائجه ، يحملون عبء تفسير الحياة ، وبناء العلاقات الاجتماعية ، وتجديد قدراتهم الحضارية من طريق الدين ، الذى هو

مبادىء ثابتة ، كالقوانين العلمية لا تقبل التطور . والدين فى أساسه مرتبط بالوحى ، والوحى لا يزال حتى هذا العصر خارجا كظاهرة عن قدرة الأدوات العلمية على قياسه ، وربطه بالمحسات المادية . كذلك فان الدين الذى هو ميراث العرب الوحيد لتفسير الحيــاة وتحريكها وامتلاكها قد اختلط جوهره ، وهو يصل اليهم محملا منذ عصـور الانحلال بالكثير من غثاء التأويل ، وتناقض الفهم ، وآثار الوضـع والاختلاق فى ذلك الصراع المرير الطويل على السلطة ، ولابد لتخليص هذا الجوهر ، واطلاق فاعليته فى حياة المجتمع المعاصر ، من جهـد شاق ، وحافز خارق ..

ولقد نظر الشعب العربى طويلا الى المــاضى ، وبكل الحمــاس والاستطلاع ، وراء هذا الجوهر النقى للدين ، وراء نقطة البداية ، وراء الصور النقية للمبادىء وتطبيقاتها ، وراء الأمة التى انصب فيها القرآن والوحى ، وراء الطليعةالمؤمنة الصادقةحول النبى ، التى آمنت، وارتفعت فوق أهوائهــا ، واستشهدت على طريق الحق ، والتحرير ، وفك الأغلال ، وشرف العطاء فى كل اتجاه للأقربين ، وللآخرين . لقد نظر طويلا لأنه لا يستطيع الانصراف عن هــدف استعادته لوجوده وارادته باتتصار حضارى وانسانى مستمد من الدين وعدالته . فهو على هذه الأرض العربية الرحيبة المضيئة شعوب تتلاحق بالحياة على مائها وهوائها وضيائها ، شعوب لا تستطيع أن تغمض أعينها عن آيات الله فى كل أفق ، أو تصم آذانها عن ندائه لها من كل اتجاه ، فالله حى بينهم ، وحى فيهم ، وحى عند ملتقى أبصارهم وآمالهم ، ولكن الطريق الواحد اليه أصبح بالتراث المتضارب ــ لولا القرآن وصحيح الحديث ــ طرقا مليئة بالركام والعثار ..

وحاول الشعب العربى ، ولا يزال يحــاول ، وهو يشق طريقــه بالجهاد والاستشهاد أن يعرف البداية ، بداية وجوده ، بداية لغته ، بداية مقوماته ، بداية عقيدته ، ولكن كل القوى المعادية حاولت طبلة سيطرتها الطويلة على فكره ومقدراته أن تعمل بكل الوسائل لكى تضيع منه هذه البداية ..

لقد حاولوا باسم الدين أن يمسحوا خطاياهم فى المرحلة « القبلية » الأولى من حياة العرب ، وأن يجعلوا كلمة «عربى» قبل الاسلام لا تعنى الا « جاهلى » ، بينما الجاهلى بالقياس الأخلاقى والعقلى والاجتماعى أفضل كثيرا من «كسروى» و «قيصرى» ، وليس هذا مجال المفاضلة والزهو ، ولكن الأمة التى ظهر فيها الدين عبر عشرات القرون ، ولم يظهر على غير أرضها ، وبغير لغتها ، لا يمكن أن تكون محرومة من مقومات هذه الانسانية العليا التى عرضتها دعوة كل الأنبياء على هـذه الأرض ، والتى نشرها أبناء هذه الأمة ، ولا تزال الى اليوم هى المثال لكل البشر ، والأمل لتصحيح المسار فى دعوة كل من محمد والمسيح.

ان النظـام القبلى فى حيـاة العرب المستمرة كان طور الطفولة الاجتماعية فى بناء مجتمعاتهم وشعوبهم المتجددة ، كان الطور الذى لا يمكن أن يتكرر بشكله بعـد استقرار القبائل وتحضرها ، ولكنه يبقى فى كيانها ولا شعورها ، فى ذاكرتها وأحلامها ، لتبقى وتعى وتعيش رسالتها ــ بالطفرة والثورة ــ اذا دهمتها الكوارث والنكبات واغارات الأعداء . وكلما تغذى المجتمع العربى على أحواض الأنهار ــ عن طريق الهجرة المتتابعة ــ بطور قبلى جديد ، توهج هذا المجتمع بالتجـدد والانسانية والأصالة والاقتدار ، وقامت حضارة جديدة حية زاهية ، فوق حضارة أخرى أصابها الذبول والانحلال ..

لذلك فان الاسلام لم ينقض نظام القبيلة ، وانما وحد بين جميع القبائل على المسار الطبيعى لبناء أجيال الأمة الواحدة ، لقد قال الله انه جعل قبيلة قريش فى رعايته « لايلاف قريش ايلافهم » كما أنعم قبلها على قبائل عاد وثمود ومدين وغيرها ، فلما عصت آخذها وأبادها . لذلك فليس عجيبا ، باعتبار القبائل فى طور البداوة تنظيمات بشرية متحركة ، أن يسترجع المجتمع المتحضر فى حركته التقدمية ، ودون اختيار ، نظام القبائل نفسه فى شـكل نظام « النقابات » العمالية بأنواعها ، نقابات الكادحين والمثقفين ، فى عمليـة حتمية للدفاع عن « الحق الانسانى » لهذه الجماهير العاملة غير المنظمة التى تبنى الحياة. لقد رجعت الجماهير ذات الحقـوق المسلوبة ، رجعت فى الشـكل

والمضمون الى تشكيل التنظيم النشيط والمناضل للنقابات أو « القبائل الاجتماعية » التى تتطلب أن تربطها عقائدية العمل والعلاقات المتساوية فى الانتاج لكى تنتظم فى أمة متفتحة بالاشتراكية والسلام على كل العالم ، انها تضع رابطة « لقمة العيش » وقانون العمل فى النقابة بدلا من رابطة الدم والعرف فى حياة القبيلة ، وهذا هو الشكل المتقابل ، والمتطور على الطريق الصحيح بين الطبيعى والصناعى فى التنظيمات الانسانية ، بين البداوة والحضارة فى قوانين الاجتماع المتسقة فى حياة البشر .

ان دراسة الطور القبلى الذى هو البداية الى وعى التاريخ الاسلامى وتفسيره ، والى فهم جوهر الدين والامتداد به ، والى تصور المعنى العربى ، الانسانى ، غير العرقى ، والتوحد عليه ، هو ضرورة وجود ، وضرورة نضال فى مواجهة التحديات التى اجتمعت على العرب فى هذا العصر ، تحديات تناقض التراث ، وثورة التكنولوجيا ، ومعركة اسرائيل .. !!

٢ — من هو العربى

العربى فى هذا العصر الذى هز بالثورة كل أرجاء الوطن العربى هو عند المثقفين ساكن المدينة* ، ولكن ساكن المدينة الذى يحمل أعباء الصحوة والثورة العربية فى مصر ، وفى ليبيا والسودان ، وفى سوريا والأردن ، وفى اليمن والعراق ، وفى الجزائر والمغرب لا يكاد يعرفه — الا قليلا — على وجه الدقة التاريخية « من هو العربى ؟ » ... لا يكاد يعرفه كيف نشأت القرية العربية من هجرة القبائل ، كما نشأت المدينة من هجرة أبناء القرى . لم يدرس القوانين الاجتماعية التى

* الكتب العربية القديمة تقسم العرب الى ثلاثة أقسام : بائدة ، وعاربة ، ومستعربة . اما العاربة فهم الذين يقيمون بالجزيرة العربية باللغة واسلوب الحياة . واما المستعربة فهم الذين « يجهدون » عروبتهم باللغة والسلوك ، كلما تأثرت عروبتهم فى حضارات الانهار بالغزو الفكرى الاجنبى ، والقهر الاجتماعى . واشهر مثال المستعربة هم ابناء اسماعيل .

تتحرك بهـا موجات الهجرة عبر الصحراء الى المنزرع ، من الأرض المجدبة الى أحواض الأنهار ، حاملة فى هذه الموجات كلمات اللغة ومعانيها ، وشرائع الوحدانية والدين وغاياتها ، وهذه الحيوية المدخرة لبناء طور جديد من الحضارة الباذخة بدلا من تلك التى تكون قد أدركتها الشيخوخة ...

المثقفون العصريون ينسـون مع الاغارات الفكرية الاستعمارية المتجددة عليهم كثيرا من التاريخ ، وكثيرا من اللغة ، ولا تبقى لهم الا بقايا انطباعات عن تلك المرحلة البعيدة المختزنة فى أعماق الذاكرة عن طفولة الشعب العربى البدوية ، التى شبع فيها الانسان العربى قبل التاريخ حركة وانطلاقا وصدقا ، وهو يساكن النجوم والأضـواء ، ويعايش الرياح والآفاق ، فى بيـداء بلا حدود ، يغمرها السـكون والحبور تارة ، ويهزها الصراع والأعصار تارةأخرى ، فى جدل لا تنقضى عجائبه ، ولا تنقطع مواكبه ، بين جيل ينسى وجيل يتذكر ... بين قوم يمحقون بالمعصية ، وآخرون يستخلفون بالنعمة ..

ان المثقفين الثوريين العرب عندما يمدون أبصارهم فى هذا العصر فيبصرون على أطراف مدائنهم مشاهد هذه الصحراء العظيمة بشموسها وأقمارها ، وسماواتها ، ونجومها ، ورمالها ورياحها ، حول مساكنهم المستقرة لا تكاد تنقلهم هذه المشاهد مع الروح الثورى للعصر ، الى تذكر بداية التاريخ القبلى لأمة فى طور جديد للتجمع ... لقد وقع فى مثل هذا الخطأ أمثال ابن خلدون ، الذى أعجب به المستشرقون ، وقدره الاستعماريون ، لأنه لسوء حظه وهو المتصدى لأصول علم الاجتماع لم يستطع أن يجيب الاجابة الصحيحة على هذا السؤال المتجدد أمام جماهير العرب عصرا بعد عصر حتى لا تفقـد الطريق ، ولا الأمل ... « من هو العربى ؟ » ...

لقد خلط ابن خلدون بين العرب كأمة لها دين وسـياسة وتجارة وثقافة وعمران وعلاقات دوليـة ، وبين العرب بمفهوم طور البـداوة والاعرابية . وهو فى مقدمته يضطرب فى تعريفهما ، وفهم العلاقة بينهما. اننا نجده يمدح البداة ببعض الصفات كالكرم وخفض الجناح والتجافى

عن أموال الناس ثم يعود فينعتهم بأقبح الصفات ويقول انهم « أهل انتهاب وعبث » . وكذلك نجده يتحدث عن البدوى فى مقابل الحضرى على طرف نقيض ، عاجزا عن اكتشاف هذا القانون التعاقبى الذى يخرج به أحدهما من الآخر ، فى ذلك المدار الجدلى لحركة الحياة فى الأشياء والاحياء على السواء . فهو يرى البدوى شجاعا وحشيا أى فطريا طيب الخلق فى مقابل انه يرى الحضرى خوارا مترفا ورخوا مخادعا وكذابا ... ثم يعود بعد ذلك كله فيزعم — رغم كل التاريخ — أن العرب أبعد عن سياسة الملك ، وعن العمران الحضارى !!

لم يكن عجيبا أن يرفع المستشرقون ابن خلدون بسبب هذه الخطايا العقلية الى مصاف الأبطال ضاربين صفحا عن تناقضه بقياس العلم ، بل متجاوزين عن انتهازيته التى حملته على موقف الخيانة لشعبه عندما خرج فى جيش مصر مع الناصر فرج سلطان المماليك لقتال المخرب التتارى تيمورلنك فذهب فى ثوب المهانة والمصانعة يلتمس الحظوة عند القائد التتارى لعله أن يجد مكانا لطموحه الضائع !

وعندما نجح الكثير من تخطيط الاستعماريين ضدنا عمدوا الى تدبير الاغارات الوحشية على اللغة العربية كمعقل أخير لكل ذخائر الأمة .

لقد ارتفعت فى ذروة السلطة للاستعمار قبل الثورة تلك الأصوات الزاعقة ، بأعينها الزائغة ، وعقولها الفارغة تنادى بخطر بقاء اللغة العربية على شكلها الصحيح ، وطالبوا لأسباب ملفقة بهدم كل الطرق الثورية لاحيائها وانهاضها ، كما طالبوا بحماية العامية الفصحى ! وكان العجب أن يتم ذلك — فى ظل الاستعمار — تحت راية العمل الوطنى ، بل والاتجاه الاشتراكى ... !!

وربما كان من أشد هؤلاء الفرسان الهوسبتاليين ضراوة باردة ، وخصومة ملساء فى حرب اللغة العربية رائد من رواد الثقافة الجانحة فى بلادنا فى تلك الفترة ، هو « سلامة موسى » الذى رفع كل دعاوى الاشتراكية والليبرالية والعلمانية على أغلاله الفكرية الثقيلة وهو يجرها على طريق التبعية العمياء للغرب ... !

أحد هذه الأغلال كتاب سماه سلامة موسى « البلاغة العصرية فى اللغة العربية » ، ومن بعض ما ورد فى هذا المنشور الاستعمارى مما يمس موضوعنا عن محاولات طمس معالم « الانسان العربى » واستئصال جذور « الانتماء العربى » فى حياتنا النضالية ... قوله :

• « هناك لغة عصرية ... فالآن يجب أن نتكلم فى الصناعة بدلا من الزراعة » ... كأنه يشير بذلك الى ضرورة انتزاع كلمات الخبز والأرض والفلاح والريف والنهر والشجر ... الخ لكى ننقل عن الغرب كلمات الصناعة التى استحدثها العلم الجديد بعد الثورة الصناعية ..!!

• « وهناك ثقافة عصرية » ــ يقول بالنص ــ « نحن نؤلف عن معاوية بن أبى سفيان ... لماذا ؟ يجب أن نكتب عن هنرى فورد ملك السيارات ... مثلا » !!

ان سلامة موسى . الذى لا شك أنه أدرك بعد موته كثيرا من أخطائه كان يجهل بالتأكيد أن مثله الأعظم « هنرى بن أبى فورد » لم يصبح « فوردا » الا بعد أن رضع حتى الثمالة لبن وخمر كل التاريخ الأوربى القديم والحديث ، ومعه بالطبع تاريخ ولادة أمريكا ، وأنه وهو يستحم كل يوم مرتين كان يتذكر بنشوة « عظمة روما » القديمة، ويفكر بقلق فى امكان انهيار روما الأمريكية الجديدة على نهر انبوتوماك، وكان يعرف ربما بالدقة كمؤرخ تلك الأسباب المعجزة التى كفلت انتصار دكتاتور روما الشهير كنتوس فابيوس مكسيموس الذى حقق وجود روما الطويل بانتصاره المحظوظ على البطل العربى وساحر المعارك العسكرية القديم حنا بعل « هانيبال » ... نعم فابيوس الذى لم يكن سلامة موسى يعرف عنه الا أنه فقط علم على الاشتراكية الفابية !

لماذا اذن لا يعرف العرب كل شىء عن معاوية بن أبى سفيان ؟ !

كذلك زعم سلامة موسى ــ كدلالة على سهولة العلم ومتعة تأليف الكتب للعامة والأميين ــ أن هناك ارتباطا بين شعبية الأشتراكية وشعبية اللهجات العامية !!... كيف !؟ ... يقول المبتدع الاقليمى ان الشعبية صفة الاشتراكية والعامية معا ، فهذه هى الرابطة ... وهو

يجهل أو ينسى أن يقول ان الاشتراكية « تقدمية » والعامية « تخلف » فلا لقاء بينهما الا فى أفكار دعاة الغزب !!

لقد كانت الفصحى منذ نشأتها الأولى هى لغة الدعوة ولغة الحياة والجماهير ، حيث لم تكن هناك طبقة غير الجماهير . كانت القيادة من القاعدة ، ولم تكن هناك طبقة أخرى من الداخل أو الخارج ... ثم وقع الانحلال بالترف ثم بالقهر فانحلت الفصحى التى لا تعنى تقعر سيبويه، ولا تكلف ابن المقفع ، ولا سكرات ابن الرومى ، والتى لا تعنى عودتها اليوم الا صحوة الحياة من جديد ، والصحة فى حركة المجتمع ، وفى وعيه ، على طريق التحرر والتقدم والوحدة ...

ان اللغة الصحيحة تعنى التجدد فى جهاز الاجتماع . انها تعنى التجدد بعصارة جديدة للحياة تدفعها الحرية الى كل عرق وقلب ولسان . انها تعنى استعادة أكبر قدر من المعانى المفقودة التى تتم بها وتتكامل حياة المجتمع الحر النامى المتقدم ... هكذا كانت أساسا للقومية واجتماع البشر ..

ان العامية اذن هى العجز ، وليس العجز شعبيا الا بالقهر ، وليس العجز اشتراكية الا بالادعاء ، لأن الاشتراكية التى يدخل بها الشعب فى تنظيم بشرى عقائدى لا يمكن أن تصلح له أو أن تنهض بأغراضه الا اللغة الحية الخصبة الصحيحة ، العصرية والمعبرة ، التى تزيد من مساحة المعانى التقدمية والنضالية والانسانية فى حياته ووعيه ..

ان المسافة بيننا وبين تحقيق أشرف وأعظم أهدافنا التاريخية هى المسافة الصوتية بين لغتنا الدارجة اليوم وبين أصوات اللغة الصحيحة العصرية المعبرة عن تقدمنا فى الاتجاه الصحيح .

٣ — أحاديث وآمال الاعداء

هكذا كان الاستعماريون والخائفون وراءهم ، والجانحون بالثقافة لحسابهم يضللون ويكثفون الضباب والظلام ، ويلقون بالشكوك على طريق الاتصال العربى لغة وتاريخا وعقيدة ، وكان علينا دائما أن نجىء فنبدد بالعلم والايمان والنور كل ما يلقونه على الطريق من ظلام

وضباب وشك .. من أجل حق الوجود ، وكرامة الوجود !

فى هذا العصر ... ما هو موقفنا من العالم ... وما هو موقف العالم منا ؟

علينا أن نعرف أولا ـ كيف كنا قبيل الثورة ؟ ... وثانيا كيف يرانا الأعداء اليوم ؟ ...

انه بايجاز ـ فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر ـ ظهر التمزق جليا فى وحدة المسلمين الفكرية والسياسية . لقد عاد مد الفتح العربى الاسلامى بكل ما حمله من ايجابية ونقاء الى جزر شعوبى تراجع به الحضارة الاسلامية ، وتضيع معالمها ، تحت ضغط ارتداد فلسفى غربى ، وانفصال روحانى شرقى ، وتيبس سلفى عربى ، ثم ضياع وقلق وشتات وتخلف بين عامة المسلمين فى دوامة هذه التيارات.

لقد انقسمت نبضة العقيدة الصحيحة للالاه الواحد فى قلب الشعب الواحد الى ثلاث نبضات واهنة ، عاطلة عن البرهان القاطع ، والاندفاع الواثق ، والايمان المؤثر فى حركة الواقع والحياة . لقد انقسمت الى :

• مذهب سلفى يتمسك توارثا بالنقل عن الكتاب والسنة .

• مذهب عقلى فلسفى ينظر فى جميع قضايا الكتاب والسنة بعين الفلسفة الأرسطية التى تتحدد بها المعانى العقلية بخصائص اللغة اليونانية ومصطلحاتها البعيدة عن أى وفاق فى المعنى مع خصائص اللغة العربية .

• مذهب صوفى روحانى يتحلل من شرط العقل والنقل معا ... يتخلص من الفلسفة ، ولا يتقيد بالشريعة ، وانما يمضى مع التجربة الشخصية لاثبات الحقيقة الالاهية من طريق الاستلهامات الروحانية .

خضع العالم الاسلامى بذلك ـ قرونا طويلة ـ لمحنة التثليث المتناقضة فى حركته الفكرية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وأصبحت قيادة هذه الحركة الى ثلاثة أنواع من الرجال يتصارعون بمرارة تحت شعار واحد هو الاسلام والقرآن وسنة الرسول ... لقد خضعوا لكل من :

• عالم الكلام الفيلسوف المتكلم فى الكنه والماهية والذى يحبو بثرثرته حتى يغيب فى ظل أرسطو ...

• الصوفى الذى أعطى الدنيا ظهره ، ورفع نفسه بالغيب ليستوى على عرش الشهود فوق رعاياه من المتزهدين البائسين ، الذين يسمعون ويطيعون ... ولا يعترضون !

• الفقيه السلفى المتطهر ، العربى اللسان ، المتمسك بالكتاب والسنة ، الذى قصاراه فى الدفاع عنهما أن يمسك بهما ، فليس يعنيه ما ترسب عليهما من تفاسير تجافى العقل ، أو أحاديث تعارض القرآن ، كما لا يعنيه أن هذه الأثقال الموضوعة المترسبة حول الكتاب والسنة تجعل حركته مع الحياة مستحيلة ، سواء الى الأمام تجديدا ... أو الى الوراء استسلاما .

فى هذا الموقف قبل الثورة كنا نرى أنفسنا .. وكان يرانا الأعداء . ويرانا الأصدقاء ! وفى هذا المعنى نفسه يقول جورج كيرك فى كتابه « موجز تاريخ الشرق الأوسط » عن الاسلام كما يراه فى العصر الحديث :

« ... ولم يبق بعد ذلك فى الاسلام شىء من الحيوية الا فى جماعة الصوفية ، وهذه قد اتسعت الفرقة بينها وبين أصول الدين القويمة على مر القرون حتى تحولت شعائرها الى مبالغات متطرفة ، وشعوذة مبتذلة » .

على أن الأعداء — الذين أسهموا فى الكثير مما أصاب العرب والمسلمين لا يزال لهم النشاط المتجدد فى خطط تمزيق العقيدة ، واصطناع الأفكار والمذاهب والقيادات الدينية المشبوهة لتضرب بها الصحيح من هذا كله ، مع اضرام النار فى تجارة الموبقات ، وثقافة الشك ، واسقاط قيمة العمل ، وقيمة الانسان ، فى حياة الأمة العربية ، والشعوب الاسلامية ..

ان الصهيونية المعاصرة لم تغير طريقها الذى كان يسير عليه اليهود القدماء فى حربنا ومعاداتنا . انها لا تزال بأجهزتها وراء الأقنعة الكثيرة ، أو سافرة وراء واجهة اسرائيل ، تصوب الينا مدفعيتها

الدعائية المحمومة بالتمويه والتضليل فى اتجاهات كثيرة أبرزها :

• محاولة تدمير أى تجمع فكرى يخدم مفهوم القومية العربية أو يحرك الاهتمام بها ، وهى بنشاطها المتنوع فى هذا المجال تفسر عداءها الشديد للثورة العربية فى مصر ، واحتشادها الدعائى لمقاومتها ، ومحاولة حصار النشاط الخارق لقيادتها والتشويش عليها ...

• اظهار التفوق اليهودى ـ بالعرق والدين والتاريخ ـ على أنه « القدر المحتوم » الذى لا يقاوم « كجنس متهيىء لقيادة الكون » فلا قدرة للعرب ولا لغير العرب على مقاومته !.. فى هذا يقول دزرائيلى فى روايته الدعائية للعنصرية اليهودية « دافيد آلروى » ـ « كل شىء عرق ، وليس ثمة حقيقة أخرى ...! » أى ان عنصر التفوق لليهود لا يناقش على أساس علمى ... انه كارثة فلكية بالنسبة للبشر ... يجسدها الذين جاءوا فى زعمهم لخلاص وتمدين العرب المتخلفين !

• الاستخفاف بالعرب وتحقيرهم الى حد التهريج والسخف الذى لا ينطلى على أحد ، حتى الصفات الخلقية فى حياة العرب وتقاليدهم الثابتة التى تقل عنها الغرب خير أشكالها دون مضمونها فى « الفروسية » ومثل الشجاعة والعفاف وتعشق الحرية يسلبونهم اياها فى حوارات روائية صبيانية يعزون بها أنفسهم عن الجبن والضعة الذاتية والعدوان والصلف وغلظة القلوب والرقاب ...

• نشر الأكاذيب والأخبار المغلوطة عن الاسلام ، وتمويل نشر الكتب المضادة للدين الاسلامى والفكر الاسلامى بأقلام وأبواق يشترونها ويرتبون لها دعاياتها المضللة .

على أن أضداء هذه الأكاذيب الصهيونية عن العرب المعاصرين تظهر أحيانا بشكل عكسى فى صحافة اسرائيل المحلية ، ففى صحيفة القدس الاسرائيلية خلال شهر مايو سنة ١٩٧٠ نشرت بعض المقالات عن « الموقف العربى وموقف اسرائيل » جاء فيها :

« الحديث عن العرب ينبغى أن يكون باعتبارهم مسلمين حيث ان أكثر الأقليات المسيحية العربية ترى أيضا أن الاسلام هو أحد أمجاد الأمة العربية ..

ان التحرر من الاستعمار فى المشرق والمغرب العربيين ، والسير فى تطوير هذه البلاد ، قد أدى الى تجديد ايمان الكثيرين من العرب بأن التاريخ الذى اعوج مساره قد أخذ يجدد مسيرته فى الطريق الصحيح. ان اسرائيل قد انتزعت جزءا من الوطن العربى ليس فقط يعتبر من أهم أجزائه ، بل هو فى نفس الوقت جزء حساس من العالم الاسلامى له مكانته الخاصة فى نظر جميع المسلمين . لذلك فان المقالات التى يكتبها بعض المثقفين العرب ليقولوا « اذا قامت اسرائيل ضاعت العروبة » ليست مجرد شعارات ، بل هى تعبير عن قلق هائل يخالط نفوس العرب عن طريق نظرتهم لكرامتهم وأمجادهم » .

ثم تقول الصحيفة الاسرائيلية :

« ان الفكر المثالى عند المسلمين ينطلق من الاحساس بالتفوق السياسى والعسكرى ، ونقطة البداية هى موقعة « بدر » التى لا ينسونها ، والتى تمثل دائما على قمة عدد من الانتصارات الأخرى مبدأ انتصار القلة المؤمنة على الكثرة غير المؤمنة . ولما كان النصر هو أبرز ما يبلغه المسلم فى عمله فان النظرة الاسلامية لا تحتمل أن يقيم المسلمون تحت حكم غير اسلامى . ان هذا يفسر مدى القلق النفسى للعرب جميعا من أجل القضية الفلسطينية . ان على اسرائيل أن لا تمنى نفسها بأن تغيير الموقف العربى هو أمر قريب المنال ، أو هو مجرد عمل سياسى » .

يتبقى فى مجال التصور لأحاديث وأمانى الأعداء ـ وهى كثيرة بغير حصر ـ أن نشير الى اتجاهات متنوعة يتألف من مجموعها حصار على الفكر العربى لاسقاطه فى اليأس :

ان الهدف من تحقير العرب والاستخفاف بهم لا يأخذ طريق السباب العصبى لهم ـ كما اعتاد أن يفعل بعض علمائنا تجنيا بغير علم ـ وانما هو تحقير مخطط وموجه لضرب التعرف على الذات ، أى ضرب هدف الحرية ، وضرب جذور التاريخ العربى ، أى ضرب القومية ، ثم ضرب التقدمية والحس الحضارى ... مثال ذلك ما يجىء على لسان

شخصيات الرواية الصهيونية « اكسودس » أو « الخروج » ما خلاصته* :

« لو كان عرب فلسطين قد أحبوا أرضهم ما كان بوسع أى كان طردهم منها ، بله الهرب منها . لقد كان لدى العرب قليل من الأشياء ليعيشوا من أجلها ، وأقل من ذلك ليقاتلوا عنها » !

ومثل قول المؤلف اليهودى على لسان ممثليه فى نفس القصة :

« لقد خير العرب بين أن يقاتلوا ، الأمر الذى لا يريدونه ، وبين أن يهربوا ، الأمر الذى نفذوه » !

وكما جاء فى محاولة نفس المؤلف أن يصور العرب بأنهم « سكان الصحراء » الذين اجتهد التدوين الشعوبى واليهودى ثم الاستعمارى خلال قرون طويلة أن يجعلهم فى صورة « البلهاء » و « القساة » و « مدمنى الخمر » و « محبى النساء » ثم يقول وهو يقدم العرب المعاصرين على أنهم هؤلاء « العرب الصحراويون » — الذين تجاهل التاريخ الصهيونى والشعوبى والانفصالى المعاصر انهم « جيل الأنبياء فى كل عصر » فيقول فى هذه الرواية الدعائية لتضليل بلهاء أوروبا « ان حرب ١٩٤٨ كانت غزوا عربيا من آناس جاؤوا من الصحراء « مدهوشين » أمام المزارع اليهودية ؟ » وكما يقول فى هذه الرواية نفسها « ان العرب أكثر الناس فى التاريخ قدرة على تدمير الأرض المزروعة واحالتها الى صحراء » ! وكما يقول « ان العرب خبراء فى البناء فوق حضارات الأمم الأخرى » ! ... أى أنه لا توجد لنا جذور حضارية ولا فكرية طالما لا زلنا نفتقد الانصاف التاريخى لمرحلة ظهور الاسلام فى مكة بين عرب مكة والمدينة والجزيرة كلها ، الزاخرة بالحياة والحق والعرف والبيان ... نفتقده بينما نبنى ، ونحاول أن نبنى منذ الصحوة أساس وجودنا على أرضنا العربية ، ومواجهتنا لعدونا على أننا عرب فى وطن واحد قديم لنا فيه فضل الحضارات كلها ، وفينا جذورها وقدراتها ، وفينا الدين الذى كان هذا الوطن مهده ، ولغتنا

---

* راجع نماذج من هذه الكتابات المنتشرة فى الادب الغربى فى الكتاب القيم « فى الادب الصهيونى » للكاتب الفلسطينى غسان كنفانى من مجموعة دراسات فلسطينية رقم٢٢

بيانه ، فى التوراة والانجيل والقرآن ... ومن الذى لا ينصفنا ؟ !! انه العدو .. الذى يقاتلنا على شرف الانتماء لأولئك الآباء العظام ، الآباء الرعاة ، على هذه الأرض نفسها ، التى كنا عليها أعظم وجودا بالحق والعرف ، والبناء والعلم ، والعدل والسلم ... ابراهيم واسماعيل ، وموسى وعيسى ، ومحمد ، وأبو بكر وعمر ، وعثمان وعلى ، والمثنى وخالد ، وأبو عبيدة وسعد ، ومعاوية وعمر بن عبد العزيز ، من جيل الاسلام ، وقبلهم فى جيل الجاهلية ورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة ، وأكثم بن صيفى ، والحارث بن عباد ، وحاتم الطائى ، والاحنف بن قيس ، وعروة بن الورد ، وآلاف وآلاف قبلهم وبعدهم ... انه على هذه الأرض الصحراوية نزل الوحى فقرأ العرب فى بداوتهم قبل الناس ، وسلمت منهم القلوب والأبدان فكتبوا قبل الناس ، لقد اخترعوا أعظم المخترعات جميعها حتى اليوم ، اخترعوا الكتابة التى صنعت تاريخ الانسان ، وصنعت علومه ، بينما كان الذين يشتمون العرب اليوم فى الكهوف ، ولولا ذلك « لأصبح العالم(١) كله اليوم أشبه بالقطط والكلاب » ! هذه أحاديث العدو وأمانيه ، ولا ضير أن يقول العدو ذلك ، وأن يكرر ما قاله من قديم ، وهو يحاول أن يضرب « العروبة » وقدرتها على الوجود والحركة .

ولكن أعجب العجب أنيقول بعض العرب ذلك .. مستحيل ! — بل وأن يقولوه اليوم ... وأن يستمروا على قوله فى مؤسسات مسئولة عن الدعوة بالحق ... أو بالصمت على الأقل عن قول الباطل .. الصمت عن عصبية السباب بغير علم ... وهذا مثال على هذه البقع المظلمة فوق بعض جهود الأزهر المؤمنة المضيئة ننقلها عن « النشرة التوجيهية لمجمع البحوث الاسلامية » من بحث غير مجمعى وغير علمى بعنوان « الثورة على الفساد » (٢) :

« أما بلاد العرب فكانت أشد البقاع ظلاما فى أحلك عصر » وفيه

---

(١) من كتاب قصة الجنس البشرى للدكتور هندريك فان لون طبعة مطابع الشعب

(٢) من النشرة التوجيهية التى اصدرها المكتب الفنى للادارة العامة للوعظ والارشاد مجمع البحوث الاسلامية تحت رقم ١٩ بتاريخ جمادى الاولى ١٣٩٠ .

« وكانت أخلاقهم في الحضيض فقد فشا فيهم الخمر وانتهاك الأعراض ولم يكن للزواج عندهم حدود ! » وفيه « وكانت المرأة فى الجاهلية ترسف في قيود الذل والتحكم والاستبداد » وفيه « وشاعت بينهم المظالم وكان سفك الدماء ونهب الأموال من دواعى الفخر عندهم ! » وفيه « وهكذا بلغت حالة بلاد العرب قبل الاسلام الدرك الأسفل من الانحطاط والانحلال » !!

لست هنا فى مقام الرد على هذا السباب العصبى(*) ، الذى يتجاوز تحريف التاريخ الى التحريض على الكراهية ، ولكنى أقول أن هدف هذا التيار ـ الذى يجرى في مجرى وجهة النظر الصهيونية التى تروج للطعن على العرب ـ أحد أمرين :

• أن ما يذيعه هؤلاء السبابون عن هذه الأمة ، التى هى مصدر العلم والتاريخ ، التى « دخلت فى دين الله أفواجا » على عهد نبى منها ، واستجابت لدعوة قرآن بلسانها ، وصدقت ايمانها وجهادها بتحرير الأجزاء العربية المجاورة لها ، الأمة التى أمن الله جوارها فوضع بيته على أرضها ، ودعا لها ابراهيم واسماعيل قبل أن تكون ، واجتباها ربها للذى دعاها اليه ، وجاهدهم أخوهم محمد على الايمان حبا وايثارا لا ازدراء ولا استخفافا ، انما هو ترويج ساذج ، وقبيح فى نفس الوقت ، وخارج عن نطاق الاحساس الأمين بواقع الكفاح المعاصر للشعب ، على أرض الشعب القائد لنضال العرب عن الحرية والتقدم والوحدة ... وان هذا الترويج لسوء الحظ يتفق مع لغة وأمانى وأكاذيب الأعداء خطوة بخطوة ، وأكذوبة بأكذوبة ..!!

• أو أن هذا الذى يقوله العدو الصهيونى ، ويقوله بعض هؤلاء « الباحثين » و « المحققين » صحيح وحق ... فيكون السؤال الضخم المحير الذى يجب أن نطرحه على أنفسنا فورا : من نحن اذن اذا كان هذا هو تاريخنا ؟.. ولماذا نتكلم عن وحدة الأمة العربية ، ذات

---

* فى لقاء مع الدكتور محمد الفحام شيخ الازهر حول هذا الاتجاه المعادى للعرب فى النشرات التثقيفية التى يصدرها بعض العلماء استنكر هذا الاسلوب ، وأقر بانحرافه ، وبعده عن الخط السليم للتثقيف باسم الاسلام ، ووعد باصلاح الامر ، كذلك استنكره الدكتور بدوى خليفة مدير جامعة الازهر .

العقيدة واللغة والجذور الحضارية ، التى اعتزت بالاسلام ، كما قام بها الاسلام اذا كان هذا هو كل ما تملكه أمتنا ... اذا كانت هذه الأمة ـ بشهادة هؤلاء الباحثين الاجلاء ـ فى الدرك الأسفل من الانحطاط !! بينما ولا شك عندهم أن أكاسرة الفرس الذين كانوا يتزوجون بناتهم ، وقياصرة الروم الذين أذلوا سوريا ومصر والمغرب مئات السنين كانوا فى « الدرك الأعلى » من القوة ، فكيف قام العرب بتحريرهم ، ومن أى موبقات ومظالم كان هذا التحرير !! ولماذا كان تقبل هذه الطليعة العربية الأولى المؤمنة للاسلام هو المثال الأعلى الباقى لنا عن صورة الاسلام الصحيحة عقيدة وتطبيقا ! ؟

ولكن هذه البقع المظلمة فى بعض فكرنا المتفتح للحياة ظواهر على خطايا الماضى المتراكمة ... ظواهر شارك فيها ماض طويل مظلم ، وعدو راصد متمكن .. ثم يشرق النهار الذى نمسك بخيوطه وأضوائه .. فيذهب الظلام ،ويبزغ النور ، ويفىء الناس ، جميع الناس ، الى الله.. والحق .. ان شاء الله !

٤ — كيف يرانا الاصدقاء

ان أمثال هذه المداخل المشبوهة الى فكرنا ، والواجهات الزائفة للتعـريف بشعبنا ، مما يكتبه العدو ، ويثرثر به الجهال ـ تعترض طرق أصدقائنا فى الشرق والغرب ، الذين قدروا تقديرا عمليا وبالرأى شرف كفاحنا عن الوجود والأرض والحـق ، فتضعهم فى الوهم ، وتزيدهم تحيرا . انهم يمتصون ـ ربما حتى نخاعهم ـ الكثير من هذه القصص والتدليسات الشاذة عن العرب والاسلام ، فيتعجلون وضع التصورات والانفتاحات عن امكان الوفاق بين فكرياتنا وفكرياتهم ، ولو عرفـونا بحقيقتنا ـ شعبا ودينا ـ لاحترمونا أكثر ، ولفهمونا أعمق ، ولبدا لهم من ذلك أمر على الوفاق أفضل ...

وأبدأ وأشير الى الرأى العجيب الذى طرحه المفـكر الماركسى الفرنسى روجيه جارودى فى محاضرته التى ألقاها بالقـاهرة برمضان

الماضى ١٣٨٩ ، وهو يمد بفكر جـديد على الماركسية يدا وفاقية مع الفكر الاسلامى . والحقيقة أن عددا من المفكرين الاسلاميين المعايشين للعصر قـد بادروا بالاجابة عليه ، وبعضهم أجابه مشافهة ، مما أثلج الصدر ، وضاعف الأمل ، ولكنى أحب هنا أن أضع فى الضوء أكثر هذهالدوافع الخاطئة التىجعلت منيمداليينا بالفكريد الصداقة يعادى فكرنا بالخطأ ... هذه هى النقطة المركزية فى محاضرة جارودى بالنسبة الينا ... لقد قدم من وجهة نظره ثلاث نقاط تمثل « تجارب ناجحة » لما يسميه « التقاليد السامية التى تملكها الثقـافة الاسلامية والتى تستطيع أن تلعب دورا فى نمـو الاشتراكية العلمية بها » ... هذه التجارب هى :

- حركة القرامطة كمثال على الاشتراكية الطوبائية .
- ابن رشد كمثال على الفلسفة العقلانية .
- ابن خلدون كمثال على نمو الفكر الاجتماعى .

فيما يتعلق بحركة «القرامطة» يتأكد لنا أن رؤية جارودى لها فى اطار « العمل الاشتراكى » انما تعنى فداحة الأخطار التى تواجه كفاح العـرب والمسلمين من بقـاء الفكر البـاطنى « المجوسى والمزدكى والمانوى » واجهة للاسـلام ، فى كتبنا أحيانا ... وفى كتب الغـرب دائما .

ان حركة القرامطة ، التى هى فـرع على الاسماعيلية الباطنيـة ، خرجت من بلدة سلمية ، البلدة المهجنة الثقافات منذ نشأت فى موقعها بين حماه وحمص فى سورية على عهد السومريين « ٣٠٠٠ ق . م » والتى كانت تسمى على عهـد الصراع الفارسى واليونانى ثم العهـد الرومانى سلاميس ... فى هذه البلدة نشأت صورة زائغة عن الاسلام « فى المعارضة أو الظل » خطط لها الشعوبيون والانفصاليون كأساس لثورة مضادة تنتزع السلطة من العرب . لقد تجمع فى سلمية داخل الصحراء عدد من مغامرى الفرس واليهود ، ومن نفايات القصـور البغدادية حيث يكون الخلفاء عادة عربا بالاسم بينما الزوجات والحظايا فارسيات وروميـات فى الغالب ... فى هذه البلدة عاش الأئمـة

المستورون — كما يقال — أى الصورة المقابلة بمفهوم التمرد والتزييف للخلفاء ! ! وفى هذه البلدة نشأ أيضا حمدان بن الأشعث القرمطى رأس الحركة الشعوبية التخريبية التى سميت بحركة القرامطة !!

ان الرد الايضاحى على جارودى ، وعلى الفريق الذى ينخدع حتى فى هذا العصر بما يقال عن حركة القرامطة ، قد لخصته جماهير الشعب العربى حين أطلقت على هذه الحركة اسم « المدلسين » فالقرامطة — كما يقول الأب انستاس الكرملى من كلمة « قرمطونا » * الآرامية بمعنى « المدلس » و « الخبيث » ... فالقرامطة اذن هم « المدلسون » ، وما كان من الممكن أن يكون التدليس الذى يجعل من التخريب وذبح الأبرياء دينا ، ويضع بعض مغامرى اليهود وأفاقى الشعوبيين مثل ابن الأشعث وميمون القداح فى هيئة « الأئمة المعصومين » و « الدعاة المصلحين » — لا يمكن أن يكون هذا التدليس عملا ثوريا ينتمى الى الاشتراكية الطوبائية أو العلمية من قريب أو بعيد .. !

• ان القرامطة مدلسون لأنهم وهم ينتقضون على السلطة العربية بدعوى تحول الخلافة على يد الأمويين الى ملك يعملون على أن يضعوا السلطة ذاتها مع التقديس والتأليه والعصمة فى « الأبناء » من الاسماعيلية الشعوبية ..!

• والقرامطة مدلسون لأنهم زعموا أنهم يحررون الموالى من سلطة العرب بينما هم جاؤوا فذبحوا العبيد ، واستعبدوا الأحرار ، ونهبوا الأموال ، وأشاعوا الفاحشة ، وهدموا الكعبة ، وذبحوا الحجاج * الأبرياء ، وصنعوا فى أنفسهم ما تصنعه الردة العاتية الى تعاليم مانى ومزدك من « المخالطة فى الأموال والنساء وهتك الحرمات » !

---

* حتى اليوم يطلق العامة كلمة « القرموط » ، وهو نوع من السمك الاملس الذى يصعب الامساك به على الرجل المتلاعب الخبيث .

* ترسب الاحساس بوحشية وغدر القرامطة فى وعى جماهير المسلمين حتى انعكس على شعر الغزل والترفيه مثل قول الشاعر :

فعلت مقلتاك بالقلب منى　　فعلة القرمطى بالحجاج !

• والقرامطة المحدثون مدلسون أيضا لأنهم فى جيوبهم السرية المعاصرة ، وفى تسترهم تحت العديد من الحركات العربية والاشتراكية لا يملكون الاحتفاظ بأقنعتهم طويلا وهم يمالئون الاستعمار والصهيونية — كعهدهم — ويصنعون بنشاطهم وبقوة تمويل المنظمات الامبريالية لهم واجهة تتكلم وتضلل باسم العرب ، وباسم الاسلام ، فى نفاقهم وتخريبهم باسم الثورة والاشتراكية والتقدم ، والتصدى لاسرائيل ...

• ان القرامطة من جذورهم مدلسون لأنهم يعلنون أن جذور فكرهم « يونانية أفلاطوبية » فهم بهذا ليسوا تعبيرا عن « الاشتراكية » التى ترفض أن يكون أساس « المدينة الفاضلة » طبقة العبيد ... وهم بالبداهة ليسوا تعبيرا عن الاسلام بل تعبيرا ضده ، وليسوا ثورة الاسلام وانما هم ثورة عليه .

ثم أقول لو أننا نقينا تراثنا ، وحللناه ، ثم عرضناه فى تيار العصر لاختار جارودى بدلا من حركة التدليس القرمطية مثالا على الفكر الاسلامى واشتراكيته ذلك المثال الاصدق ، الذى لازلنا نغمره بالظلام ونجهله ، وهو « مجتمع المؤمنين » بالمدينة الذى قام بالارادة التى تحميها القوة على العلم والعدل ، وعلى السواسية فى الحقوق ، والمحاسبة على العمل . المجتمع الذى ذابت فيه قيود العبيد ، وصحت فيه قلوب الاحرار ، فكانت من بينهم نواة تحرير العالم صدقا لا خيالا ، وتجربة انسانية على واقعية الايمان قابلة للتجديد . ثم لكان اختار بدلا من ابن رشد فى عقلانيته اليونانية المقلدة مفكرا أندلسيا مثله هو ابن حزم فى علميته الاسلامية الاصيلة ، ثم لكان اختار بدلا من ابن خلدون فى شعوبيته وانتهازيته وارتعاشات فكره المدخول ذلك الرجل الصحيح الذى يغنى عن دراسة عصور بأكملها وهو « الشافعى * » امام الأمة العربية الذى وضع منطق الأصول الاسلامى فى مواجهة المنطق الارسطى

---

* اقرا تفصيل ذلك فى احد امهات كتبنا العلمية « مناهج البحث عند مفكرى الاسلام » للاخ الدكتور على سامى النشار ، وفى كتاب « الامام الشافعى ناصر السنة وواضع الاصول » للصديق المستشار عبد الحليم الجندى .

اليونانى ، مثالا على أصالة فكر المسلمين المستمد من القرآن ولغة العرب ، وأساسا للمنهج العلمى التجريبى الذى تحررت به أوروبا بعد قرون ، وظهرت فى ضوئه الاشتراكية العلمية .

لو ان جارودى اتيح له حقا مثل ذلك فى معرض فكرنا الصحيح لأنفسنا وللعالم ... الصحيح عن العرب والاسلام ، ما تملكه التمنى أن تقودنا التجارب التخريبية من أمثال فكر حمدان القرمطى الى مرحلة استيعاب للماركسية العلمية ... فالحقيقة اننا بعروبتنا القائمة على لسان وعرف ، واسلامنا المؤصل على علم وعدل ، وتقدمية وسلم ، نستطيع أن نفهم وتتوقع ان يسير الاسلام بتطبيقاته العربية مع الاشتراكية الماركسية العلمية متوازيين الى أهدافهما المشتركة ضد الاستغلال والاستعمار والصهيونية ، وغير متداويين — فى الحقيقة التجريبية — نحو هذه الأهداف ..

ومن فرنسا أيضا خلال سنة ١٩٧٠ يصل أحدث مؤلفات الفيلسوف المسيحى الفرنسى « لويس جارديه » الذى زار الكثير من البلاد العربية والاسلامية وهو « الاسلام عقيدة ومجتمع » .. وجارديه أيضا هو احد الاصدقاء الذين يرون العرب والمسلمين من خلال نوافذ زجاجية ملونة لاتفصح عن حقيقة ماوراءها . ان كتابه الجديد زاخر بالموضوعات الهامة التى تمس قضايا العرب والمسلمين المعاصرة ، والتى لم يتطرق الى مثلها بعد مشايخنا الفضلاء — ولكن مع الجهد وكثرة ما يملك من الملاحظات الشخصية فان جارديه يقع فى كثير من الاخطاء التقليدية ، وما يشبه أحيانا هذا التناقض المتعمد ، الذى يسببه هذا « التراث المختصم مع نفسه » وهذه « الواجهة الملونة والمزيفة » التى يرفعها الفكر الشعوبى الصهيونى فى بلادنا وفى الغرب عن العرب والاسلام !!

يتحدث جارديه عن حركة التفتح والتقدم فى الدول الإسلامية غير « العربية » فيتساءل « هل يكون هذا التفتح فى اتجاه عودة المجتمع الاسلامى ، أم فى اتجاه تفككه ، وعودة الحضارات الايرانية والتركية القديمة من جديد ؟ » .

ويتحدث جارديه عن الدول العربية « التقدمية » فيؤكد أن تطور

العالم الاسلامى « رهن بتطور هذه الدول » .
ويحمل جارديه بعض الأخطاء التقليدية التى يروجها المستشرقون وهو يتحدث عن تأصل العروبة فى نفس الشعوب العربية منذ القدم ، ويضرب المثل بتعمق العروبة فى « الشعب المصرى (١) القبطى الأصل ، وفى شعوب المغرب (٢) والبربر » ... ان هذه المفتريات التى زرعها الاستعمار الانجليزى والفرنسى فى أذهان بعض المثقفين العرب الذين « باشر تعليمهم » مثل الأصل القبطى للمصريين يجب أن تجد من علمائنا فى حركة علمية واسعة للتعريب ومعرفة الذات أبحاثا مبسطة ودقيقة للرد عليها ، والاستشهاد بأقوال علماء التاريخ الغربيين أنفسهم ... !

ثم يجتاز فكر جارديه تجربة شاقة وهو يحاول أن يحدد الصلة بين المفهوم العربى والمفهوم الاسلامى فى اطار التفتح الحديث للامة العربية فيقول « ان العروبة ليست مجرد صنع عقلية عربية صافية فى دنيا الثورة التكنيكية ، بحيث يكون ما مضى من التاريخ الاسلامى فى حياة العرب فترة يطويها النسيان . ان وحدة الأمة العربية مطلب لا يكف العرب عن التمسك به ، ولكن حلم التجديد الاسلامى للامة العربية باق تحركه قيم الاسلام الموجودة ، والتى لا تزال توجه وتلون الحلول المختارة ، وان عجز المراقب من الخارج عن التحقق منها » .

ومن الترددات والذبذبات الفكرية المتضاربة التى يظهر بها فكر نويس جارديه وهو يسير فى محاولة « فهمنا » على طرق غير معبدة بالنسبة لطبيعة فكره اليونانى العصرى قوله فى فصل عن «العروبة» «ان طه حسين قال وكرر كثيرا ان مصر بلد ذو ثقافة يونانية لاتينية ودينها الاسلام ، كما أن فرنسا بلد ذو ثقافة يونانية لاتينية دينها المسيحية ، وان رأيه هذا هو ميل للعودة ببلاد الشرق الأدنى الى قومية ذات طراز

---

(١) كل المراجع التاريخية فى أوروبا تؤكد ان أصول المصريين القدماء عرب ، والفرعونية ليست جنسا وانما هى طبقة ونظام حكم ، واللغة المصرية القديمة تؤكد ذلك بخصائصها التى تتميز بها اللغات السامية العربية . اقرأ « عروبة مصر » للمؤرخ عزة دروزه

(٢) يصدر اللواء العالم محمود شيت خطاب قريبا كتابا يثبت فيه الاصول العربيـة لقبائل البربر بالمغرب .

أوروبى حديث » ثم يقول لويس جارديه ان التطـور فى السنوات الأخيرة يؤكد هذا الرأى الذى رآه طه حسين !!

ثم يعود جارديه فى محاولة فهمنا الى مثل هذه الذبذبة السريعـة التى تعكس انطباعاتها المقصودة ولاشك على قرائه فيقول فى فصـل « الاصلاح الدينى » ان كثيرين من الشباب ، وبقدر انتشار التعليم ، تتملكهم رغبات عنيفة للتخلص مما يسميه «أرصدة العصور الوسطى» فى الحياة الاجتاعية الاسلامية ، التى يعتبرون أخطاءها ـ بدون حق ـ مرتبطة بالاسلام نفسه ـ فى رفض كل القيم الدينية افتتانا بالعلمانية الغربية أو المادية الماركسية !! »

انهذا القول الدعائى والمتعلق بآمال عودة السيادة الرومانيـة القديمة على أرض العرب فى شكل أوروبى صهيونى وأمريكى ، والذى يدعى به جارديه أن الأيام تؤكد به رأى المستشرقين والاستعمـاريين الغربيين ـ الذى أخذ به طه حسين ـ يناقض أولا واقع الثورة العربية المعاصرة بارادة ووعى وتعبير جماهيرها ، ثم حركة اتساعها وتكاملها .

وثانيا يناقض قول جارديه نفسه فى كتابه هذا فى فصل العروبة :

« ان العروبة ترسخ وتتركز اليوم فى الشعوب العربية والمستعربة التى كانت فى الماضى تمثل « أمة النبى » ... » ثم يتناقض مع قوله فى نفس الفصل :

« وثبة العروبة الحالية فرع جديد ـ أكثر منها صورة جديدة ـ انها فرع غير متوقع ، ومتحرك فى الواقع ـ دون توهم ـ للمجتمع الاسلامى » .

وثالثا فاننا دون اطالة ، وبغير ضيق ، نحاول أن نوضح انحراف وتضارب ذبذبات جارديه الفكرية على طريقه المخلص ، والمتعثر فى نفس الوقت لمحاولة فهمنا فيما يأتى :

* هناك دلالات مادية على تناقض الفكر العربى والفكر اليونانى فى جوهر كل منهما ، وقد برز ذلك فى القضايا المتماثلة التى شغلت بها العقلية الفلسفية اليونانية نفسها وهى ترفض وتحرف الفكر العربى الدينى ، سواء فى موقفها من المسيحية ، أو موقفها من الاسلام ، وذلك

فى تلك المدن القديمة فى نهاية الهلال العربى الخصيب ، التى تمثل الجبهة أو خط النار بين الفكر العربى والفكر اليونانى وهى مدن جنديسابور ونصيبين والرها وانطاكية والحيرة وسلمية حيث نشأ النساطرة والقرامطة ، ونبت الفكر الهدام الذى خلق فتنة خلق القرآن على عهد المأمون !

* ان تاريخ مصر الطويل يشهد بأن أحداثه وآثاره هى نتاج فكر دينى يحمل جوهر وسمات « الدين الواحد » الذى خرج من الوطن العربى ، الذى مصر جزء منه ولغتها لغته — مهما وقع التحريف فيه بالاستقرار أو الحكم الملكى وحكم الاقطاع ، ومثل هذا التاريخ الطويل من قدماء المصريين وعصر المسيحية ثم عصر الاسلام يكذب الدعاية الاوربية لغزو المصريين فكريا ، وانتزاع عروبتهم بما سموه نفاقا ونضليلا ثقافة البحر الأبيض . وقد ظهر مثال من مرامى هذا التمويه فى ذلك الشعار الاستعمارى الوقح الذى أريد به ابتلاع الجزائر ومحو ذاتها العربية وهو « الجازئر فرنسية » أى ليست عربية !

* ان البحث فى تاريخ اليونان « الاغريق » عندما تحركوا على شكل قبيلة صغيرة من الرعاة من موطنهم الأصلى على ضفاف الدانوب فى اتجاه موطن اليونانيين الحالى يؤكد أنهم ظهروا كجماعة بعد بناء الأهرام بألف سنة ، وبدأوا كمحاولة للتفكير فى اتجاه متميز قبل الميلاد بخمسة قرون ، وانهم عندما بدأوا أخذوا يتعلمون قواعد الحياة الأولى ، واستعمال الأدوات من الايجيين سكان جزر بحر ايجه الذين كانوا قد تقلوا ذلك من قبل من العرب فى بابل وصيدا وصور ومصر !

ثم انه كقاعدة فى حقائق التاريخ يجب أن يكون واضحا وملموسا — مع اختلاف منهج الفكر العربى وخصائصه عن منهج وخصائص فكر اليونان — انبداية الوجود اليونانى دائما كانت «صور» و«صيدا» المدينتين العربيتين الكنعانيتين من مدن الساحل الشرقى للبحر الأبيض — ٢٥٠٠ ق.م — البحر الذى كان أكثر عصوره الزاهرة بحرا عربيا . ان الأساطير والميثولوجيا والتاريخ عند اليونان تؤكد هذه الحقيقة العربية لبدايتهم . فمثلا تقول أساطيرهم ان الالاهة « أوروبا » هى

ابنة ملك صور التى اختطفها زيوس الاه اليونان عندما ظهر لها على شكل ثور فلما أنست له وركبته هرب بها وتزوجها . ومن ذلك أن المدن الزاهرة الأولى فى حضارة اليونان ومن بينها طيبة هى مدن عربية بالتسمية فقد اختاروا أسماءها على أسماء أبناء ملك صور الذين أرسلهم وراء « أوروبا » ابنته للبحث عنها ، هذا فى الأسطورة ، وهى مدن منقولة عن أسماء مدن عربية فى حقائق التاريخ . ومن ذلك أيضا ما يستنتجه بعض المفكرين العرب — وان كنا لا نتمسك بهذا الاستنتاج كدليل على بديهيته — ان كلمة « أوروبا » هى التحريف لكلمة «عروبة» بلسان اليونان . وهكذا دخلت العروبة — فى الأساطير — اسما لأوروبا أو روحا مجددا لفكر اليونان ، وليس العكس !

وأخيرا ، وبالنسبة للغارقين فى بئر الثقافة الاستعمارية الجانحة ، أنه لا يمارى أحد فى أن اليونانيين لا يزالون يشهدون بطريقة نطقهم للحروف الابجدية انهم تعلموا الكتابة من مخترعيها الأولين وهم العرب. ان «الالفا بيتا» اليونانية هى الألف باء العربية ، حتى الحروف فى الرسم نقلها اليونان قريبة من الحروف العربية مثل الألف على شكل رجل ، والباء على شكل بيت الخ ... والكتابة كانت — وهى أعظم اختراع للانسان حتى اليوم — لا تزال هى الدلالة على طابع الفكر العربى الذى ارتبط به المعنى الانسانى فى دعوة الدين ، والمنهج العلمى التجريبى فى حركة العقل وبناء الحياة ، بينما كان « العدوان » هو طابع الفكر الاوربى اليونانى فى الجانب الاجتماعى ، كما أن الفلسفة التجريدية السفسطائية كانت ولا تزال هى طبيعته فى الجانب العقلى والنظرى ، كأداة تتسق تماما مع وظيفة العدوان فى تاريخ اليونان ، وتاريخ الحضارة الملكية والاقطاعية والاستعمارية فى أوروبا ..

وأما الرومان ... فهم تلامذة اليونان !!

أنتقل من ذلك كله — فى نفس الاتجاه — الى رؤية أخرى من قلب وفكر عالمة فرنسية أحبت مصر ، فحضرت اليها وأعلنت إسلامها بها سنة ١٩٦٩ ، تكريسا لهذا الحب العقلى ، وهى السيدة حواء « ايف » فيتراى ، التى تجيد مع فرنسيتها اللغتين الانجليزية والفارسية . لذلك

فانها لم تتصل بالاسلام الا من خلال تلك الواجهــة المهزوزة ذاتها ، ففهمت الاسلام بالمنطق الصوفى ، وقــد حدثتنى ــ فى مقــابلة معها بالاتحاد الاشتراكى العربى ــ عن بعض الرؤى التى سبقت اسلامها ، والتى صدقت فى حياتها بالحرف الواحد كما تقول . ولكن أعظم ما كشف عنه عقل هذه السيدة قولها لى من خلال جولة استطلاع الرأى معها « ان أهم ما ينبغى أن يستهدفه العرب بأقصى اخلاصهم فى هذا العصر هو أن يعيــدوا بالقرآن بناء عقليتهم العلمية كما بناها القرآن لأسلافهم العظام من قبل » !!

لله ما أصدقها ... ليتها كانت أحد علمائنا !!

٦ - الشروق الناصرى

« قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من الاه غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون » ..

هكذا آخر الأمر بعد ليل كاد أن يكون سرمدا على هذه الأرض المنهوبة والمجزأة جاء ضياء شروق ، وصوت حركة ، وحياة ... لقد رأى العربى نفسه فى الشروق ، وعرف أخوته وأرضه ... هكذا ظهر بين العرب فى مصر ، ظهر كما ظهر موسى بين بنى اسرائيل ... ظهر فى أشد الحاجة اليه .. أما جميع الطرق التى ملأها أعداؤه له بالفخاخ والصخور فانه لم يمر منها .. لقد جاء من حيث لم يحتسبوا .. حملت به أمه مصر ، ثم ألقته فى اليم ، فالتقطه عدو لهــا وله ليكون له عدوا وحزنا ... وليكون للشعب عيدا ووجودا ، وحرية وأملا ..

هذا هو « عبد الناصر » بازغا على الأفق فى عصرنا نحن ، منذ سنة ١٩٥٢ ، ليجدد تراث الأمة التائهة ، ليجمع خراف بيت الله الضالة ... ليبنى ويضيف ، لا ليبتدع ويقلد .. !

بدأت ثورة عبد الناصر بالاستجابة الفورية للجماهير عند أقصى قدراتها على فك الأغلال ، وتصحيح الاتجاه ، وتعبيد الطرق ، وتضميد الجراح ، وحصر الموارد ، وتقنين الجهد ، وتمييز العدو من الصديق ...

فهى بالحروف الأولى التى نطقت بها من أبجدية الثورة الواقعية وهى تسقط آخر شكل من أشكال الحكم الجائر فى مصر بعد العثمانيين والمماليك لم تكن تجسد تطفلا على المسيرة التاريخية الصحيحة لثورة الشعب العربى ــ فى كل مكان ــ بل كانت هى جوهر المسيرة وشكلها ، وروحها ، وطلائعها ، وكلمتها ، وانتصاراتها ، كما أحس بها الأعداء فتوجسوا منها ، وعرفتها الجماهير فانخرطت فيها وأيدتها ...

ان جوهر الناصرية الذى يمكن جمع جزيئاته وذراته الفكرية الثمينة من الميثاق ، ومن بيان مارس ، ومن خطب عبد الناصر تؤكد أن الناصرية فكر متكامل فى جملة مواقف الثورة العملية حتى اليوم . وهى تزداد تكاملا من خلال الوضوح المستمر بالتطبيق ، كأساس نظرى للثورة العربية الشاملة فى هذا العصر .

الناصرية بهذا الأساس النظرى ، الكامن التكامل ، والظاهر الحيوية وقابلية الامتداد تكشف عن ملامح هذا « الاجتهاد المنتظر » الذى حاولته فى العصور الماضية من خلال « النظر المجرد » وليس بمباشرة فكرية من خلال واقع « تغيير ثورى » ــ طلائع عربية متعاقبة من المفكرين أرادت ــ مرارا ــ أن تضع على طريق نضال الأمة العربية عن وجودها جوهر فكرها الدينى والقومى فى مواجهة العصر ...

لقد كان شروق عبد الناصر هو الاجابة المجسدة للأسئلة المتكررة ، عبر أزمان طويلة ، من الذين شحذوا قلوبهم وأفكارهم ولم يفقدوا الأمل ، وانتظروا ... لهذا كان عبد الناصر فى أصالة جوهره الثورى ، وهو يقود الثورة على الطريق الطويل يعلم صعوبة المهمة ، يعلم أن البداية من « الشتات » ... لقد كانت هذه الرؤية الصافية للشتات جزءا من الجوهر الثورى ... جزءا من الأصالة ! ... أليس هو القائل فى كتابه « فلسفة الثورة » :

« ما أشبه شعبنا بقافلة كان يجب أن تلزم طريقا معينا ، وطال عليها الطريق . وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة ، كل جماعة منها شردت فى ناحية ،

وكل فرد مضى فى اتجاه ... ما أشبه أمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتـائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير ... هذا هو دورنا ، ولا دور لنا سواه » .

هـذا التشخيص لآلامنـا بالرؤية الثـورية الكاشـفة يعنى أن « الشتات » هو أعظم أهداف أعدائنا ، وبالمقابل فان الوحدة هى أعظم أهدافنا » .

يقول عبد الناصر أيضا فى شروق الناصرية محددا عدو الوحدة ، وأسلوب هـذا العدو ، وأسلوبنا فى ضرب هـذا الأسلوب : « ان الاستعمار هو القوة الكبرى التى تفرض على المنطقة كلها حصـارا قاتلا غير مرئى ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذى كان يحيط بخنادقنا فى الفالوجا ، وبجيوشنا جميعا ، وبحكوماتنا فى العواصم التى كنا تتلقى منها الأوامر . لقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسى ما دامت المنطقـة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحـدة ، ومستقبلها واحدا ، وعدوها واحدا مهما يحاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة فلماذا نشتت جهودنا ! ؟ »

وفى شروق الناصرية يكشف عبد الناصر عن وجه العدو ، عن سر ارتباط الصهيونية بفلسطين ، فالصهيونية كما تخلقت كانت واضحة له تماما أنها « الحركة اليهودية السياسية باتجاه فلسطين » وهو فى كتابه فلسفة الثورة يكشف القناع عن وجهها العنصرى باسم الدين ، والدينى باسم العنصر ، فيروى ما استوقفه من قول حاييم وايزمان فى مذكراته:

« لقد حدث فى المؤتمر الصـهيونى السادس الذى عقـدناه فى سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى وحدها دون دول الأرض قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها . واننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن يكون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لانرسون نائبـا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى ، وكان هذا الخطاب يقدم لنا أوغنـدا لتكون وطنا قوميا . وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض ، ولكننـا

بعد ذلك « كتمنا أنفاسه فى المهد ودفناه دون ضجة ! .. وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا » !!

ويستأنف عبد الناصر فى فلسفة الثورة هـذا الايضاح لجذور وتعقيدات مغامرة العدوان الصهيونى فى كلام وايزمان :

« ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور : لماذا لم تقبلوا اقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟ ... وقلت لبلفور « ان الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى لا يمكن اغفاله . وأنا واثق تمام الوثوق اننا اذا أغفلنا الجانب الروحى فاننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى » !!

لهذا كان الشروق الناصرى حتميا ، وكان قيام الثورة الناصرية ضرورة تؤرخ لعودة الانسان العربى الى أرضه فى مجال واسع للرؤية ، والتقييم ، وتقدير المواقف ، وحشد الامكانيات . لقد كان ذلك ضرورة ينتقل بها الكائن الهائم ــ بلا دور ــ فى شبه عاطفة وطنية مشتتة ــ الى بطل ثورة أمينة فى مجال عملها العلمى والعقلى لتحقيق الأهداف والآمال المشروعة للعرب .

ان أهم ما يميز أصالة الناصرية فى جوهرها ، وعلى طريقها ، وهى ترسل اشعاعها الواسع الانتشار على أرضنا هـذا الاحساس بالدور الانسانى فى ثنايا فكرها المتجدد ، الدور الذى عرفته بلادنا فى تعاقب أضواء الدعوات والنبوات التى غيرت مسار البشر ، والقوى ، والمعارف الانسانية ، انه دائما دور انسانى غير عدوانى ، دور للجميع وليس ضد أحد بين الجميع ، الا المعتدين والمستغلين والمتعالين . يقول عبد الناصر فى فلسفة الثورة أيضا :

« لست أدرى لماذا يخيل الى دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به » ثم يقول : « أبادر فأقول ان الدور ليس دور زعامة ، انما هو دور تفاعل وتجاوب بين كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بنا ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة

فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور ايجابى فى بناء مستقبل البشر » .

ولكن الأمة العربية لا يمكن أن تقدم هذا العطاء الانسانى للعالم وهى منه محرومة . انها لا تقدمه وهى تحت التجزئة والقهر ، وقصور المعرفة والتطاحن . انها لا تقدمه فضولا بل نضالا . انها لا تقدمه ادعاء وزهوا بما مضى ، بل حياة حقيقية تقطر عرقا ، وتسيل فداء وتضحية من خلال جهادها المتواصل بهذه الحركة الثورية المؤمنة الواثقة الموحدة على الطريق ..

وان كل مواطن عربى ولاشك ، مسلما أو مسيحيا ، له بالحق شرف هذا الدور ، وعليه بالواجب مسئولية نجاحه ... كل مواطن مطلوب بالواقع والضرورة ، وباستمرار الخطى الواضحة التى سلفت أن يكون « بطلا » وأن يكون جوهر بطولته هو أن يشارك فى صنع هذا البطل الكبير الذى هو الشعب العربى الواحد ، موحدا ، ومنظما ، ومتقدما ، ومنتصرا ، على الطريق الذى أضاءه للتحرر شروق عبد الناصر ...

ان هذا الدور البطولى لكل مواطن يفرض علينا أن نعجل بتحقيق وصيتين لعبد الناصر فى الميثاق :

• اعادة كتابة التاريخ لأن « أجيالا متعاقبة من شباب مصر قرأت تاريخها الوطنى على غير حقيقته » .

• العودة الى فهم الدين الصحيح وذلك بكل جهد المفكرين الدينيين حتى يمكن « الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته » .

ان هذه العودة من شتات الفرق المتضاربة والتفسيرات الاسطورية ممكنة ، وحتمية أيضا ، ويقتضى ذلك أن ننزه معتقداتنا عن الشرك الحديث الذى نقع فيه بين مفهوم القرآن المحكم المبين وبين ما يتسلل اليه ويناقضه كل يوم من معانى الأحاديث الموضوعة والمسموح ببقائها بين الأحاديث * الصحيحة الى اليوم !

---

* فى مرحلة مواجهة العدو وبناء التقدم يقوم مجمع البحوث الاسلامية بطبع كتاب الجامع الكبير للسيوطى وهو أكبر حشد للاحاديث يختلط فيه الصحيح والموضوع والمدسوس والغريب والمستنكر ، وقد خجل منه مؤلفه فكتب بدلا منه واختصره وهذبه فى « الجامع الصغير » ولكن مجمع البحوث اصر على نشره بما فيه من الصحيح والضعيف .

ان تحكيم القرآن الكريم ـ بما يمثله من وحدانية الحق فى كلام الله ، وفى تأصيل دعوته على أساس العقل العلمى ـ هذا التحكيم فى كل ما ينسب من الاجتهادات الى الاسلام أو أحاديث الرسول سينقى الاسلام ، وينفى عنه كل ما ليس منه من معوقات تصحيح الاتجاه الفكرى ، وتسيير التقدم الاجتماعى ، ودعم الوجود الانسانى . انه تحكيم المفهوم القرآنى الواضح فى كل هذه الأخلاط الفكرية التى نعيش فى حصارها فى حالة « الأزمة » والحيرة بين الصحيح والزائف ، بين الأصيل والمنحول . انه سيفتح للعقول والقلوب طريق الاسلام الصحيح ، مطهرا من العوائق الآتية التى ملأت هذا الطريق :

• دعوة الى الايمان بغير عمل ، أو بغير مشاركة فى تنمية المجتمع، أو حمل هموم تحريره وتنميته . اذ أن حكم الدين انه لا قيمة للانسان الا بالعمل ، العمل لتنمية الفرد ، والعمل لتنمية المجتمع على خط واحد من المسئولية .

• اعتقاد العصمة فى البشر ، اذ أنه لا عصمة لأحد أن يخطىء ، أو أن يحاسبه الله ـ حتى الأنبياء ـ فى غير ما يوحى اليهم .

• تصور الفصل بين ما يسمى بالمادى والروحى فى الانسان والحياة ، اذ أن الروحى ـ فى المفهوم الدينى ـ هو حركة الحياة فى المادى ، والمادى هو مجال الامتحان ووسيلته فى حياة الانسان القائم على جسد « مادة » وعلى نفس « صورة الذات بقوانين المادة » وعلى روح « مشيئة الله بحياة المادة » ، لذلك فان هذا الفصل هو اعتراض على الحياة ، كما أن ما يسمى بتدعيم الروح يخرج بمفهوم الدين عن أى معنى موضوعى اذ كيف ندعم مشيئة الله التى هى الروح فى حياتنا ، سواء كانت حياة للجسد بالحركة ، أو حياة للقلب بالايمان ؟

• الخلط فى العلاقة بين الرزق والعمل ، فانه اذا كان الرزق قسمة فان العمل فريضة ، والرضى بالمقسوم من الرزق بمفهوم الدين لا يمنع العمل على بناء وتنمية المجتمع بالعلم والتشييد المادى والكفاح السياسى والدفاع العسكرى ...

• الوقوع فى الخطط الشعوبية لتكريس الانفصال الاقليمى ،

والمعاداة للعرب باسم الدين . ان الصهيونية جعلت من العداء لليهود جزئية تحت عنوان اللاسامية ، ونحن فى الحقيقة قاعدة السامية فى التاريخ ، وطليعتها الانسانية ، فضلا عما يجب أن نعلمه من أن العرب مادة الدين ، والتعرب لغة وسلوكا وتعاطفا هو طريق كل مسلم الى الاسلام ، والى الله .

ان الخروج من غيابة الشرك بمعانى القرآن الواضحة ، والاقتراب من محكماته فى رؤية الأشياء على أفقه المنير يقتضى أن نكثف الجهد لعمليات « التعريب » ابتداء من الاهتمام الجدى بنشر ودعم وتنشيط اللغة العربية الصحيحة حتى تملأ مكانتها كأداة تعبير نامية ومتطورة على طريق نضال ومطالب العصر . ومثل هذه الخطوة البسيطة والحاسمة لتنشيط الجوهر العلمى للقرآن فى حركة عودتنا من « الشتات » وقدرتنا على « الوحدة » تقتضى فيما أعتقد متابعتنا بالصدق والتنظيم والتخطيط للواجبات الآتية :

• تصحيح مسار المفاهيم المتضاربة للدين (*) على الطريق الواحد لجوهره الصحيح فى ضوء التطبيقات العربية للاسلام .

• تنظير الناصرية وتأصيلها بحيث يتضح ويتكامل ماهو فى طبيعتها من تقدمية واجتماعية الاسلام ، ومن جوهر الدين بصفة عامة ، وبحيث يستقر وضوحها وتكاملها وأصول تطورها على أنها الاجتهاد بالتطبيقات العربية للاشتراكية التى تستند وتتلاحم وتتواصل وتمتد من قاعدة التطبيقات العربية الصحيحة للاسلام .

• تحديد الأواصر والفواصل العقائدية بين الاسلام والاشتراكية العلمية ، بحيث يكون واضحا أن أخذنا بما نسميه « الاشتراكية

---

* هناك تيار قديم وحديث يتجمع حوله ملأ من سدنة الطقوس الذين يحاصرون الدين فى اشكال العبادات ، ويعزلونه عن حركة بناء المجتمع ، والذين يتهمون الإشتراكية بمفهوم « عدالة الله » بانها غزو أجنبى ، والذين يبتدعون التفسير القائل « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » معناها الصالحون لعمارتها سواء كانوا مؤمنين او غير مؤمنين . وبذلك يفتحون الطريق الى قبول سيادة من أورثهم الله الارض فى نظرهم من علماء التكنولوجيا ! ومثل هؤلاء الذين يلبسون الجبب الاسلامية على علمانية الغرب والتبعية لسياسته يجب بمفهوم الثورة العربية الشاملة ، وحركة الشباب الواعية مواجهتهم علميا وتصحيح مفاهيمهم .

العلمية » فى الميثاق هو مستقر وواضح ولا يعنى الأخذ بمفهوم « المادية الجدلية » فى قضايا الخلق والبعث والحساب . انه يمكن أن يعنى انه اذا كانت الاشتراكية العلميـة فى التطبيقات الماركسية ذات مفهوم ايديولوجى مادى ، فان الاشتراكية العلمية فى التطبيقاتالعربية هى — بتعمق أكثر — ذات مفهوم ايديولوجى اسلامى ، ذلك لأن العلم فى أحد مفاهيمه الأساسية بلغة القرآن هو « الدين » كما أنه كذلك فى لغة القرآن يعنى علم الأشياء وقوانين المادة (٢) .

فى لغة القرآن يكون مفهوم العلم أحيانا هو الدين فى مثل قول الله :

« وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم » ... أى الدين .

وفى لغة القرآن يكون مفهوم العلم أحيانا هو قوانين المادة فى مثل قول الله :

« ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم » .

• توسيع وتعميم حركة « التعريب » لمنهج التفكير ، ونمط الحياة من خلال كل المؤسسات والمنظمات القائمة بمهام التثقيف للجماهير .

• ابراز دور الجماهير الشعبية من العمال والفلاحين فى التوجيه والتقبل والحماية للثقافة القومية ، وتنميـة الطليعة الواعيـة والمثقفة منها ، وتزايد قدرة التنظيم الشعبى على أن يمتلك ويدير ويطور أجهزة الاعلام ، ويوحد الاشراف وينسق العمل بين كل أجهزة الدعوة — مع تنوع أنشطتها — على الخط الصحيح الذى قاعدته الشعب ، وأهدافه

---

(١) فى مجال الخلاف على مفهوم العلم بين المادية الجدلية والاسلام ، نجد أن هذا المفهوم يضيق فى الماركسية حتى لايتسع لغير قوانين المادة ، بينما هو فى الاسلام يتسع للدين وقوانين المادة ، لذلك نستطيع ان نقول ان الماركسى بهذا المفهوم ألضيق للعلم يقف بفكره طبيعيا معنفسه ولكن متناقضا مع الكون المحيط به ، لان العلم الذى يفسر حركة المادة لا يفسر وجود المادة ، أو اتساق العلم ، ولا وحدة الكون . وكذلك حتى نكون منصفين نقول ان المسلم يقف بمفهومه الواسع عن العلم طبيعيا مع الكون ، يقف الآن متناقضا مع نفسه اذا لم يبلغ يقينه بالاه الكون مستوى يقينه بالقوانين العلمية فى مادة الكون ، كما كان ذلك فى حياة المؤمنين الاولين وبهذا يمكن ان يكون مفهوم « الاشتراكية العلمية » فى تطبيقاتنا العربية ذا دلالة عقائدية تعنى علم الايمان كما تعنى علم التقدم . وهى فى ذلك تتساوى فى دلالتها العقائدية مع مفهومها فى الماركسية ولكن فى اتجاه مغاير هو دلالتها على الايمان .

الدولة العربية الحديثة ، الواحدة ، المؤمنة ..

ان الاتجاه الى فهم القرآن ، وسيرة الرسول ، فى ضـوء كل من التطبيقات العربية للاسلام والتطبيقات العربية للاشتراكية بعد الثورة النـاصرية سيخرج بشـعبنا الأصـيل — على التحقيق — من دوامة « الأخلاط الفكرية » التى يتجرع مرارتها وانهزاماتها النفسية منـذ وعيته الأولى على صدمة الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ . ان هذا الاتجاه الصحيح ، المنطقى مع العصر ، والضرورى كمطلب للجماهير ، والحاسم فى مواجهة المخاطر سيخرج بشعبنا الأصيل من المحنة التى عاناها طويلا فى غمرات هذا « التثليث » فى الفكر الدينى الواحد ، الذى لا تزال تمثله أوهام الفيلسوف المبتدع ، وشطحات الصوفى المستغرق ، ومحاذير السلفى المتشكك ، وبذلك تتحرر حقيقة الدين الحبيسة ، وتدب اليها حياة متجـددة فى صورة الرجل الموحد الصحيح من هؤلاء الرجال الثلاثة ، فى صورة الانسان العالم المؤمن الحى بعلمه وايمانه ، الواضح بسلوكه ولسانه ، القائل الفـاعل ، المفكر المجاهد ، على طريق بنـاء ووحدة هذه الأمة العربية التى آن لها أن تحيا بكلمة الله ، هذه الحياة التى لا تعنى فى هذا العصر شيئا أفضل بعد رضوان الله من حريتها ، وتقدمها ، ووحدتها .

ان مثل هذه الانجازات هى بطبيعتها واجب هذه الطليعة الواعية من المثقفين الثوريين المؤمنين لأجيـال مستمرة ، كما ان مثل هـذه الانجازات لا يمكن أن تتم الا على انقـاض عمل المثقفين الجانحين ، المترددين أو المرتدين ، الذين عجزوا فى المـاضى عن مقـاومة اغراء المستعمرين وأعداء الشعب ، وأعداء العرب ، وأعداء الاسلام ، وأعداء الدين . ويقينا فان قيام هذه الانجازات العقائدية الأساسية فى مرحلة ما بعد عبد الناصر ، ومع مسيرة الشعوب العربية التقدمية على مبادىء عبد الناصر سيكون هو التلخيص الحقيقى لوضـوح الرؤية بالشروق الناصرى على طريق حياتنا الجديدة .. والمنتصرة .. بمشيئة الله .

* * *

وحدة أجزاء العلم فى الإسلام

« ان هناك فارقا كبيرا بين ان نؤكد بالبراهين الكثيرة ان الاسلام دين يحض على العلم ، وبين ان نكتشف ان البناء الفكرى للاسلام هو ذو اساس علمى »

١ — الدولة العصرية

فى هـذا الوطن العربى ، الصغير بالنسبة لحجم العـالم ، والكبير بالنسبة لتاريخ الانسان ، عاش الانسان العربى على كل أرضه من الخليج الى المحيط — يقول بالدين ، ويحيا بالدين ، ويبنى بالدين . عاش الى اليوم احقابا مديدة بغير حد ، وترك خلال هذه الاحقاب المديدة تراثا ضخما بغير حصر ، حتى ليمكن ان يقال انه ما من حق فى مجموع حقوق الانسان ، وما من لبنة فى بناء فكر الانسان ، وتقدم الانسان ، وسلام الانسان الا ولها جذور راسخة تعود بها الى هذا الدين الذى ازدهر كفاحه على أرض هذا الوطن ، وتعاقبت ثوراته وانتصاراته فوق أرض هذا الوطن .

والدين — الذى هو التزام — كان فى لغة الانسان العربى هو العلم. لأن العلم كان هو طريقه الى الله ، والله كان مصدره الصحيح الى الدين. لا نستطيع ان نقول — ولا الله يقول — ان الايمان هبة بغير جهد ، ونعمة بغير معاناة ، ورؤية بغير بصيرة . فالايمان تصديق بالارادة العليا على حركة المادة ، وقوانين الأشياء ... تصديق بمشيئة الله ، المدبر للمادة وقوانينها ، وللانسان ومصيره ، وللكون ونهايته . وما كان من الممكن أن يشرئب قلب الانسان المؤمن الى هذه الارادة العليا — ارادة الله — قبل أن يجتاز الى علمه بها درجات هذه القوانين ، وأن يتبصر اتساقها وهو ينفذ فى حركتها ، فلا يجد فطـورا ، ولا فتورا ، ولا وهنـا ، ولا تصادما . فكل الأشياء تمضى ، وكل الأشياء تحكى ، وكل الأشياء تتغير ، لتؤكد له أنها لا تتغير ، فى طبيعة وطننا المفتوح على السماوات السابح فى النور ، الرحيب الآفاق ، الذى يعيش أكثر أهله فى حركة ، يزاملون الكون ومفرداته .. يساكنون الشمس والقمر والنجوم والرياح تحت سقف سماوى واحد .. أعظم أعمالهم الكشف ، وأعظم ثرواتهم

الطرق ، وأبقى ما فى ثرواتهم الهداية على هذه الطرق .. الطرق التى فوق الأرض ، والطرق التى بين الأرض والسماء ، والطرق التى بين الأرض وما بعد السماء .. وما كان يمكن أن تكون الهداية على كل هذه الطرق بغير دين ، وبغير علم .

وعندما بلغ الدين من بلاد العرب الى أوروبا ... الى الغرب الذى دأب على العدوان علينا ، لأنه فى الشمال القارس يعيش فى الظلمة والجدب تحت الجليد ، ونحن فى جنوبنا الدافىء نعيش فى الضوء والخصب تحت الشمس ... أمسك الغرب هذا الدين بمخالبه حين لم يستطع أن ينفتح عليه بقلبه ... لقد حفظ الغرب من الدين الشعارات ، ولم يفقه من الدين الواجبات ... لقد نظر فى كلمات الدين وهو يعجب كيف يسود بها شعب الصحراء ويقوى ، كيف يبنى بها على أنهاره علوما وحضارات وثقافات ... ويعلم العالم ؟

وكان لابد فى منطقه العدوانى ، ودينه الفلسفى ، أن يستغل «الدين» الالاهى كما اعتاد أن يستغل مناجم الفحم والحديد وأشجار الغابات ... لذلك استحال علم السلام فى المسيحية ــ فى التطبيق الأوروبى ــ الى تكريس لمظالم الملوك ، وعصمة الكهان ، وقهر الفلاحين ، حتى تبدد نور المسيحية فى أوروبا قرونا طويلة فى ظلام محاكم التفتيش ، وأوهام صكوك الغفران ، ومآسى قتل العلماء ، واحراق الكتب ، ومصادرة العلم ، وامتهان لكل من حياة المرأة ، وعلاقات الأسرة ، وحقوق الشعب . ثم انتهى ذلك كله آخر الأمر الى هذه الموجة من الحقد والجشع التى ساقها الغرب تحت راية المسيحية ــ كذبا وتضليلا ــ ليزيل خلال مائتى سنة من تلك الحروب الصليبية العدوانية وجود الشعب العربى القديم ، الشعب المسلم والمسيحى فى وحدتهما التى لا تنفصم ...

وكذلك استحال المنهج العلمى التجريبى الذى حمله الاسلام الى أوروبا ــ استحال آخر الأمر الى علم مجرد من الايمان ، علم محكوم بهوس العدوان ... استحال الى ثورة صناعية ، والى ثورة

« تكنولوجية » قام على دعائمهما النظام الرأسمالى الغربى ، بكل طغيانه على الشعوب ، وحقده على الطبقة العاملة ، وعلى كل البشر ... قام النظام الرأسمالى ليصبح قاعدة ارتكاز الصهيونية والاستعمار ، ومنطلق خططهما لاعادة تشكيل العالم على أساس سـادة وعبيد ... وأبيض وملون !

ولكن الناس فى أوروبا لم يسكتوا ، لأن العلم الذى دخـل الى أوروبا من بلاد العرب كان يشير — رغم حياده — الى شىء أفضل من الاستغلال للعمال ، ومن الاستعمار للملونين . كان يشير الى علم أعلى من علم المادة .. كان يشير الى علم العـلاقات بين البشر على أساس « العدل » ... على أساس مساواة البشر امام واجبات الحياة ، وحقوق الحياة ، كمساواة وحدات المادة أمام القوانين التى تحكمها ... لقد كان هذا العلم — فى أرقى درجاته — يشير الى « دين دنيوى جديد » تنفجر ثورته كاللغم الموقوت تحت دعائم النظام الرأسمالى الاسـتعمارى ، فيهتز ويصيبه الدوار ، ويتعرض فى أماكن كثيرة الى مقتل ... لقـد ظهرت الاشتراكية العلمية أثرا غير مباشر من آثار الاسلام، ظهرتـعلى قدر رؤيتها — فى جانب العلم ، ووقفت بذلك ضـد الاستعمار الذى يستخدم العلم ضد طبيعة العلم ...

ولقد كانت هذه فى سنن الله العليم هى فرجتنا للصحوة ، وفرصتنا لاستعادة الحياة ، فالبذور التى غرسها العرب المسلمون فى أوروبا للعلم فاثمرت الرأسمالية الاستعمارية التى صنعت اسرائيل ، قد أثمرت كذلك هذه الاشتراكية الصديقة التى تقف الى جانبنا اليوم ضد اسرائيل ، والذين وراء اسرائيل ...

وبعد ٥ يونيو بدأ شعبنا المصرى ، الذى يقود المواجهة العربية ضد الاستعمار والصهيونية يتفهم حاجته الى هذا العلم الذى بنى به كل حضارته من قبل ، والذى بنى به اعداؤه آلة حربهم ، وقوة صناعتهم بعد أن نقلوه عنه ، ودفعوه اشواطا وراء أشواط .

أوصى الشعب المصرى وطالب فى بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ بتدعيم عملية بناء الدولة الحديثة التى تقوم بعد الديمقراطية على العلم والتكنولوجيا لأنه وعى تماما درس الهزيمة ، وصحا وهو يرى لهب النكسة امام عينيه، ويسمع دويها فى قلبه — صحا على حقيقة تخلفه الطويل فى مجال العلم ... ولا يمكن فى مقياسه الدقيق ان يكون متخلفا فى العلم دون أن يكون متخلفا أيضا فى الدين ... فى العقيدة التى تبنى العلم وتوجهه !

فى هذه الصحوة الجديدة على ثورة مستمرة بدأنا نراجع أنفسنا ، والمراجعة سؤال وجواب ...

ما هى استخدامات العلم امامنا فى الرأسمالية ، وفى الاشتراكية العلمية ؟

هل يكفى ان نطلب العلم حتى يتحقق لنا الحصول على العلم ... وثمرات العلم ؟

ان الاشتراكية العلمية — التى تقترن أيديولوجيتها بالعلم — تبنى أجيالها وتنظيماتها العقائدية قبل سياستها الداخلية والدولية ، وتقدمها الصناعى والعسكرى على أساس « أيديولوجى علمى » بدرجة واحدة..

كذلك فان الرأسمالية تبنى أجيالها قبل تقدمها العسكرى والصناعى والرفاهى والاعلامى ، وسياستها مع شعبها وعمالها ، وتمويهاتها على العالم الخارجى ، وعلى الشعوب التى تعتزم افتراسها — على أساس « أيديولوجى علمى » بدرجة واحدة ...

لذلك فان « رؤيتنا العقائدية » الواضحة هى أساس قدرتنا على طلب العلم ، وعلى استيعابه فى كل مجالات الحياة ، وعلى تمكننا من تحقيق اتحاده العضوى كعقلية جديدة وصحيحة للحياة فى كل نشاطاتنا الخاصة والعامة .

وهكذا نعود الى محور هذا الموضوع وهو موقف الاسلام من العلم ...

ومن البداية ننبه الى أن هناك فارقا كبيرا بين أن تؤكد بالبراهين الكثيرة ان الاسلام دين يحض على طلب العلم ، وبين ان نكتشف ان البناء الفكرى للاسلام ذو أساس علمى ...

ان طلب العلم من طريق عقيدة غير علمية لا يجعل العلم مؤثرا فى حياة المؤمنين أو الملتزمين بهذه العقيدة . ان بعض الشعوب أو الجماعات مثل اسرائيل قد تستطيع شراء المصانع والأدوات والأسلحة والعلماء ولكنها لا تستطيع ــ ما دامت تؤمن بعقيدة عدوانية غير علمية مثل الصهيونية ــ ان تحقق ذاتيا بناء دولة حديثة يكتب لها البقاء .

ان هذا ينقلنا مباشرة الى قضية القضايا فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، ونحن نحاول أن نكتشف أول مواقع أقدامنا على الطريق لاستئناف طلبنا للعلم ... لنعمل على استيعابه انسانيا فى بناء الحياة ، وللدفاع بقوته عن هذه الحياة .

* * *

٢ — قضية القضايا

من بؤرة التقدم العلمى الحديث فى هذا العصر ، ومن مركز عملياته العقلانية المعقدة ، يسطع ضوء خاطف تعشى فيه العيون ، فى جو تزأر فيه أدوات القوة ، وتمزقه ضوضاء الدعاية ، وتسيطر عليه أدوات الدقة ، فيضع أكثر الناس أيديهم على أعينهم يمسحونها ، ثم يعاودون النظر ، يلتمسون فى ظلمات هذه الأضواء المعتدية طريقا مأمونا الى سلام العالم، والى حياة جديدة تعيش فيها الأجيال البشرية وتنمو ، فى رعاية علـم بغير عدوان ...

فى عالمنا المعاصر ، حيث يقف المتقدمون والمتخلفون معا على حافة هاوية ، نجد الظواهر الآتية فى قضية الدين واستخدامات العلم :

١ — نجد انكماش جماعات المؤمنين بالدين الالاهى الحق على سطح الأرض ... دين الوحى الذى يجمع بين الايمان والعمل لبناءسلام الانسان وتقدمه .

٢ — نجد انتشار معتقدات « العزاء الروحى » من أول اليوجا الهندية الى الغنوصية اليهودية . وهى معتقدات سرية باطنية ، تؤمن بالروح التى لا يمكن أن يقال : ما هى ؟ ... وتنكر وتقهر الجسد الذى يمكن أن يقال : ما هو ... بينما تطلب بالرياضة أو السحر أو الشعوذة مالا يمكن أن يدركه الانسان الا بالايمان والعمل!

٣ — نجد انتشار القلق فى المجتمعات الصناعية العلمانية والاشتراكية من فراغ تحس به تجاه « قوة ما » وراء الطبيعة ، قوة غـير مادية ، وان كانت حركة المادة هى الدليل الأول عليها . هـذا وان كانت « المادية العلمية » تبنى بالعلم السلام ، وتقدم فى

مجتمعها شكلا من أشكال العدل الاجتماعى ، وتعلى من قيمة العمل ، وتكرس حقوق الجماعة دون استغلال ، الا أن ذلك يقع مشروطا بانكار الدين ، مما يترتب عليه ترك هذا الفراغ المحس فى أعماق النفس الانسانية الكادحة ، فتتململ وتضطرب، وتنظر الى بعيد ...

٤ — الى جانب هذا يوجد المجتمع الذى تتمثل فيه قضية القضايا ، ومشكلة المشاكل فى هذا العصر .

يوجد المجتمع الرأسمالى الذى يرفع امام ضحاياه راية الايمان ، بينما يدفع بالعلم وتطبيقاته الى خدمة السياسات والخطط العدوانية للصهيونية والاستعمارية .

هذا المجتمع العجيب المتظالم المتضارب يدفع العلم الى الخروج عن أهدافه ... الى التمرد على عقيدته ... يدفع بهذا المارد المختال « التكنولوجيا » لينفلت من سلطان الارادة الخيرة فى المجتمع الانسانى وليستعصى على أى اتجاه للاخاء البشرى ، والسلام العالمى ، والرخاء المتبادل بين الشعوب .

ان أمريكا تنفق مليارات الدولارات وهى ترسل ارسالياتها الاستعمارية تحت أثواب المسيح ، ورايات المسيحية ، لتقدم لبسطاء الشعوب المتخلفة خدمة العلم المتقدم ، وترسم لهم الصليب على بعض السلع والتكنولوجيا الاستهلاكية ، وترى ان ذلك يبرر سرقتها لموارد ومستقبل شعوب حية فى آسية وأفريقية ... وعندما لم تنجح هذه الخديعة البلهاء عادت أمريكا ترسل قاذفات قنابلها الضخمة وعليها الشعار المسيحى أيضا لتدمر وتحرق وتبيد شعوب فيتنام وكمبوديا ولاوس والشعب العربى باسم الحضارة الأمريكية المسيحية ! ..

والدكتور القس فلويد شاكلوك الأمريكى يبدى دهشته العظيمة من هذا الأمر فى كتابه « الايمان الثورى » ويقول ان البعثات الأمريكية الدينية المسيحية قضت مائة وخمسين عاما « تجاهد » فى بلاد الصين ،

ولكن فى ثلاثين عاما فقط دخلت الشيوعية بلاد الصين .. انه يتساءل كيف لعب دعاة الشيوعية على عقول الناس بالأقوال الجوفاء والوعود المعسولة ؟ ... ثم يجيب اجابته الغبية الضخمة فيقول « ان الشيوعية كسبت الصين بالقوة بينما رسل المسيحية — يعنى رسل الاستعمار الأمريكى — لا يقبلون اللجوء الى الوسائل العنيفة ! ! »

ان أمريكا أيضا تنفق مليارات الدولارات لكى يمد العلم المتمرد على السلام قدمه فى الفضاء ، ويطأ من أجل أغراض الدعاية ، أو للأغراض العسكرية وجه القمر ! ... بينما الأرض ملأى امام أعين « القديس سام » بملايين المرضى والجياع ..

والعلم المتمرد ينفذ ببصره ويعبث بأصابعه فى معامله السرية يخطط لجريمة تصنيع الآدميين فى أنابيب الاختبار فيحكم على انسانية الانسان بالموت من حيث يفصله فى المعمل عن كل ما هو طبيعى فى الحياة ، بينما هو يحشد فى نفس الوقت أسلحته الكيمائية والبيولوجية وخططه للتعقيم الجماعى من أجل ابادة الانسان الطبيعى عندما يكون ملونا !!!

وهكذا .... العلم الذى هو الأمل أصبح مع تحديات الصهيونية والاستعمار هو المشكلة .... هذه هى قضية القضايا .... وعلينا نحن — بين العالم النامى — علينا نحن العرب ، آباء البشر فى التاريخ ، وأولياء أنفسنا فى الواقع ، أن نبحث هذه القضية من جذورها ، أن نبحثها من البداية ونحن نتخذ الطريق الصحيح الى فهم واجبنا القومى وتصور دورنا الانسانى فى احياء الحياة لو استطعنا أن نشارك من خلال تجربتنا الاجتماعية فى تقويم العلم بالعلم .... من خلال رؤية صحيحة للدين والاسلام .

* * *

٣ — العلم فى الاسلام

منذ فجر التاريخ حتى العصور الوسطى كان العلم محصورا فى ثلاثة مصادر تتحدد بها فى المجتمع الانسانى ثلاثة اتجاهات فى تشكيل هذا المجتمع وتفسير الحياة لأفراده :

المصدر الأول :

علم الدين الالهى الذى يفسر كل ما فى السماوات والأرض ، وما فى عمل الانسان واتجاهاته .. بمشيئة الله . وقد توالت موجات الدين ورسالاته واشعاعاته على أرض العرب ، متسقة على التباعد ، مشرقة بجوهر الوحدة فى كل شىء ، ايجابية مع الحيـــاة ، غير متصادمة مع حقائقها ، وان لم تحقق تأثيرا عالميا قبل التبشير المسيحى ، وقبل العمل الثورى تحت رايات الاسلام ...

المصدر الثانى :

علم الدين الوضعى « الصوفى » فى الهند وما حولها ، وهو ثمرة تأمل الانسان الذى أرهقه هذا التناقض فى بيئته بين وفرة عطاء الطبيعة للانسان وقسوة الانسان على أخيه الانسان ، فرفض الواقع الأرضى من أجل مملكة أخرى فى السماء ، وافترض الفصل بين البدن والروح ، وقضى بأن يتطهر الجسم وأن يضعف الى الحد الذى تقوى به الروح عليه ، وتسود فوق نزواته ، وأصبح هذا الدين الوضعى بكل علومه وطقوسه وظروفه صيغة تعكس شقاء الانسان ، كما تعكس شكلا من أشكال الاحتجاج السلبى الباطنى على هذا الشقاء .

المصدر الثالث :

علم الفلسفة الذى بزغ على قواعده فى أرض اليونان ، حيث أخذ

الفلاسفة أو « طلاب الحكمة » يحاولون اكتشاف الحقيقة وتفسير الحياة من نقطة فى عقولهم خارج الحياة .. كان أقطاب الفلاسفة يتكلمون عن الديمقراطية والمطلق والمثال ، وهم يقدمون بأدوات المنطق وبالفلسفة حافزا وزادا للمظالم الطبقيـــة والاستبدادية التى عاش عليها اليونان والرومان ، وتعيش عليها أوروبا حتى اليوم . لقد كانت جمهورية أفلاطون الفاضلة تعج بالسادة والعبيد . أما أعظم تلميذ لارسطو وهو الاسكندر فقد كتب اليه يعاتبه لأنه أباح بعض « أجزاء المعرفة العليا » كما سماها ــ للجماهير والبسطاء . اذن فكيف يبقى التميز بين الحكماء والعامة ، وبين الحكام والمحكومين .. ؟

وكانت هذه الشطحات الفلسفية التجريدية التى قامت على أساسها الديمقراطية المزيفة هى أحد مصادر العلم القديم !

* * *

٤ — ظهور الاسلام

ولكن فى العصور الوسطى بعد مرور تلك الحقب والأزمان على سلطان الديانات الوضعية ، والعلوم الفلسفية ، وضآلة حجم العلوم الطبيعية ، حدث بظهور الاسلام دينا الاهيا يعيش فى واقع مجتمع حى، وبقيام الحضارة العربية على أساس من هذا الدين مؤثرة به فى كل اتجاه ــ حدث أن اقتحم على ا لدين الوضعى المنفصم ؛ وعلى الفكر الفلسفى المجرد جوهر فعال فى مجال المعرفة وقواعد اكتشافها . اقتحم منهج التجربة الذى بنى به الفكر العربى الاســلامى وجوده المنتصر بالبرهان الحسى على كل الخرافات ومظالم العالم القديم .. انه وراء هذا المنهج الجديد القائم على « اليقينية العلمية » فى حركة الواقع ، وعلى وحدة الانسان مع محيطه وفى واقعه ، وعلى تساوى الوحدات النوعية للأشياء فى الأهمية والقيمة العلمية أخذ تيار الفلسفة النظرية التجريدية ينحسر ويفقــد أهميته وهو يتحلل ويتساقط من داخله . وبدأت فى الحقل الخصيب للفكر العلمى تنبت بذور الكشوف العلمية على أرض أوربا المعتمة التى كانت الفلسفة اليونانية قد جردتها طويلا من أمضى أسلحتها وهو تصنيع العلم . وهكذا تتابعت هذه الكشوف لقوانين علم الطبيعة والكيمياء والحياة والفلك وغيرها وهى تتشابك وتتكاتف وتتدافع نحو ما ترتب عليها من ثورة العلم ، فثورة الصناعة ، فثورة التكنولوجيا التى سارت بدورها فى جملة مراحل .. وما تزال تمضى ..

وأمام هذه الثورة التكنولوجية التى نرقب اليوم أخطر آثارها يجد المجتمع المعاصر نفسه وهو يزداد التصاقا بعضه الى بعض ، ويزداد فى نفس الوقت ابتعادا بعضه عن بعض .. يجد نفسه على نهاية طريق ، وفوق حافة هاوية يواجه حتمية الاجابة الحاسمة على أحد سؤالين من أجل تحديد مصيره .

السؤال الأول :

هل يحتاج العلم وتطبيقاته المتطورة الى عقيدة تحكمه ، وتنظم استعمالاته ، فى مجرى قانون أخلاقى يرفع صالح المجتمع الانسانى أفرادا وجماعات فوق كل الاعتبارات ؟

السؤال الثانى :

أم أن العلم وتطبيقاته « التكنولوجيا » هو فى حد ذاته ، ومستقلا عن غيره « عقيدة كاملة » .. هو « عقيدة نفسه » التى تفرض بالثورة التكنيكية شكل العالم المتطور .. ومستقبل الانسان الجديد ؟ .. أى أن الأدوات الانتاجية والاستهلاكية وهياكل الانتاج هى نفسها « الأفكار » و « الشرائع » فى دين العلم .. وان تأثير هذه الأدوات على الانسان هو المرشد الايديولوجى له .. هو الموجه له لفهم أسلوب العبادة ، وحدود الثواب والعقاب فى « دين العلم » الذى يفرض شريعته من طليعة له فى الدول المتقدمة وهو يرسم « عشوائيا » مستقبل الجنس البشرى .. على هذه الأرض وحدها ؟

* * *

٥ — جدل حول المستقبل

حول هذه القضية الشديدة التعقيد ، والكثيفة الشبهات ، نشط فكر علماء أوروبا وفلاسفتها الى الاجابة عن مجمل تحدياتها ومفرداتها.. وانقسمت الاجابة من بادىء الأمر الى قسمين .. انقسمت الى شرق وغرب .. الى ماركسية مادية والى رأسمالية مادية أيضا ، وان كانت تتمسح بالدين وتستغله ..

أما الشرق فقد قدم اجابته العملية على هذه التساؤلات وذلك حين عزلت روسيا جزء العلم والتكنيك عن جزء الديانة المسيحية فى نمط الحياة الغربية ، ووضعت بديلا للمسيحية التى مسخ الغرب جوهرها وأخضعها لأهدافه العدوانية ــ وضعت معتقدا جديدا هو « الاشتراكية العلمية » أو « المادية العلمية » وجعلت من هذا المعتقد موجها للعلم والتكنيك فى اتجاه مصالح الطبقة العاملة فى العالم ، وخدمة السياسة التى تضعها لها الاشتراكية العلمية .

وأما الغرب فقد قدم اجابته نظريا ودعائيا فقط .. انه لم يستطع حتى اليوم أن يقدم حلا أو اجابة عملية . لم يستطع أن يعيد «المسيحية» الى طبيعتها الانسانية فيحقق بها قيادة انسانية للعالم . بل هو لا يزال يشجع الالحاد ، والتحلل الخلقى ، ويرفع شعار العلمانية على كل أشكال الشذوذ والهوس والانحراف . ومن خلال هذه الفوضى العقائدية التى يشجع عليها الغرب الاستعمارى نراه يعمل على ابتزاز الشعوب بعد اضعافها ، وعلى اخضاع هذه الشعوب بقوة الرعب من انطلاق العلم وأدواته بغير دين .. بغير عقيدة أخلاقية انسانية مهيمنة !

أما الاجابات النظرية فمثل أقوال ومقترحات المؤرخ الانجليزى أرنولد توينبى الذى خصص أبحاثه فى استكشاف سبل الابقاء على

الحضارة الأوربية بنمطها المسيحى ، فهى حضارة الرجل الأبيض التى امتدت من أوروبا الى أمريكا ، والتى تعانى الصراع فى ذاتها بين عوامل الانهيار وأسباب الازدهار . وكاهن التاريخ « توينبى » يقرر أن روح البقاء للحضارة الأوروبية هو «الدين» الذى اذا اتحد بالعلم والتكنيك ضمن النصر لها فى مواجهتها للشيوعية ، وفى تسربها داخل معارضات العالم المتخلف الذى رفض الحضارة الغربية من قبل عندما تقدمت اليه تحمل العلم والتكنيك فى يد والتبشير بالمسيحية فى اليد الأخرى !

ان توينبى يسمى الطريق الذى سار فيه الاستعمار من عزل المسيحية عن التكنيك وهو يقدم نمط حياته وحضارته لشعوب آسيا وأفريقية ، مستدرجا اياها لتبعيته ، وهو يتفادى التصادم الدينى بها ، ويشغلها عن مقاومته بدعوتها الى العلمانية والتحررية المصطنعة — ان توينبى العجوز يسمى ذلك — صادقا — عملا من أعمال الشعوذة ، ومثل هذا العمل — فى نظر توينبى — يهدد حضارة الغرب بالزوال . ولهذا فان الأمل الذى يعيش به توينبى فى كتاباته هو مولد « الدين » الذى يملأ الفراغ « الروحى » السحيق فى حياة الجماهير الأوربية ، البكماء روحيا ، حتى ولو قامت الشعوب المهزومة بتقديم هذا الدين لسادتها الغربيين ، كما حدث نفس الشىء حين قدم العرب « المسيحية » لليونان والرومان عندما كانوا سادة العصر القديم .. !

واجابة أخرى عن تساؤلات المستقبل يقدمها « برتراند راسل » العالم والفيلسوف الانجليزى أيضا الذى يطالب فى كتابه « هل للانسان مستقبل » ؟ باقامة حكومة عالمية تضع حدا لجرائم هذا العصر ضد البشر ، فان من شأن هذه الحكومة — كما يرى — أن تمنع الحمقى من قادة الدول الاستعمارية من اطلاق القوى العلمية بغير رادع فتقضى بالأسلحة النووية وأمثالها على أمل استمرار الجنس البشرى من خلال ما يهدده من عمليات كثيرة للانتحار الجماعى !

وأما اجابة الغرب الدعائية على أسئلة « العلم والمستقبل » فتعلنها

هذه المظاهرات الحاشدة ، والمسيرات الصاخبة التى تشق مدن أوروبا وأمريكا للاعتراض على سياسة العدوان الأمريكية بالذات ، وعلى تلك المذابح التى تقوم بها المؤسسات العسكرية والاحتكارية فى فيتنام وفلسطين مندفعة بصلف التملك لأدوات القصف والتدمير والتخريب النفسى والجماعى دون رادع أو وازع .

كذلك فان ظهور نماذج الهيبيز فتيانا وفتيات كأعراض للشلل فى حيوية الشباب ، وللذبول والعته والانحراف فى طلائع الأجيال القادمة ، يعتبر — وهو كسر واضح ومأساوى لكل مألوف ومعقول وطبيعى — عملا « لا شعوريا » من أعمال المقاومة الانسانية الصارمة للظلم والحمق والانحراف فى خطط القيادات والسلطات السرية المتحكمة فى مصير العالم !

ان ظهور الهيبيز فى المجتمع الأمريكى الغنى والمجتمعات الأوربية المتقدمة مع تزايد فئاتهم ، وتصاعد انحرافهم وجرائمهم هو اعلان صارخ عن الخلل بين القوة فى أدوات العلم والضعف فى التوجيه الأخلاقى لهذه الأدوات فى هذا العصر المعقد ، المتهيىء للانفجار أو للانهيار ، ما لم تقع آية لتقويم طريقه !



٦ — قضيتنا مع العلم

هـذه المقدمة عن مصادر العلم الأولية ، وعن موقف الغرب من هذه العشوائية التكنولوجية التى تأكدت بعد ثورة الصناعة وسطوة الاستعمار — تقودنا الى الكلام عن أنفسنا .. الى البحث فى موقفنا نحن العرب المسلمين من هذه القضية العظمى .. قضية العصر !

بالنسبة لحكمنا على العلم والتكنولوجيا بغير وازع انسانى ، وحين يخدمان بالقهر العدوان الأعمى على الشعوب فقد حكمنا مع العالم ان هـذه التطبيقات العلمية الموجهة للتدمير والتخريب لنفس الانسان ومجتمع الانسان ومستقبل الانسان ظالمة للعلم . انها علـم يستوى بالجهل ، وهو جهل خطر يصيب أولياءه قبـل أعدائه ، كما يصيب المجتمع الأمريكى — مثلا — حين يدمر النزق السياسى والعسكرى لقيادته استنادا الى التفوق التكنولوجى ودعما للتفوق العنصرى — كل مقومات هذا المجتمع وهو يصيب أفراده وفئاته وقطاعاته بالاختلال والانفصام ، نفسيا وانسانيا ، بينما يضعهم بالمقياس النفسى والمستوى الانسانى فى مرتبة أقل كثيرا من أولئك الذين يعتدون عليهم ويذبحونهم فى أحراش فيتنـام ، وصحارى فلسطين ، وجبال وغابات أمـريكا اللاتينية .

لقد حكمنا مع العالم النامى على هذا العلم الذى ينطلق بغير وازع انسانى ، وكان حكمنا حكما مسموعا ينعطف به التاريخ الى اتجاهه الصحيح . حكمنا وكان حكمنا هو رفض خطط الاستعمار والصهيونية وكان أسلوب رفضنا هو القتال وبذل الجهد والأموال من أجل الحرية والعدل والسلام .

ولكن السؤال — ونحن نعيش اليوم تحت مستوى حد الأمن فى المعارف العلمية مع اننا نبنى التقدم ونحارب أعنف معارك التحرير ..

ما هو تصورنا للعلم منذ حياتنا به ومعه ؟ ما هى ارتباطاتنا بالعلم من حيث النظرة الصحيحة اليه ... ؟ ما هى قدراتنا على تحصيله واستثماره وتنميته ؟ ..

يقول الغرب المعاصر : وهو يعمل على بث اليأس فى نفوسنا ؛ واخفاء الصفحات التقدمية فى موسوعة تاريخنا :

« ان حضارتنا العربية والاسلامية لم تكن حضارة ذاتية ، لم تكن تملك جوهرا تعطى منه الجديد ، وانما عاشت — كما يزعم — على تعديل وتشكيل واقتباس أفكار القدماء » ثم يدعى الغرب هذا الادعاء الضخم — متجاهلا آثارنا الحية فى فكره وحضارته وما ملكت يداه — يدعى أن الفكر العربى « المتدين » هو بطبيعته ليس علما ! اننا فى نظره ، كما تشقشق الصهيونية الحاقدة دائما فى دعاياتها .. « شعب كلام فقط .. وعاطفة » !

هذه المؤامرة التى تبنتها الصهيونية من قديم وروج لها الاستشراق السياسى والاستعمارى ، تظهر بالدعاية كمدينة من الورق الملون تخدم خطط الاستعمار ومراحله لاحتواء وابادة الشعب العربى فكرا ووجودا ، ولغة وتاريخا .. ولكن عندما تهب العواصف والأعاصير على هذه الأشكال والصروح الزائفة من أوراق الدعاية فانها هى التى ستسقط وتتلاشى بكل ما تمثله من مؤامرات الصمت أحيانا ، والضجيج أحيانا أخرى ، والتشويه والمسخ والتأويل والدس فى كل الأحيان ، ثم تبقى من وراء ذلك الحقيقة الناصعة راسخة فى ضوء الشمس ، نامية فى مجرى الحياة .. حقيقة البناء العلمى للفكر الحضارى العربى عبر كل التاريخ ، فكر الحضارة العربية الاسلامية بالذات عندما أقامت مجتمعها خلال عشرة قرون متصلة ..

هناك مواجهة بديهية يحفظها المستشرقون انفسهم لكل هذه الدعايات.

المضادة للعرب فى مجال الرابطة العضوية بين فكرهم وحضارتهم وبين العلم ، وهى تتضمن ملاحظتين حاسمتين :

الأولى : ان مبادىء الاسلام ودعوته تتفق تماما ــ بالتحليل النظرى والعلمى لتطبيقاته ــ مع مبادىء العلم ، وبنفس التأصيل مع أسس الحرية للانسان والمجتمع .

والأخرى : تاريخ التقدم العلمى المنظم والمطرد فى أوروبا لم يبدأ الا بعد ظهور الاسلام ، ولم يقع الا على أساس ما حمله المسلمون معهم الى العالم من « النظرية العلمية » للحياة ، ومن المنهج العلمى التجريبى فى العلم ، هذا المنهج الذى القى الضوء على عقم الفلسفة التجريدية فى مجال الكشف عن الحقائق والقوانين العلمية . وقد تم هذا التحول الحاسم فى العقل الغربى خلال تلك الحقبة الطويلة التى تتلمذ فيها الغرب بدافع العداوة والمنافسة ــ على ثمرات الحضارة العربية الاسلامية ما بين القرن العاشر والقرن الثامن عشر .

هاتان الملاحظتان ــ وهما من الحقائق الثابتة ــ كما أنهما متلازمتان بالعلاقة بينهما ، كافيتان دون انفعال لدحض الدعايات الاستعمارية والصهيونية فى الغرب ، والتى يزعم مرتكبوا حماقاتها ان الاسلام عقيدة ، والعرب شعبا قاصران فى النظر العلمى بما يحول بين العرب وبين آمالهم فى بناء أنفسهم ، وتحقيق ذاتهم ووحدتهم على أرضهم ..

ولكن يبقى السؤال الكبير من بعد ذلك ، ونحن متخلفون بالفعل فى مجال التسلح بالنظر العلمى ، وفى تطوير العقل المستكشف لقوانين العلم ، والمبتكر لتطبيقاته ... هناك سؤال أساسى ونحن نواجه ــ فى هذا المأزق الحضارى والانسانى ــ خطر التفتت والابادة أمام القوى الاستعمارية والصهيونية المسلحة بالحقد القديم ، والتكنولوجيا الحديثة ... هذا السؤال هو :

ما الذى علينا أن نعمله لاستكشاف أنفسنا بالعلم ، وتفجير قدراتنا فى مجالاته ؟

والجواب الوحيد هو ان نحاول من بداية وجودنا ، ومن جذور هذا الوجود أن نستكشف عالم «كلمة العلم» .. أن نستكشف الأسس التى قام عليها بالفعل تقدم علمى منظم ومطرد فى المرحلة الحضارية البارزة فى تاريخنا ، وتاريخ العالم ، وهى مرحلة الحضارة العربية الاسلامية .. وان نستكشف الأسس التى استطاعت أوروبا بها أن تستوعب التيار العلمى الجارف فى هذه الحضارة الاسلامية التى نزهت نفسها منذ البداية عن الفكر الخرافى فى الدين والفلسفة والأدب ـ وبذلك أتيح لأوروبا أن تنتزع من ظلمات فكرها المغلق عصرا للنهضـــة ، ثم عصر ثورة العلم ، ثم عصر ثورة التكنولوجيا .. وان ترفع أخيرا بكل الأسلحة قبضتها فوق رؤوسنا فى هذا العصر .. لكى لا يكون لنا خيار الا بين الفناء بالحرب ، أو الفناء بالاستسلام .. !

* * *

٧ — بين الدين والعلم

والبداية الناصعة التي يمكن أن تبدد الكثير من الظلمات هي ان المناخ العقلي مهيؤ لنا في الوطن العربي ، ومنذ القدم ، للتقدم العلمي المنظم والمطرد . فنحن هنا في هذه المنطقة الشعب الأول ــ بلغة التاريخ وليس بنزوة المباهاة ــ الذي عاش على الملاحظة العلمية الدقيقة لكل شيء تحت الافاق المضيئة في بيئته ، وعبر المساحات التي لا تحد ، ومن خلال الحركة الدائبة داخل هذا الوطن للافراد والجماعات ، هذه الحركة التي تتحد فيها الوسيلة بالغاية ، والواقع الجزئي للحياة بالجوهر الكلي لها.. لذلك فقد كنا منذ تلك البدايات الجليلة التي قامت عليها أولى حضارات الانسان حتى اليوم ــ ثم ونحن في هذا المأزق الحرج المظلم ــ لم نعرف ذلك الصراع الضاري بتناقضاته بين الدين والعلم ، كما عرفته وعاشته وتمزقت به أوروبا ولا تزال . لم نعرف مجامع الأرباب فوق الأولمبيب في عبثها ومآسيها . لم نعرف دولة الكهنوت ولا طبقية المعرفة . لم نعرف هذه الجذور الوثنية في أساطير اليونان والرومان القديمة التي لاتزال تنفذ بالخرافة الى سطوح المجتمعات الأوربية الحديثة ، والتي تؤدي بطبيعتها الى تشويش العقل ، والى انفصام فكر الانسان بين الواقع العلمي ، والخيال الاسطوري ، والتيه الفلسفي .. !

وعندما ظهرت المسيحية في الغرب بكفاح بطولي من العرب الذين تعذبوا طويلا وتقهقروا تحت الجبروت الروماني ، وكان ذلك على أيدي « قديسين » من العرب منهم « بولس » الذي هو « شاول » و « بطرس » الذي هو « سمعان » تلقى البطاركة والبابوات الرومان ــ فيما بعد ــ كلام بولس في بعض رسائله في غيابة من التأويل الذي يضيع به المعنى الأصلي ليحل محله المعنى المضاد .. وهكذا شاع في الجو الكنسي منذ نشأته في أوروبا مفهـوم قيصري روماني لكلام

بولس يظهر به الدين مضادا للعلم ، ويصبح فيه العلم هو كل مايخرج فقط فى هالة الربوبية من فم الكنيسة الأوربية لانارة طـريق العزاء الطويل أمام جماهير الشعب المنسحقة تحت أقدام ملوك أوروباوفرسانها وبابواتها .. ! وكانت مقدمة هذا التناقض المفتعل بين الدين والعلم كلمات أساءوا فهمها فى رسائل بولس الى بعض المدن اليونانية فى مثل قوله :

« ان كان أحد منكم يظن أنه حكيم بينكم فى هذا الدهر فليصر جاهلا حتى يصير حكيما ، لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله » .

وفى مثل قوله :

« انظروا أن لا يكون أحد بسببكم بالفلسفة ، وبغرور باطل حسب تفكير الناس حسب اركان العالم وليس حسب المسيح » !

ان بولس الذى كان مواطنا رومانيا ، ويجيد اللغة اليونانية كأهلها وملما بثقافة عصره الرومانى الوثنى الذى كان يتدفق فيه نهر الفلسفة والحكمة بين شاطئين من الاساطير الوثنية « الميثولوجية » فى تصور العالم وأصل الحياة — كان بولس يقصد بالحكيم ذلك الفيلسوف أو السفسطائى اليونانى الضرير ، أو المعصوب العينين ، الذى يدعى العلم ولا علم له ! .. الحكيم الذى يوافق على تقسيم البشر الى هيلينيين وبرابرة ، وعلى تقسيم المجتمع الى سادة وعبيد كما فعل أفلاطون .. وكما نفذ الاسكندر وقياصرة روما وبيزنطة هذا التقسيم زمنا طويلا بالقوة المسلحة فى اتجاه الشرق الهندى والجنوب العربى !

لم يكن بولس ينسى فى كل كلماته ما حدث للمسيح فوق أرض فلسطين العربية وتحت سلطة روما ، ولم يكن ينسى حاجته الى أن يلف كلماته بالرمز وهو يواجه بشجاعة عنف الرومان الوثنيين الحاكمين فى شمالى البحر الأبيض .. وما كان بولس فى كل كلماته يعنى بالعـلم والحكمة الا العدل الذى تعلنه دعوة المسيح امام المظلومين ، ولم يكن يعنى بالجهل الا حكمة حكماء أثينا وروما فى ذلك الزمان .. الحكمة

التى أهدرت بها طويلا حقوق الشعوب ودعوة المسيح .. وكان بولس يلفف كلماته أيضا لأنه كان يبشر تحت سلطة طغاة روما ..!

ولكن من جاؤا بعد بولس من البابوات والاكليروس الذين اتحدوا مع القيصرية والملوكية فى مفهوم واحد متناظر فوق طبقات الشعب حجروا فى اتجاه السلطة الدنيوية على الفكر والعقل والعلم ، متذرعين بالفهم الخاطىء لمثل الكلمات البريئة والصادقة التى وردت على لسان القديس بولس .. والحقيقة أنهم تذرعوا بكلام بولس من أجل الاحتفاظ طويلا بظلمة الجهل ، وبهذه السلطات والأموال التى حصلوا عليها بمهادنة الملوك ، وتكميم الأفواه ، وتخدير الجماهير .

وعندما تهاوت أسوار العالم الرومانى القديم ، وتزعزعت صروح «الحكمة الوثنية» أمام الفتح الاسلامى المتدفق فى حنايا عالم جديدتحت رايات العرب خرجت الجموع المستعبدة من البشر فى كل بقاع الأرض تستقبلهم وهى تحطم أغلالها ، وتجدد شبابها ، وتنظم قواها ، وتغتسل من عار العبودية الطويلة فى ضوء شمس الحرية الحقيقية . وهكذا فى ضوء هذه الشمس التى وسعت العالم عشرة قرون أخذت بذور العلم تنمو وتعطى ثمارها فى طول أوروبا وعرضها ، ومع اختلاج الأرض بالنبات الجديد ، ومع امتلاء الهواء بالعطر القوى للعلم والحرية بمفهوم واحد ، بدأ صراع الكنيسة الأوروبية ضد هذه اليقظة .. بدأ تطبيق سياسة الاضطهاد والتعذيب والقتل للفكر الجديد .. للعلم والعلماء .. بدأ اضطهاد أمثال جاليليو وكوبر نيكوس .. بدأ حتى فى الستينات من القرن التاسع عشر أى منذ نحو ١٠٠ سنة فقط توجيه كنسى على لسان البابا بيوس التاسع يعاتب فيه ويهدد وينذر فى منشوره الذى أصدره سنة ١٨٦٤ والذى سماه «كواتتاكورا» أو «جملة الأخطاء» كل أولئك الذين يريدون « تحرير » العلم من « سلطة » شخص البابا ، والذين يناهضون الحق المقدس لرجال الدين « الاكليروس » فى التدخل لايقاف حرية البحث العلمى اذا ما كانت تهدد هذه السلطة .. !

لقد جاء هذا التحذير البابوى فى أعقاب حركة علمية نظرية ، وحركة اجتماعية تحررية ، برز فيها ما أثاره دارون عن التطور فى كتابه « أصل الأنواع » الذى صدر سنة ١٨٥٩ ، كما برزت أفكار اجتماعية جريئة حول « الاشتراكية » وحقوق الطبقات العاملة فى كل من المانيا وفرنسا وانجلترا .. ولكن البابا بيوس التاسع فى غبطة عـدله وذروة كماله ـ بمفهوم ذلك المنشور ـ كان بعيدا عن أن يرى ما كان أمام عينيه وتحت قدميه فى ذلك الوقت من هجوم القوى الاستعمارية ـ الفرنسية والانجليزية ـ على شمال أفريقية ، وهى تمهد لابتلاع أفريقية كلها ، بعد أن صنعت وجودا ناميا لمظالمها فى آسية وأمريكا اللاتينية منذ تم الاستيلاء على مياه البحار من المسلمين فى القرن السادس عشر .. لقـد كانت هذه المظالم ضدنا فى آسيا وأفريقية ، ضد الانسان الذى أحبه المسيح .. وضد العرب شعب المسيح ، جديرة بأن تحرك الضـمير المسيحى فى قلب البابا بيوس التاسع أكثر من أى شىء آخر .. ولكن هذا لم يحدث !

* * *

٩ — المناخ العلمى بين المسلمين

لقد نجح الأوربيون تماما بفضل النماذج والمؤثرات العقليةوالحسية للحضارة العربية الاسلامية فى تنمية تيار العلم فوق ارادة رجال الكنيسة المتزمتين ، وهم ما كانوا ليستطيعوا ذلك ، وان يضعوا أساسا ثابتا للتقدم العلمى المطرد الا بفضل قواعد النظر العلمى التى وصلت اليهم فى مفهوم المنهج التجريبى العلمى ، الذى سار عليه العرب ، والذى أعلنوا عنه فى كل مجالات نشاطهم الحضارى السابق .

كان المسلمون فى الوطن العربى وهم يقودون نشاط الحضـــارة العربية الاسلامية طوال عشرة قرون ، يؤمنون فى المناخ الملائم جغرافيا وتاريخيا فى بيئتهم لتصور الوحدة فى الوجود ، وادراك الوحدانية لله — بهذه القواعد الأساسية لانبعاث نظرة علمية ، ونمو فكر علمى .

لقد آمنوا بأن هذا الكون الذى يديره الاه واحد ، هو كون واحد ، وليس جملة أكوان أو عوالم متعددة ، اذ لو كان أكثر من كون لكان أكثر من الاه ، أو لو كان أكثر من الاه لكان أكثر من كون . وبناء على هذه القاعدة بأحادية الكون ووحدانية الله فان الطبيعة فى واقع هــذا الكون الواحد متسقة ، والقوانين التى تظهر بها هذه الطبيعة وتتحرك وراء ظواهر متسقة متوازنة وغير مختلة ، وذلك من حيث أن الارادة التى تنبع منها هذه القوانين فى الكون الواحد هى ارادة الاه واحــد حكيم ومقتدر . ومعنى هذا فى التطبيق على حياة البشر العقلية انه لا ينبغى أن يكون هناك — فى مشيئة الله المحركة للحياة — فرق بين ما هــو عقلى وما هو تجريبى .. بين ما هو طبيعى وما هــو خارق للطبيعة .. !

كذلك من القواعد التى أرسى عليها المسلمون نظرتهم العلميةللوجود والحياة ايمانهم بالقيمة المتساوية للوحدات فى مجال العلم ، فالوحدة أو الجزء أو الجزىء أو الذرة تتساوى فى الأهمية بالنوع أو الكل أو العنصر الذى هى منه ، وبغير هذه المساواة لا يتحقق أى كشف لقوانين العلم ، من حيث أن هذه القوانين هى النتيجة الثابتة لتعميم الظواهر المتكررة فى هذه الوحدات .

استقرت وتأصلت هـذه القواعد اللازمة لتهيئة منـاخ علمى فى المجامع العلمية الصغيرة التى أخذت تتكون تحت أعاصير الاضطهاد الامبراطورى والبابوى فى أوروبا ، وفى بعض الجامعات ، ومن خلال حياة بعض العلماء المكرسة للايمان بالعلم ، والايمان بالقوة المدبرة التى هى وراء العطاء بالعلم . كذلك حدث تحت حضانة الفكر العربى فى شتى الأشكال والظروف ، وحتى من خلال العدوان الدموى على المسلمين تحت الرايات الصليبية — ان اتجه الأوروبى بحماس الى أن يطور له « عقلية علمية» يخرج بها من حصار ارسطو وتوما الأكوينى .. وقد لاح له أن هناك حافزا قويا لعقله المتشكك فى أن يبحث بدلا من ذلك عن كنه « الالاه الواحد الصمد » للمسلمين .. يبحث عن ذلك « التركيب العلمى » الذى يتلاشى عنده التناقض .. وهكذا انفسح المجال المحظور غير المحدود امام الفكر الأوروبى فى نطاق القواعد الصحيحة للنظر العلمى ، المقتبسة من الفكر العربى الاســلامى ، لكى يحاول ببحثه المتنوع — أملا فى ادراك اليقين وتحقيق القوة — أن يجد كل ما يسد الثغرات المتزايدة فى المعرفة البشرية .

وهكذا أيضا خلال تلك القرون التى أشرقت فيها أرض أوروبا الوثنية المظلمة بنور العقل العربى المؤمن حدث تحول جذرى فى أسس التفكير الأوروبى ، برغم قصوره حتى اليوم عن أن ينضج علميـا ليستشف الوحدانية ، المنزهة عن المثيل والشبيه والشك فى معتقـد المسلمين . وكان من جراء هذا التحول ان استطاع الأوروبى — المتشبث حتى اليوم ببقعة الاحلام الأسطورية فى مجاهل الأوليمب — ان ينتقل

من بدائية المعطيات المجردة فى أنماط الفكر اليونانى القديم الى مرحلة الادراك الواعى لحركة العالم المادى من داخله ، فى اطار ايمانه الجديد — المكتسب فى حضانة الحضارة العربية الاسلامية — بأن الانسان الذى يعيش فى هذا العالم الواسع هو جزء منه .. هو جزء من هذا النظام العام يخضع لسننه وحدوده ومصائره ، وليس قط وجودا يقع خارجا أو منفصلا أو مستقلا عنه ..

يجب أن تتذكر اذن — وبطريقة عملية — ان هذه القواعد الأساسية فى النظر العلمى ، والتى أصبحت من المسلمات اللازمة لبناء فكر علمى منظم ومطرد فى هذا العصر قد عرفها العرب بوضوح تام ، منذ العهد الذى اخترعوا فيه الكتابة وعلموها لليونان وغيرهم ، وعلى أقل تقدير زمنى منذ أربعة عشر قرنا . وبأن طبيعة الايمان فى دعوة الاســلام ، وحقيقة هذا النظر العلمى فى آيات القرآن قد أكدت هذه القواعد فى حياة المسلمين العامة — فى ابان ازدهارهم الحضارى — وفى نشاطهم العلمى والفكرى والانسانى بكل أنواعه ..

ويكفى هنا أن نقرر أن هذه القواعد الأساسية للنظر العلمى كانت معلنة وحاسمة فى القرآن الكريم قبل قرون طويلة من انتقالها وتأثيرها على أوروبا لخلق المناخ العلمى .

يقول الله فى أساس ان الله واحد واذن فالكون واحد ، ولا يكون شىء غير هذا والا ظهر الفساد بتعدد الأكوان والصراع بينها :

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » كما يقول « وما كان معه من الاه ، اذن لذهب كل الاه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » ..

ويقول الله فى أساس ان هذا الكون الواحد الذى يدبره الاه واحد تظهر فيه الطبيعة متسقة ، لأن القوانين التى تحكمه متسقة فلا يقع بينها التصادم أو الاختلال :

« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت »

ويقول الله فى أساس أن الوحدات لها أهمية أنواعها ضاربا المثل لذلك بالفرد الذى هو وحدة النوع البشرى :

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

هذه القواعد الأساسية لنمو العلم وتقدمه ثابتة فى القرآن فوق أساس دعوته الى تحرير النفس بالوحدانية . وقد كانت هذه القواعد هى المنطلق الى ازدهار العلم والحرية معه فى ظلال الحضارة العربية الاسلامية ، بل كانت هى القواعد التى تشكل عليها المنهج التجريبى الذى انتقل به العلم الى هذه الطفرات البعيدة الأثر فى حياة عامة البشر بعد أن كان محصورا فى تجريد الفلسفة اليونانية والهندية ومتاهاتهما ..



١٠ — العلم فى القرآن

لقد احتجنا لكل هذه المقدمة الطويلة لكى نصنع جسورا منطقية بين مشكلة العالم المعاصر ومشكلتنا ، ثم بين مشكلتنا وبين ما نملكه من أساس النظر العلمى فى تراثنا وبيئتنا ، ثم بين ما بأيدينا من هـذا الاساس العلمى وبين مصـدرنا الأعظم لتصور عالم العـلم نفسه واستكشاف أبعاده وهو « القرآن الكريم » ..

نعم فانه لما كان القرآن هو كتاب الاسلام والمسلمين فانه هو المصدر الذى يعطى وضوحا كاملا لأبعاد كلمة العلم فى مفهوم الاسلام ، وفى حركة المسلمين ومساراتهم العقلية والعلمية والعملية ..

فالقرآن لا يوضح فقط هذه الأسس والقواعد التى أشرنا الى أهميتها فى تكوين خصائص النظر العلمى ، ومناخ التقـدم العلمى ، ولكنه يوضح مفهوما كاملا متكاملا للعلم ، ويحدد له أبعادا أو أجزاء لا غنى عنها مجتمعة ومتحدة ، اذا أردنا أن نبنى للانسان عقلية علمية كاشفة ومهتدية ، وحياة صحيحة قائمة على الحرية والعدل والسلام .

والقرآن يقرر أولا أن مصدر كل أجزاء العلم الذى هو فى قدرة الانسان وطاقته هو علم الله الذى لا يحد ولا يحاط به .

يقول الله :

« ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء »

« ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما »

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » .

والقرآن فى حديثه عن العلم يأخذ بأصل معنى كلمة العلم عند العرب . فالعلم اصطلاحا هو « النبأ الصادق » أيا كان مصدره . والنبأ هو الخبر ، ومنه النبى أى المخبر عن الله ، والنبىء الطريق الواضح ، والمكان المرتفع ، والنبأ بسكون الباء هو الارتفاع .

ومع البحث القريب فى جذور اللغة العربية نجد ان كلمة النبأ تتشابه فى أصل معناها وهو الارتفاع أو الأرض المرتفعة مع أصل كلمة « المعرفة » المأخوذة من « العرف » و « الأعراف » أى قمم المرتفعات . وكذلك تتشابه مع كلمة « أعلام » أى الجبال والشواخص الظاهرة والتى منها كلمة العلم . فكأنما فى أصول اللغة العربية الراشدة تتفق كلمات « العلم والمعرفة والنبأ » فى دلالتها على كل ما يكون وضوحه فى الادراك « يقينيا » ملء الحواس والعقل والوجدان ، كرؤية الجبال الراسخة والقمم الشامخة ، دونما ريب أو ظن !

من هذه البداية يعرض القرآن الكريم للعلم فى سوره وآياته على انه النبأ الصادق ، والحقائق اليقينية فى النفس كرؤية الاعلام والاعراف بالعين والحس ، ثم يقدم هذا العلم الى المؤمنين فى ثلاثة أنواع ، أو ثلاثة أجزاء من العلم حسب مصدرها وما تنتسب بأنبائها اليه .

أولا :

علم الدين ، وهو النبأ الصادق عن الله بالوحى الى رسله ، وفى كتبه المنزلة ويتمثل فى العبادة والشريعة وأنباء الغيب ، وفى العلم بهذا المعنى يقول الله على لسان ابراهيم لأبيه :

« *يأبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ...* »

ويقول مخاطبا محمدا « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم .. »

ويقول عن المؤمنين من أهل الكتاب حين يستمعون الى القرآن

فيجدون علم الدين به كالعلم الذى جاءهم « ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا » ..

ثانيا :

علم الانسان ، أو علم التاريخ والاجتماع ، وهو النبأ الصادق عن الانسان ، أى هو العلم الذى يكشف عن خضوع الانسان والامم فيما تجرى به مصائر النوع البشرى لقوانين ثابتة لا تتغير ، يتحكم فى مسارها قرب الأفراد والأمم أو بعدهم من الله ، ومن الفطرة التى جعلها الله فى قلوبهم جهاز الامن المرشد عن صحة مسار الحياة دون تصادم مع قوانين الحياة . فحياة الأفراد والأمم فى مداراتها حول الايمان بالله تتحد وتتماسك وتضىء بالاقتراب منه ، وتنحـل وتنهار وتعتم بالابتعاد عنه .

الأفراد والأمم تقوى وتنمـو فى طاعة الله ، وتضعف وتنحـل فى معصيته ، حتى وان بدت ظاهرة القوة . وهذه الآيات التى تقرر مصاير الانسان فى القرآن الكريم من التاريخ ، وفى الواقع ، وعن المستقبل ، تقدم فى نفس الوقت ما يمكن أن نسميه مفهوم التاريخ فى الاسلام ، هذا المفهوم الذى هو التعبير والنتاج لسنن ثابتة تتحدد بها دون تبديل مصاير الأفراد والمجتمعات البشرية .

يقول الله فى أمثال هـذا العلم وهو النبأ الصادق عن الانسـان والأمم :

« ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم » .
« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود .. »
« وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ... »

« وكذلك أخذ ربك اذا أخـذ القرى وهى ظالمـة ان أخذه أليم شديد ... »

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ... »

« ولينصرن الله من ينصره ... »

ثالثا :

علم الأشياء وهو النبأ الصادق عن الطبيعة ومفرداتها .. عن المادة الحية وغير الحية .. عن ظواهر الطبيعة وخوافيها ، هو علم القوانين التى بها تتحرك المادة وتتغير وتتطور ملء السماوات والأرض .

يقول الله فى هذا النوع من العلم :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ... »

« فاذا مس الانسان ضر دعانا ، ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ... »

« قال انما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا .. »

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .. »

ومن قوانين هذا العلم التى وردت مجملة فى القرآن الكريم ومن تحتها علوم وأنباء عن المادة والحياة قائمة بذاتها .. أمثال قوله تعالى :

« وجعلنا من الماء كل شىء حى .. »

« هو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا »

« وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى »

« ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد »

* * *

١١ — وحدة أجزاء العلم

بهذا المفهوم القرآنى الشامل لكلمة العلم فى أبعادها المتكاملة — دينا واجتماعا وعلما — يقدم القرآن للمسلمين صرح كلمة العلم ساطعا فى الضوء ، معطيا بها فى تكامل دعائمها هذا التفسير الكامل لمشكلات عصرنا ، ومشكلات كل عصر . فالعلم فى حياة الانسان الصحيحة لا يمكن أن يتجزأ ، كما أن الحق لا يمكن أن يتجزأ ، وكما أن الحرية فى قلبه وفكره ولسانه وعلاقاته بالآخرين لا يمكن أن تتجزأ.

فعلم الدين الذى هو علم الايمان والشرائع والوصايا والعدل فى كل شىء هو القوة الموجهة والهادية والمرشدة للانسان فى كشفه عن علم الأشياء ، وفى استثماره لهذا العلم فى بناء الفرد وبناء المجتمع وبناء الحياة وبناء النوع الانسانى فى جملته وهو يسير بعدله وعلمه وعمله الى الله .

وعلم الأشياء يجب أن ينبع فى الكشف عنه ، ويخضع فى التطبيقات عليه لارادة الانسان المؤمن ، والمجتمع المؤمن ، فلا يكون من تطبيقات العلم ما يهدم أو يحطم انسانية الانسان فردا أو جماعة ، و لاما يعترض مسار العلاقات الصحيحة التى يبنيها علم الدين على الايمان بالاخاء والمساواة والتكامل بين الانسان وأخيه الانسان .

وعلم الانسان ، أو علم التاريخ والاجتماع ، هو المقياس الذى يقيس به الانسان تطبيقات عمله فى بناء الحياة ، هل هو يبنيها بعلوم الأشياء متفقة مع هدى الله وسبيل الله ؟ .. أم منحرفة عن ذلك بالقليل والكثير مع الهوى أو البغى أو النسيان ؟ .. هذا العلم بدوره لا يمكن أن ينفصم عن علم الدين أو علم الأشياء لأنه القانون الذى يؤكد للانسان أنه مهما بدا له من التشابه فى حياته وحياة العصر فان الانسان

— مثل الأشياء — يسير ويخضع للسنن والقوانين التى أجراها الله — انه يخضع لها فى بدنه ، وفى نفسه ، وفى فكره ، وفى علاقاته بغيره ، وفى نتائج هذه العلاقات على كل حياته ، سواء فى ذروة توحده وتصاعده ، أو فى حضيض تفككه وانهياره ..

هذه الوحدة لأجزاء العلم بمفهوم الاسلام وكتاب الاسلام يقررها الله فى مستهل الآيات الأولى من القرآن الكريم منهاجا واضحا للحقيقة العظمى التى يصدع بها الانسان وهى تسفر له من وراء الغيب . الحقيقة التى تطبع الدين بالعلم ، وتطبع العلم بالدين ، وذلك حيث يقول الله فى أول صوت للوحى ، وأول اشراق للقرآن :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

فى هذه الآيات المبشرات بعلم الدين يعلن الله للمدعوين فى شخص محمد أول الأمر هذا التقابل والتكامل فى خلق الانسان بين بنيته البدنية وبنيته العقلية . فالله قد خلق جسده من نطفة تصير علقة فانسانا ، وصنع عقله من فكرة وصورة يصبحان نبأ وعلما ، ثم يصبحان بعد ذلك حكما وقرارا ، ومن ثم فان الانسان بجوارحه هو أداة العمل بما ينتهى اليه قرار عقله وعلمه ، وعليه أن يوجه هذا العمل وهو يؤديه بوحدة بدنه وعقله ، وحدة يصنعها الايمان — عليه أن يوجه هذا العمل باسم الله ، وفى طاعة الله ، وابتغاء مرضاة الله ..

علم الدين فيما ينتهى اليه عمل الانسان المؤمن هو الموجه لكل جوارحه المتحدة بايمانه ، وعلم الانسان هو المنفذ لهذا التوجيه ، وعلم الأشياء هو مجال التطبيق ، هو أدوات التنفيذ ..

هذا العلم المتكامل فى أبعاده الثلاثة وهو يتحد فى قلب الانسان ويده ، ويضىء فى حياته وعمله ، ويبنى فى مجتمع الانسان صرح العلم العظيم المقابل بالصورة لصرح الكون العظيم ، هذا العلم يقوم فى أصغر

ما تنتهى اليه وحدته من « الفكرة العلمية » أو من « ذرة العلم » على هذه الأبعاد الثلاثة ، أو الأجزاء الثلاثة ، أو اللبنات الثلاث ، حتى تكون علماً . تقوم على قدر من علم الدين ، وقدر من علم الانسان ، وقدر من علم الأشياء ، وهى تتماسك بأذرع بعضها داخل « ذرة العلم » كما تتماسك اللبنات الثلاث التى يقوم عليها بناء الكون العظيم داخل « الذرة المادية » ... كما يتماسك فى حيز الذرة ـ بقوة الايجاب والسلب والتعادل ـ كل من البروتون والالكترون والنيوترون ... !!



١٢ — جوهر واحد للدين والعلم والحرية

ان تحطيم ذرة العلم — أو تحليل وتحطيم شعاعه الموحد الى أطياف داخل منشور — هو أشد هولا فى مصير الانسان من تحطيم ذرة المادة . انه تحطيم للوحدة المطلوبة لنفس الانسان حتى يستطيع — فى حياته وحياة المجتمع — أن يبنى الايمان ، وأن يبنى العدل ، وأن يبنى الحرية ، وأن يبنى التقدم .

ان تحطيم ذرة العلم فى نفس الانسان وسلوكه هو وحده الذى يجعل تحطيم الذرة المادية .. هو وحده الذى يجعل التفجير الذرى والنووى صاعقا لنوع الانسان ومجهزا عليه ، لا بانيا لحياته ومسرعا بتقدمه ..

لذلك فانه من مسلمات العلم الأولى التى يجب أن يعلمها المسلمون أن أجزاء العلم كما حددها القرآن ، ودعا بها الاسلام هى فى وحدة لا تتجزأ . كذلك فان أولى المسئوليات التى يحملها المسلمون ان وحدة العلم بأجزائه فى حياة الأفراد ، وحياة المجتمع هى الأساس القوى والصحيح لبناء الحرية بمفهومها السياسى « الديموقراطية » وبمفهومها الاجتماعى « الاشتراكية » فى حركة وحياة مجتمع المؤمنين فى هذا العصر .

لقد كان الاسلام لذلك — بما فجره فى أوروبا من ثورة العلم — هو الملهم الحق لكل الثورات الاجتماعية والسياسية التى أعقبت الثورة العلمية ، والتى اتجهت نحو مفهوم أوسع فى الحقوق الانسانية لجماهير أوسع من البشر فى اقامة البناء النظرى للديموقراطية والاشتراكية .

ان جميع التطبيقات الرائدة فى مفهوم الحرية الاجتماعية والسياسية

التى سبق المجتمع الاسلامى الأول الى تحقيقها بتقييمه الانسانى للعمل، وبتحـديده درجات الناس فى المجتمع على أسـاس العمل تؤكد أن المصدر الحقيقى لكل من التقـدم العلمى وللحـرية بمعناها السياسى والاجتماعى هو بذاته مصدر الدين وجوهره ، أى أن المصـدر هـو الوحدانية الخالصة لله ، المنزهة عن المثيل والشبيه ، وعن الشـك والضعف . وفى مقابل ذلك نجد أن التطبيقات الثورية المتعددة للحرية السياسية والاجتماعية والتى جرت فى أمكنة وعصور مختلفة ، وعلى أيدى متنوعة كافحت من أجل حد أفضل للحرية وتطبيقاتها لم يصبها التوفيق من حيث واقع التطبيق الديمقراطى والاشتراكى لها ، مع ثراء ما تملكه من التصور المثالى والصيغة العلميـة فى عقائدها المكتوبة ، وما ذلك الا بسبب الشروخ أو الشكوك أو الشبهات حول المفهوم الخالص لوحدانية الله ، أو بسبب انتفاء هذا الشرط أصلا ، أو بسبب انكاره صراحة ، على الرغم من مبادرات الماديين العلميين فى هذا الاتجاه الذى تحركوا فيه ولاشك بخطى أكثر علمية والتزاما مع أهدافهم من خطى المادية الرأسمالية نحو الديمقراطية ، وكلاهما بعيد عن العدل الخالص ، والمساواة النافذة فى التطبيق ، والأمينة فى الممارسة بسبب هذا العجز عن استكمال وحدة أجزاء العلم ، وبالتالى يقع العجز الحتمى عن استكمال وحدة الحرية ، وعيا وتطبيقا ..

ان « الوحدانية » الخالصة لله هى أساس علمى كما يقدمها القرآن الكريم ، وكما مارسها المسلمون من قبل ، وهى التى تجعل وحـدها موقف النظم الاشتراكية والديمقراطية والأفراد المتحررين والتقدميين صادقا علميا بالنسبة لمفهوم المسـاواة بين جميع المواطنين ، وجميع البشر ، فى الواجبات والحقوق .

ان الوحدانية الخالصة لله فى مفهوم الدين الصحيح هى التى تترجم بالعقل والوجدان هذه المنظومة العلمية القائلة « الاه واحد ، كون واحد ، طبيعة متسقة القوانين ، وحدات نوعية متساوية فى الأهميـة فى مجال العلم » ... هذه المنظومة العلمية تترجمها الوحدانية الى مفهوم

سياسى ديمقراطى مقابل يتوازن مع القـانون العلمى هكذا : « الاه واحد ، فهو مجتمع انسانى واحد ، فالعدالة فى هذا المجتمع متسقـة القوانين ، والقوانين فى هذا المجتمع لجميع الأفراد . والوحدات فى هذا المجتمع متساوية تماما أمام هذه القوانين ، فى الحقوق والواجبات . فالفرد الواحد لا يمكن أن يحسب بأقل من واحد ، كما أن هذا الفرد الواحـد لا يمكن أن يحسب بأكثر من واحد ، لأن معنى هـذا هو الاخلال بوحدة القوانين واتساقها وتسلسلها من مصدرها الأول الذى هو الله منشىء الحياة .

كذلك فان الوحدانية الخالصة هى التى تترجم هذه المنظومةالعلمية لوحدة الكون وقوانينه وأهمية وحداته الى مفهوم اجتمـاعى ، أى مفهوم اشتراكى يحقق المعنى المعاصر للعدل فى علاقات العمل ، ودرجات الأفراد ، وأهداف المجتمع . فمعنى مساواة الاحاد أمام القانون الواحد للمجتمع الواحد الخاضع لتدبير الكائن الأعلى الواحد وهو «الله» يجعل هؤلاء الآحاد أو الأفراد متساوين فى الواجبات كما أنهم متساوون فى الحقوق . وهذه المساواة فى الواجبات تجعل التزام الأفراد الأول هو العمل لبناء المجتمع والدفاع المتجدد عنوجوده وتقدمه ، دون أن يكون ذلك بتضحية وجودهم الذاتى ، أو حقهم فى قدر عادل من الرخاء ، والحرية الخاصة ، فالأفراد هم نتاج المجموع ، والمجموع هو حركة الأفراد ، واتساق الحركتين فى حياة الفرد بالايمان والعلم والحـرية يحفظ للفرد قدرته الفلكية على أن يدور حول نفسه فى ذات المدار الدائب له حول مركز المجتمع الذى يجتذبه دائما لمصلحة وجوده العليا، أى لمصلحةوجود الأفراد أنفسهموجودا حقيقيا ومكتملا ، مما لايستطيع الفرد الواحد أن يحققه لنفسه مستقلا عن الآخرين ..

* * *

١٣ — حتى نعود أمة وسطا

من تلخيص ما سبق فى هذا البحث — على ايجازه — يتضح لنا الموقف الصحيح للاسلام من مفهوم العلم ، والمكان الصحيح للعلم فى بناء الاسلام . النتيجة التى يكشف عنها هذا البحث أن الاسلام الى الله هو أعلى مراتب العلم .. هو العلم الخالص . فالاسلام من نطفته فى القلب والفكر حتى حافته فى الأداء والعطاء هو علم ، والعلم فى وحدة جزائه — دينا وتاريخا وعلما — داخل ذرة الفكر العلمى ؛ أو ذرة العلم هو الاسلام الخالص الى الله .

وترتيبا على ذلك يتضح أن الوحدانية الصحيحة لله التى هى جوهر الاسلام اليه هى فى حد ذاتها — وفى نفس الوقت — جوهر العلم وأساسه ؛ وهى فى نفس الوقت جوهر « الحرية المتكاملة » بالمفهوم المعاصر للديمقراطية والاشتراكية نظرا وتطبيقا معا ...

هذا التصور لحقيقة العلم فى الاسلام ، والاسلام بالعلم ، والحرية المتكاملة بهما معا ، على خط واحد للحقيقة ، أو فى ثلاث واجهات لحقيقة واحدة يعيشها الانسان فى ذروة صحوته ، وفى قمة معرفته ، وفى كمال لياقته البدنية والعقلية والانسانية — ليست كلاما نظريا نتوصل اليه بتحليل نصوص القرآن فحسب ، واكتشاف طبيعة الاسلام فيه . ولكن هذه النتائج متجاوزة كل شكل نظرى واطار لفظى — هى من الحقائق الثابتة والمركوزة فى حياة شعبنا العربى « الفطرية والطبيعية قبيل الاسلام ، وفى حياته التنظيمية والملتزمة بعد الاسلام » .

فلقد كان هذا الشعب ولا يزال يملك من أفقه الجغرافى وأفقه التاريخى متكاملين فى لغته الخالدة وحسه الحضارى هذه النظرةالعلمية الصحيحة الى الكون ، والى الحياة ، والى الانسان ، والى الطبيعة

ومفرداتها . وان هذه النظرة العلمية كانت وسيلته وقدرته بعد الاسلام لكى يبنى تقدمه العلمى المطرد على أساس من منهجه التجريبى الواقعى الذى أخذ به العلم المتقدم من بعده ، ومن يده ، هادما بهذا المنهج أسلوب النظر التجريدى غير الواقعى الذى كان دعامة الفكر الفلسفى والاسطورى والطبقى أيام الوثنية اليونانية الميثولوجية ، وعند من تأثروا بها بعدها ..

وأنه اذا ما كانت الصهيونية والاستعمارية العالميـة تعمل من قديم ، وتجدد عملها المتآمر فى هذا العصر لتشكيك العرب فى أنفسهم ، وفى تاريخهم ، وفى دينهم ، فان الطريق المفتوح أمامنا دفاعا — فى سبيل الله — عن ذات الأمة العربية المؤمنة ، عن وجودها وأرضها ولغتهـا وعقيدتها هو أن تنفض الأتربة التى تغطى جوهر فكرها النقى ، والمشع ، الذى هو مصدر حركتنا الصحيحة الى وحدة القوى ، ومصدر رؤيتنا الواضحة لمواقع الأهداف ..

اننا بهذه القوة الكاشفة ، فى داخلنا وخارجنا ، والتى مصـدرها الايمان ، وأساسها العلم ، واطارها وغاياتها الاسلام ، وحركتها وجهادها البناء والفداء — نستطيع أن نعيش فوق ارادة العدو كل مجالات الحياة الاقتصادية والثقافية والانسانيـة دون قصـور أو اهدار أو قلق .. نستطيع أن نبنى وأن نعيش هذه الحياة الكاملة التى عبرت مرارا فى تاريخنا الاجتماعى — حيث يمكن أن تتساوى الوحدات البشرية أى الأفراد المواطنون بمقادير وأنواع العمل أمام الله ، ولصالح المجتمع ، حقا والتزاما ، حياة لا تتناقض فيها القوانين ، ولا تتصادم المصالح ... حياة لا يختلف فيها العقلى عن التجريبى ، ولا الدينى عن الدنيوى .. حياة هى الوجود الحق ، المترع بالأمن والحب والمبادرة ، الذى به ومن خلاله نبقى وننمو ونعطى ... حياة هى المثال الموعود الذى نطلبـه ، ويحتاج العالم اليه .. مثال الأمة الوسط — كما كنا يوما ما فى مشرق الوجود بالعدل — الأمة التى لا تنحرف الى تجفيف حياتها النشـطة المتوازنة بافناء جسدها وراء الادعاء باعلاء الروح ، مع أننا لا نعلم عن

الروح شيئا الا أنها من أمر الله ، ومع أننا نعلم أن الجسد هو الذي يحمل أمانة الأداء للعمل الصالح الذي يهدى اليه الايمـان ويأمر به الله ... !

كذلك هي الأمة الوسط التي تعيش بايمانها متوازنة فوق القول بالغنى المادي ، والثراء الجسدي في فردوس موعود على هذه الأرض . كذلك فان هذه الأمة لا تتذبذب بين جميع المذاهب والطرق وهي تمارس بالحقد والغباء كل وسائل الغصب والتزييف والعدوان كما تفعـل الصهيونية والاستعمار في هذا العصر ، وفي كل عصر ! !

نعم .. ان ما نريده بالحق والعدل هو أن نبنى هذه «الأمة الوسط» التي كانت خير أمة أخرجها الله للناس .. أن نعود « أمة وسطا » يبنيها علم متكامل لا تنفصم أجـزاؤه ، علم الدين ، وعلم الانسان ، وعلم المادة معا ، في وحدة لا تتجزأ . فمثل هذه الأمة هي موضوع وجودنا بذاته ، وهي في نفس الوقت أمل هذا العالم الذي يختنق بعلم من غير دين ، ودين من غير الاه ، في ظلمات كثيفة يتخبط فيها وراء ما يزعم أنه نهاية تناقضه ، وبداية الملك الأبدي والسلام على طرقه .. وهيهات أن ينتهي عند أحد هذا التناقض ، أو أن تنفتح أمامه هـذه الطرق ، الا استقبالا لمشرق الايمان بالله ، والهدى به ، والاسلام اليه ، قلبا وفكرا ، وقولا وعملا ، ووعدا وانجازا ...

وسبحان الله الذي يقول قوله المحكم لجميع الأمم والعصور :

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه »

والذي يقول :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ».

●

القومية العربية فى جهادنا المعاصر

« ان قوميتنا العربية فى مفهوم ثورة اجتماعية لشعب بعيد الجذور فى التاريخ ـ دينا وحضارة ـ ليست نقلا عن القوميات الأوربية ، لذلك فهى قومية شعبية وليست طبقية ، تقدمية وليست رجعية ، انسانية وليست عدوانية ، مؤمنة وليس ملحدة » .



١ — المياف القومية المبعثة

كان لابد لأمة ذات تاريخ مثل الأمة العربية ــ أمة تملك الارض والبشر واللغة والعقيدة من أن تحطم فى زفرة انسانية عظيمة كل أغلالها ، وعصائب عينيها ، وتدخل بحواسها فى رؤية العصر ، وتحاول أن تستعيد وتسترجع كل شيء ، وترتب فكرها ...

ان الشابات والشباب العرب يقفون الآن على الجزيرة التى نحتشد كلنا فوقها ، جزيرة النجاة ، فى المرحلة الأولى من هزيمة خطط العدو ... ينظرون فى وقفتهم الى الشاطىء الآخر الذى نريد أن نعبر اليه ، الشاطىء الأكثر أمنا ، لأن أهدافنا القومية الكبيرة تنتهى كلها عنده ، وتزدهر فى ترابه ...

ان الشابات والشباب العرب وقد طفقوا يخصفون على معرفتهم غير اليقينية ، ورؤيتهم غير الكاملة ــ أوراق الخجل ، أو التجمل بالصبر ، أو القلق والانفعال ، وهم يحسون باغتراب حقيقى داخل أزياء العصر التى لا تلائمهم ، ويفتحون أعينهم على خطر حقيقى أمام تناقضات العصر التى تهدد طموحهم ــ يتساءلون : ماذا نفعل ؟ ... ثم يقولون : « واذا كنا نعرف ماذا نفعل فكيف نبدأ » ؟ ... ثم يقولون : « واذا كنا قد تأكدنا من أن البداية هى أننا فى عصر ازدهار الاسلام قد منحنا أوروبا العلم ... علمناها منهج العلم ، فدفعناها دفعا الى (الصناعة) و « القومية » و « الاشتراكية » فى القرن التاسع عشر ... فكيف نطبق هذا المنهج العلمى ــ الذى هو اكتشافنا ــ على هذه البدايات النضالية التى نشق بها طريق التحول ، ونحقق بها النهوض على أقدامنا ، ونبنى بها وحدة أمتنا ، ودولة وحدتها ؟ »

ثم يقولون : « كيف ننظر مثلا الى « القومية العربية » بمفهوم

واحد من خلال واقع واضح ، مفتوح بين الماضى والمستقبل ... واقع يعكس فكرنا ، وذاتنا ، ومطالبنا ؟ ... اننا لا نكاد نفهم هذه القومية – التى هى عربية ، والتى لا تعنى غير العرب – وهى تعرض علينا من خلال منشور زجاجى ، فنراها فى سبعة ألوان ، وعلى سبعة طرق ... نراها تمثل ما صنعه القهر الفكرى من تجزئة أفكارنا ... ونراها تحكى ما يصنعه الكيد الاستعمارى لتبقى هذه التجزئة فى أقطارنا ... فأين القومية البيضاء بغير أطياف ؟ ... أو أى هذه الاطياف فى أشكال القومية نختار ؟ ... وبأيها نؤمن ؟

هذه أحاديث النفس والقلب ترتفع بها أصوات شبابنا الجديد فى حوار المجامع ، وجدل الندوات ، وهمس الخلوات ، مما تلتقطه الأذن ، وتعيه عنهم بين أكثر أعمار الشباب ، فى معظم الأقطار فى وطن العرب .

ان بعض هؤلاء الشباب – وهم الأبعد رؤية والأصدق ثورية – يناضلون ويبحثون ويتكلمون وراء وحدة المفهوم للمسألة القومية ... وبعض هؤلاء الشباب لا يزالون اغرارا يكتبون ما يملى عليهم دون نقد، ويقرأون ما يعطى لهم دون تمحيص ... وبعضهم ممن تروج بينهم تلك الكتب التى يأتى الوحى بها من وراء الحدود ، أو ينتقل الرأى فيها من مدسوسات التراث ، فهم بهذا وذاك يمضــون على غلوائهم ، نافشى أعرافهم كالمهار الوحشية فى الدعاية لأشكال القومية القاصرة أو الشاذة أو المريبة ! ... وبعضهم فى هذه المسألة يحاول أن يفهم ما يقدم اليه من الثمين والغث ، ويصنع لنفسه رأيا ... وبعضهم من ينتظر !!

انه منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والى اليوم ظهرت دعوات وصيغ كثيرة فى بناء القومية العربية ، أو فى العمل على تقويضها وتفتيت فكرتها ... بعض هذه الدعوات أوحى به الاستعمار ، وبعضها أفرزه التخلف ، وشجعه الشعور المهين بالتبعية الثقافية للغرب ... وبعضها يمكن أن يصحح نفسه ، ويتطــور ، ويقترب من الاتجــاه الصحيح !

وفيما يلى نستعرض فى ايجاز عابر صورا دقيقة بقدر الامكان لهذه الدعوات أو الصيغ التى يتداولها الفكر فى المجتمع العربى ، من الخليج الى المحيط ، فى اطار الدعوة للقومية العربية ، ذلك منذ سقط الصرح البالى للامبراطورية العثمانية عن هذا الوليد العربى القوى ، الغنى ، الذى يصرخ بطلب الحياة ، بينما تمتد اليه مخالب كثيرة لاعدائه تدعى أمومته أو أبوته ، لتصنع منه عبدا ، وتفرض عليه وصاية ، من خلال حضانتها له بفكر سياسى خاطىء ... له بريق !!

١ — دعوة قديمة وحديثة ترفض الاقليمية والقومية معـا ، وتنادى بالفكرة العالمية الغربية ، وهذه تتردد فى أفكار فردية ، أو مدارس فكرية متنعة تتحرك هنا وهناك فى مباحث ثقافية أو فنية ذات طابع تحررى ، وهى دعوة تشجعها الصهيونية والاستعمار من قرب أو بعد !

٢ — دعوة أقليمية ترفض القومية العربية ، ايثارا لوطنيات ضيقة باسم الفرعونية أو الفينيقية ، أو الآشورية ، وهى أثر من آثار التحرك الاستعمارى العاجل عقب سقوط الدولة العثمانية لقتل أى احتمال بظهور وانتشار فكرة القومية العربية .

٣ — دعوة لاتحاد العالم الاسلامى ترفض القومية العربية ، وهى أثر من آثار وتراكمات الوجود التركى فى الوطن العربى ، ودعــوة يجند لها الاستعمار الجديد كل قواه لتفتيت الصمود العربى فى وجه الهدف من الوجود الاسرائيلى ، وهو يحاول من خــلال جماعات اســلامية كثيرة ، ووسائل اعلام ملتوية أن يبث بهــا المخاوف من القومية العربية فى قلوب علماء الدين .

٤ — دعوة للقومية العربية أوربية الشكل والمضمون ، وهى دعوة ينفثها الاستعمار — فى جهوده الكثيرة المتنوعة لقتل القوميــة العربية — داخل الجماعات الرجعية وقيادتها المثقفة التى تؤمن بمجتمع «الكبراء والصغراء» ، وتريد أن تفرض تصورها للقومية العربية بالشكل الذى يحمى نظرية التفوق ، والدم ، وامتيازات رأس المال !

٥ — دعوة للقومية العربية ترفض الدين وتشترط هذا الرفض ، وهى دعوة تمتزج فيها المؤثرات الثقافية الخارجية بالانعكاسات المحلية من جيوب دينية باطنية !

٦ — دعوة لاتحاد وتضامن العرب تتجاوز ارادة الشعوب الى علاقات الحكومات وتتمثل فى جامعة الدول العربية . التى تأسست سنة ١٩٤٤ بهدف « توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها تحقيقا للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها » ... كما جاء فى ميثاقها .

٧ — دعوة للقومية العربية يتبناها التقدميون الماركسيون يضعون فى مقوماتها التجانس الثقافى والعقلى ، ووحدة النظرة الى الكون فى موضع الدين ، والأممية فى موضع الانسانية .

ولكن هذه الصور المتعددة من أشكال القومية العربية ، التى نبتت فى وطننا الواسع بتلقائية التطور ، أو زرعت زرعا بأيد غريبة فيه ، لا تزعجنا ، ولا تردنا عن أهدافنا الواضحة وراء عجاجة كفاحنا . فنحن نعلم انه فى تباشير صحوتنا ، وفى « شبورة » نهار ساطع حار يقدم علينا قد تسبح بعض حقائق الأشياء فى الظنون ... قد ينسدل الضباب الذى يخفى الطريق ، وقد يلمع السراب الذى يخدع عن الماء ... وقد تظهر « النزوات الصغيرة » فى جلال المبادىء العليا ... ولكن فى دورة الأشياء ، وحركة السنن ، يتدفق التداعى بالعلم ، ويشرق نور يأفل معه الظن ؛ ويغيض الباطل ، ويتجلى الحق ، ويظهر الطريق ... كما تجلى نور حقيقى على قلب ابراهيم عندما أفلت الآلهة الزائفة بافول الكوكب والقمر والشمس ، وظهر الله وحده مالك كل شىء !

وجوابنا لهؤلاء الشباب ان قوميتنا العربية هى فى مفهوم ثورة اجتماعية لشعب بعيد الجذور فى التاريخ ــ دينا وحضارة ــ ليست نقلا عن القوميات الاوربية ، لذلك فهى قومية شعبية وليست طبقية ، تقدمية وليست رجعية ، انسانية وليست عــدوانية ، مؤمنة وليست ملحدة !

٢ – قومية البحر الابيض

هذه دعوة قديمة وحديثة ... تتجدد مع قوة الاستعمار ، وتغيب مع ضعفه ... دعوة تذوب بها قلة من أبنـاء الأمم المغلوبة فى جاذبية غزاتها ... قلة تنحنى بين أيدى الفاتحين القاهرين تهذى بحمـدها ، وتنقل عنها اللغة والفكر والأزياء والأسماء ... وتطمح للتزاوج معها أحيانا وراء بعض الفتات ، وقليل من السلطة ... والغزاة يفضلون دائما هذه التبعية المفتونة ، القليلة النفقات ، المبهورة بضعفها امام قـوة أعدائها ... هكذا فى القرن الثانى قبل الميلاد نشأت تحت الحـكم الأغريقى فى مصر طبقة قليلة من المصريين طمعت فيما بين يدى الغزاة فتعلموا الاغريقية ، وحاولوا أن يعبوا دون فهم من مصادر الثقافـة الأغريقية ، وغيروا أزياءهم وثيابهم وأذواقهم الى أزياء وأثواب وأذواق أغريقية ، بل غيروا أسماءهم ، واحتالوا بكل هذه الزلفى المهينة للزواج من أغريقيات ! وكذلك حدث نفس الشيء فى عصر الغزو الرومانى ... ولكن الشعب لم يتزحزح خطوة وراء هؤلاء المبهورين بما فى رؤوس سادتهم ، وظل – على طول أحقاب القهر – معتصما بلغته ومعتقداته وتصميمه على معاداة أعدائه ، الانتقاض على قاهريه ، دون أن يفقد أمل الحرية حتى كانت الحرية ووقع التحرير ...

وعنـدما جاء محمد على الالبانى الى مصر – كقنطرة لدخـول الاستعمار – بدأت تنشأ حوله مع البطانة التركية بطانة فرنسية ، ثم بطانة انجليزية – بعد هزيمة عرابى – وهكذا ظلت الفئات التى تأغرقت قديما تغير جلدها مع كل حاكم ، وتموء بلغته مواء الاستسلام الذليل لرغباته ، وثقافته ، ونزواته ... ان القطط لا تعرف الولاء لسـيد واحد ... ولاؤها دائما لصاحب المائدة التى تغرس أقدامها من حولها ، ولا تتزحزح تحت أى ضغط عنها ...

* * *

وهكذا نشأت فى أوائل القرن العشرين حركة نشطة بين هذه الفئة القليلة من المصريين فى اتجاه الغرب ... ليس بالانفتاح على تجاربه لنقدها واختيار الصالح منها بروح تقدمى ، وثقافة قومية ، ولكن بالنظرة المبهورة ، والنفس المهزومة ، والفكرة المنسحقة ، والاستسلام الرخيص لازدراد كل ما يقال من فم السادة المستعمرين الذين أعلنوا على الأمة العربية منذ الحروب الصليبية حرب الفكر ، ثم ها هم هؤلاء قد جاؤا فى أعقاب محمد على ونابليون لاعلان حرب السلاح ...

فى تلك الفترة ظهر اتجاهان يتسابقان للقربى الى المستعمرين ، بلاهة وانحسارا ، هما الاتجاه للاقليمية دون القومية ... وذلك الاتجاه الآخر الذى يتجاوز الاقليمية والقومية معا ، ويلقى بنفسه تحت أقدام حفدة «الهيلنبين العظام» الذين يعيشون على الشواطىء الجنوبية لأوروبا ، التى تعد بالنسبة للشاطىء العربى للبحر الأبيض المتوسط شواطئه الشمالية ! ... من هذه العلاقة الجغرافية بين شمالى البحر الأبيض وجنوبيه ، والتى تؤكدها علاقة غزو مطرد من اليونان فالرومان فالفرنسيين على عهد نابليون — نشأ ذلك الاكتشاف الفريد فى نوعه فى عقل الفئة المبهورة بالعدو وهو أن ثقافة مصر ، وحضارتها ، وجذورها الفكرية ترجع الى نفس مقوماتها فى شعوب البحر الأبيض ... وترتيبا على هذا الاكتشاف العجيب الذى يوحى به الغرب نفسه ويدعيه فان الشعوب العربية الواحدة وهى تتخلى عن مقوماتها فى هذا الاتجاه واحدا بعد آخر يمكن أن تدخل فرادى ومجزأة فى أى قومية يختارها لنا بعض المثقفين المبهورين من بين قوميات شعوب هذا البحر ... بل يمكن أن تغرق فى البحر الأبيض كل المقومات الشامخة لوجود وحياة أمة عربية ، ولحركة ونمو قومية عربية ، من أجل أن يصبح الادعاء بالرغبة المشتركة فى الحياة — مثلا — بين الاستعمار الفرنسى وبعض الجزائريين فى السابق حقا كان يمكن أن يتحقق به — لولا ثورة الجزائر العربية — ذلك الشعار الاغتصابى والعدوانى « الجزائر فرنسية » ... ! ومثل ذلك يمكن أن يقال عن مصر وليبيا والمغرب والشام !!

فى تلك الفترة الهلامية ، الغائصة بالشعب العربى المجزأ حتى قرارة الحزن والشقاء برز فى جيل واحد ثلاثة رجال أذكياء أصدقاء تعاقدوا على « حمل القرابين » الى الغرب الظافر ... ولم تكن هذه القرابين الثمينة الا المقومات الأساسية للامة العربية مذبوحة — بحسن نية — وممزقة !

فى مجلة الهلال عدد أول يوليو سنة ١٩٧٠ اعادة واعية لقصة كتاب « الأدب الجاهلى » الذى وقف صاحبه سنة ١٩٢٦ أمام المجتمع ممثلا فى النيابة العامة ، ومتهما من الأزهر ومن مجلس الأمة بانه قام — على أساس فلسفة ديكارت — بتكذيب القرآن ، والتشكيك فيما ورد به من نسبة ابراهيم واسماعيل الى العرب ، وفى بنائهما البيت الحرام زعما منه أن هذا « حيلة قرآنية » للتقرب من اليهود ! ، وبالتالى تشكيكه فى نشأة العرب المستعربة من العرب العاربة بادعاءات لغوية لا برهان عليها ، واسترساله الى القول بانتحال الشعر الجاهلى الذى هو دعامة لغوية وعمق تاريخى وجغرافى لعلوم تفسير القرآن !!

ليس هنا مجال التفصيل فى أهم أحداث النصف الأول من القرن العشرين ، والتى كان الرد الحاسم عليها هـو ثورة مصر العربية سنة ١٩٥٢ وتحرر الجزائر العربية سنة ١٩٥٤ ولكن ينبغى أن نذكر أن النائب العالم « محمد نور » الذى حاكم مؤلف الكتاب بعقلية قانونية قد خاض معه معركة « علمية » — وان كانت قد انتهت بالعفو عنه — الا أنها دمغت فكر صاحب الكتاب رغم ذكائه وقدراته البلاغية بالسطحية ، والاهتزاز ، وتزييف الأدلة ، والتملص من قواعد المنهج العلمى الذى زعم قبلا انه يبيح له الشك المنهجى للوصول الى « يقين » لا شك فيه ولا أثر للعواطف والأهواء !

فى هذا يقول النائب العام فى حيثيات حكمه بعد اسقاطه واحباطه لأدلة المؤلف غير العلمية « فالمؤلف اذن فى واحدة من اثنتين : اما أن يكون عاجزا واما أن يكون سىء النية قد جعل هذا البحث ستارا ليصل بواسطته الى الكلام فى تلك المسائل الخطيرة » .

وبعد أ نكشف النائب العام بوضوح عن استباحة المؤلف تزييف نص اعتمد عليه من أقوال أبى عمرو بن العلاء ليفيد وجهة نظره ، ثم قوله بجزء من رأى أبى عمرو واخفائه لبقية رأيه وهو ينقض نظرية المؤلف من اعتبار اللغة الحميرية فى اليمن لغة أخرى كالسريانية فى الشام والاشورية فى العراق قال النائب العام : « والذى نريد أن نشير اليه انما هو الخطأ الذى اعتاد أن يرتكبه المؤلف فى أبحاثه حيث يبدأ بافتراض يتخيله ، ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة كما فعل فى أمر الاختلافات بين لغة حمير ولغةعدنان ، ثم فى مسألة ابراهيمواسماعيل وهجرتهما الى مكة وبناء الكعبة ، اذ بدأ فيها باظهار الشك ثم انتهى باليقين » .

ثم يقول النائب العام « ان كل ما ذكره المؤلف فى هذه المسألة ـ أى الزعم بتلفيق القرآن قصة ابراهيم واسماعيل ـ انما هو خيال فى خيال. وكل ما استند اليه من الأدلة هو من مثل قوله :

١ — فليس ببعيد أن يكون ...
٢ — فما الذى يمنع ...
٣ — ونحن نعتقد ...
٤ — واذن فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الاسطورة ...
٥ — واذن فنستطيع أن نقول !!!

ثم يقول النائب العام : « سئل المؤلف فى التحقيق عن أصل هذه المسألة ـ أى تلفيق قصة ابراهيم ـ وهل هى من استنتاجه ، أو نقلها . فقال « فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه فى كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد ظهور الكتاب أن شيئا مثل هذا الفرض يوجد فى بعض كتب المبشرين ولكن لم أفكر فيه حتى بعد ظهور كتابى » !

انخدع الأديب الكبير فى كل ما هاجه من انفعالات وأفكار فى جيله باطياف وتهاويل نظرة « الصحوة المتخلفة » صحوة المبهور ، فاقد الذاكرة ، وفاقد الاتجاهات ، الذى يقول « أين أنا ؟ » ... وكان من

قدره أن يجد طريقه الذى يبحث عنه عند « ديكارت » المتشكك بفلسفته ؛ المتشكك تصنعا لا شكا حقيقيا ... فلقد كان ديكارت ــ وهذا ما يجب أن نعرفه عن مناخ فكره ، وأسلوب رؤيته ، وغاية حياته ــ كاثوليكيا مغاليا ، لم يحد مرة فى حياته عن مبادىء الكنيسة. وهو تلميذ مخلص لليسوعيين ، الذين تأسست جماعتهم فى القرن السادس عشر ، والذين قاموا بدور مؤثر فى مقاومة الاصلاح البروتستنتى ، وبدور فعال أيضا فى خدمة الراية الأوربية فى المستعمرات، وكانوا يهتمون بتربية أولادهم على « السياسة العملية » عن طريق تدعيم الارادة وتجنيب العقل البحث فى الأصول الدينية ! وكان هدف ديكارت الأساسى فى حياته ــ بعد مقابلته للكردينال دربيرول سنة ١٩٢٧ هو « انشاء فلسفة تتفق والدين من ناحية ــ بالمفهوم الكاثوليكى ــ وتؤسس العلم من ناحية أخرى » وكان ديكارت يعترف بأن اعترافه بالشك فى الدين وفى الله فى منهجه هو شك فيما هو مؤمن به مسبقا ، اذن فهو اعتراف غير حقيقى ولكنه جعله وسيلة للوصول من هذا الاعتراف « التقليدى » الى يقين بالله يرتكز الى محاورة علمية بالشك ... ولم يكن ديكارت ذو الارادة الصلبة ، والعقلية المرتبة ، والهدف الواضح يعنى نفسه بهذا الشك ، وانما كان يعنى خلق أداة فكرية جذابة ودقيقة ، يستهوى بها أجيال عصره ليصبهم فى قوالب فكرية صامدة بالمعتقدات الكاثوليكية ــ التى لا تناقش ــ فى وجه أعاصير العلم والثورات الشعبية والصناعية التى أخذت تلوح فى الأفق بسرعة أمام طبقة الملوك والكهان والفلاسفة !! ... فأين هذا فى مصر سنة ١٩٢٦ من ذلك فى فرنسا سنة ١٦٢٧ ! ؟

و فى هذا الاتجاه نفسه بعد محنة « الأدب الجاهلى » كتب مؤلف الأدب الجاهلى كتابه الآخر بنفس الارادة الصلبة فى « الخضوع » للغرب، خضوعا عاش به على مسرح السياسة « باشوات » حزب الاحرار الدستوريين ... هذا الكتاب هو « مستقبل الثقافة فى مصر » ... وكانت هناك قوى كثيرة تعمل على أن يكون هذا الكتاب الذى يسيل بدم « القومية العربية » المضحى بها « دستورا » لتثقيف المصريين ... بينما

الثقافة التى هى فرع على التفسير الدينى للحياة ، وعلى جهاز اللغة ونظمها لا تقبل الاكراه ، والخضوع الأعمى لمنهج ولائى للعدو ، منهج كل مبلغه من العلم تلك العبارات الاستعلائية الجوفاء « ونحن نعتقد ... فما الذى يمنع » ! !

فى هذا الكتاب الذى أسقط عليه الواقع العملاق أتربته وغطى عليه بعد ثورة الشعب ، تناول المؤلف قضايا عجيبة عن قومية أو عقلية للبحر الأبيض تجمع بين المصريين واليونان ، فى علاقات متكافئة وثقافات مشتركة ، كأنهما غصنا شجرة ، أو شقا نفس واحدة ... بينما العكس هو الصحيح ... والتأثير التبادلى بين الثقافة العربية والثقافة اليونانية هو ثمرة حروب طاحنة لأنهما فى الجذور والمنحى والهدف مختلفان تماما كاختلاف « الواقع العلمى » فى الفكر العربى المعبر عنهم ، وغير المدسوس عليهم — عن « التفلسف الأسطورى » فى الفكر اليونانى التجريدى القديم الذى هزمته الاشتراكية نهائيا فى أوروبا فى المجتمع المعاصر ...

عنى المؤلف فى كتابه هذا — وهو ينسى ان العرب علموا اليونان فى جيل من الأجيال « القراءة والكتابة » — بأن يحاول على طريقته ومن منبر ناء تماما عن اسماع الشعب الترويج لادعائه وجود وحدة عقلية بين المصريين واليونان فيفرد فصولا لذلك مثل « العقل المصرى ليس شرقيا — العقل المصرى والعقل اليونانى متأثر كل منهما بالآخر » ومثل « ليس بين الشعوب التى نشأت حول بحر الروم — البحر الأبيض — فرق عقلى قوى » !!

وأقبح من ذلك كله وأبعد عن الصواب زعمه بأن « العقل الاسلامى كالعقل الأوروبى يرد الى عناصر ثلاثة : حضارة الرومان ، وحضارة اليونان ، والدين » ... ما هو الدين بين هاتين الحضارتين ... لا أحد يدرى ؟

فى تلك الآونة ، ومن نفس الموقع السياسى لفريق الباشوات فى

الأحرار الدستوريين ، حزب الارستقراطية والصفوة ، كان أحدالمعلمين لفلسفة أرسطو يقــول أيضا ـ بالتبعية للفكر اليونانى ، كان يرى أن « الأغرقة » مرة أخرى بعد عهد « البطالسة » هى عملية « عبور حضارى » ، الى منطقة أمن ، بعيدا عن « الصحراء وتجويد الآيات وحفظ المعلقــات » وكان الباشا المعلم يقــول من آراء المستشرقين و « لطائفهم » بنفس القــدر الذى تأتى به آراء مؤلف « مستقبل الثقافة » . انه يقول فى حديث له بجريدة «المصرى» فى ١٩٥٠/٥/٢٠ : « نحن المصريين يجب أن تتمسك بمصريتنا ، ولا ننتسب الى وطن غير مصر مهما كانت أصولنا حجازية أو سورية أو شركسية أو غيرها » ... والخطوة التالية بالطبع بعد الانفصال عن الوطن العربى ، الذى مصر قلبه وقيادته ، هى أن نصبح ذيلا لليونان فى أمم بحر الروم ! ! !

والصديق الثالث فى مجموعة الأذكياء الثلاثة الذين سخطوا على عروبتهم ، وتملقوا بتمجيد الديمقراطية الزائفة اعداءهم ، هو العالم والانسان المهذب الذى فقد توازنه أيضا فى البؤرة الضوئية للانبهار بالغرب ، والذى وضع فى لحظة قنوط كتابه الديكارتى أيضا « الاسلام وأصول الحكم » ...

لقد جهل الأصدقاء الأذكياء الثلاثة بحق شيئا فى غاية الجــدية والبساطة حــدث فى فجر التاريخ العربى الذى نقلوا صــورته عن المستشرقين ، ولم ينقلوها عن الشعب ، ولا عن تأملهم دون عجلة . لقد جهلوا ان العرب كانوا قبل الاسلام يعلمون الكثير عن « الديمقراطية اليونانية » وعن الفلسفة اليونانية ، ولكنهم عزفوا عنهما تماما لما هو أفضل منهما فى عرفهم القديم ، وما هو اسمى فى شرع اسلامهم المتكامل ... ثم جاءت تجارب الشعوب المتقدمة فى هذا العصر فاسقطت الفلسفة التجريدية اليونانية ، وأدانت ديمقراطيتها الزائفة ... كما فعل العرب تماما منذ أزمان بعيدة .... ولكنهم لا يصدقون الا اليونان !!!

* * *

٣ — الاسلام والقومية العربية

تنتقل فى عرض الدعوات القومية الى شكل آخر من أشكال الانحسار والاسترهاب امام القوى الغازية فى تصور صيغة قومية أو « صيغة حياة » للامة العربية فى معترك صراعها وجهادها عن مقوماتها وحركتها وأهدافها فنجد هذا الشكل الحاد ، والعصبى أحيانا ، فى عرض صيغة « اتحاد العالم الاسلامى » بدلا من صيغة « القومية العربية » . لقد قال بهذا الرأى بعض من لا نشك فى نزاهتهم ، وحبهم لوطنهم ، مثل « أحمد عرابى » ... كما قال به أيضا بعض من لا نشك لحظة فى أنهم يخدمون بغير علم — فى كفاح الأمةالعربية ضد اسرائيل — مخطط الاستعمار ، وينفخون معه — دون أن يدروا فى أبواقه لالهاء الأمة العربية عن قضية أساسية بقضية أخرى لا يأتى دورها على الوطن العربى الا بعد هذه القضية الأساسية !

ان أصحاب النوايا السليمة ممن يقولون بهذا الاتجاه سلفا — بتأثير الدعاية الاستعمارية — يرون أن القومية العربية هى حركة بديلة للدين، ويستندون الى أن هناك دعوات قائمة بالفعل تصرح بان القومية العربية — فى مفهومها — لا تقوم على الدين ، بل انها ترفض الدين صراحة ، وتعلن بديلا له « تقدمية مادية » تلتقط أجزاءها من هنا وهناك . ولكن العين المؤمنة تستطيع أن تنفذ داخل هذه العجاجة العاصفة التى يديرها المستعمر فوق رؤوسنا بالآراء ونقائضها . فتبصر عيون المؤمنين ان الاستعمار فى تلخيص أهدافه يشجع تيارين فى وقت واحد :

١ — اسلام مجرد من العروبة

٢ — عروبة مجردة من الاسلام

* * *

وتستطيع قلوب هؤلاء المؤمنين الذين يتسرعون بالاحكام دون أن يستطلعوا ، أو أن يستكشفوا ، أو أن يحللوا الوقائع والاحداث ، أو أن يهتموا بالحاضر والمستقبل — ان يدركوا ان المستعمرين الذين لم تتغير أهدافهم على أرضنا ، وان تغيرت أدواتهم ، ووسائلهم فى الهائنا وشغلنا وتفتيتنا — لا يريدون شيئا لنا الا وينبغى أن نرى فيه الموت ، والوهن ، والضلال ، والبطلان . ومن ذلك رأيهم الذى لا يستقيم مع العقل والعلم من امكان انشاء أمة اسلامية واحدة فى هذا العصر من مجموعة هذه الأمم التى لها مجموعة أوطان ، ومجموعة لغات ، ومجموعة معتقدات كامنة أو طافية فوق اسلامها ، ومجموعة قضايا ومشكلات ليس من شأن الامة العربية ولا من قدرتها فى هذا المعترك الذى تخوضه ان تغوص فيه . هذا بينما يترتب على قيام العرب بحل مشكلاتهم ، وكسب قضاياهم المعاصرة انفتاح الطريق لبناء هذه الأمة العربية القوية التى يمكن أن تنمو بدينها واسلامها وتحقق شكلا من أشكال الاتحاد والتضامن — أجدى مما هو قائم الآن — مع هذه الشعوب الاسلامية المفككة ، والخاضعة ايضا للاستعمار !

فاذا قال أحد من دعاة اتحاد العالم الاسلامى ان هذا ممكن دون الأمة العربية ، أو قبل اتحاد الأمة العربية ، فليقل لنا كيف ؟ ... وعندئذ سيجد أنه يتخبط بغير دليل ، والى غير غاية ، وقد ينفعل ببعض الخطب فيكشف عن فهم للاسلام يخرج به عن حقيقته وجوهره ! وقد يكشف عن عداء ملتهب للامة العربية ، واتهامات كاذبة وسمجة صنعها التعصب السياسى ، ونضج بها الشعور بالنقص ، والتوثب بالعدوان ، فيسفر بذلك عن عنصرية تفوقية ، طورانية أو شاهانية ، لاولئك الذين اغتصبوا زادنا ، وعرق كادحينا ، ورطب حدائقنا ، أحقابا طويلة ، عاثوا فيها على أرضنا باسم الاسلام — وهم عنه بعداء — عاثوا بالطول وبالعرض ، مماليك وقرامطة ، وباطنية وعبيدية ، فلم يستطع عذب النيل ولا فرات الفرات أن يغسلهم عن عدوانهم ، وسوء طويتهم ... فكيف يصوغ لنا هؤلاء فكر حياتنا وهم يبصرون جهدنا وجهادنا للتحرر من مخالب

الصهيونية الناشبة باسرائيل ثم لا يتحركون ! ... كيف نسمع لهم ... وكيف نصدقهم ! ؟

ولكن يبقى الخوف من أن تكون دعوة القومية العربية بعيدة عن الدين ، أو كما هى فى دعوة بعض الاحزاب ضد الدين ... وهذا ما ينبغى عليهم أن يقفوا فى وجهه ، وأن يفتحوا السبيل بذلك الى صيغة القومية العربية التى لا تهدم المقوم الأساسى لها وهو الدين ، الدين الواحد الصحيح الذى نزل على أرضنا فى صحف ابراهيم وموسى ، وما نزل على محمد والمسيح !

كان الحكم الذى يطمئن اليه قلب المؤمن فى قضية « القومية والدين » عسيرا فى غيبة كثير من الحقائق ، وتحت تأثير الكثير والمتعمد من تيارات التدليس والتشويش . لذلك لم يكن عجيبا أن يصرح الشيخ محمد مصطفى المراغى فى حديث له باحدى الصحف عن « الوحدة العربية » بقوله : « ليس لى رأى فى الوحدة العربية ... لا اشتغل بها ... لست من أنصارها و لامن أعدائها ... »

ولكن اذا كان هذا القول مقبولا فى سمة الحياد الاخلاقى من المراغى شيخ الأزهر فى الأربعينات قبل أن يدق الاسفين الاسرائيلى فى قلب الأمة العربية ، وبالتالى قبل أن يدق فى احدى عينى الأمة الاسلامية وهو المسجد الأقصى — فكيف يكون الصراخ والاعوال مقبولا من العالم الدينى ، ووزير الأوقاف السابق الدكتور محمد البهى فى سنة ١٩٧٠ وقد شهد بأم عينيه عدوانا اسرائيليا أمريكيا على أرض العرب المؤمنين — مسلمين ومسيحيين — لم يسبق له على أرضهم مثيل ، كما شهد أن اتكاءة المسترخى غير المكترث تكاد تكون «اتفاقا» بين الدول الاسلامية غير العربية وممثليها فى مؤتمرات القمة — وهو يعلن فى بحثه المقدم للمؤتمر الاسلامى الخامس تحت عنوان « القومية كبديل عن دين الله ورسالة محمد » ان القومية التى يحاول بعض مدعى التفكير الاجتماعى من أمثال ساطع الحصرى وجورج حبش وميشيل عفلق أن يجعل كل منهم « بديلا » منها عن الاسلام ... أن هذه القومية التى يعنيها ساطع

الحصرى قومية الفاظ لغوية ، وقومية تاريخ ، لا يصور أحداث أمــة كانت لها رسالة ... وقومية جورج حبش وميشيل عفلق قومية الحاد بدين الله ... قومية تدعو الى الوثنية المادية » !!

لقد كان أقل ما يطلبه الموقف الاسلامى من هذا العالم المتحمس ضد المادية الالحادية أن يقدم شيئا أكثر فائدة من سيل الغضب ، ومن قائمة النصائح التى حفظها العامة عن ظهر قلب ، وهم ينتظرون بعــد النصائح علما ، ومع العلم قدوة ... لقد كنا — ننتظر أن يقدم الدكتور بيانا علميا شافيا يشرح فيه رأيه فى ان « التقدم العلمى والتكنولوجى لا يغنى عن الاسلام » ... كان ولا يزال واجبا عليه ان يقول لنا لايضاح هذا الشعار الذى نوافقه عليه :

١ — كيف نشأ الاسلام ... ثم كيف قامت به طليعة مؤمنة بقيادة محمد ثم بقيادة الخلفاء لتحرير الوطن العربى من الروم والفرس ؟

٢ — لماذا نشأ الدين منذ آدم ونوح وآل ابراهيم وآل عمــران على أرض العرب ؟

٣ — كيف يحلل وهن المسلمين ، وكيف يرد ذلك الى أسباب وعلل يمكن القضاء عليها فى هذا العصر ؟

٤ — أليس من وهن المسلمين احتجاب القرآن — مع وجوده — بضعف اللغة ، وكثرة التفاسير ، وكثرة المذاهب بين الشعوب الاسلامية ؟ ... فكيف يشرق القرآن — مرة أخرى — وهو فى أساسه الأعظم ثروة باللغة ، ورباطا باللغة التى يتنكر لها ؟

٥ — كيف يواجه المسلمون تحديات العصر ويتجاوزونها مسلمين وعلماء فى وقت واحد ؟

٦ — كيف يواجه المسلمون الايديولوجيات المحيطة بهم ، والتى تحاول بما تملك من قوة فى الشرق والغرب أن تستحوذ على اقتناع

شبابهم — كيف يسلحون هؤلاء الشباب ببناء فكرى يحفظ دينهم ، وقوة انطلاقهم الكاشفة لابعاد المستقبل ؟

٧ — ما هى جذور تطبيقاتنا العربية للاشتراكية فى الاسلام ، وماهى قاعدة استهدافنا للوحدة العربية فيه ؟ ... أم أن الحرية والاشتراكية والوحدة ليس لها هذه الجذور فى عمق الفكرالدينى والتطبيق الاسلامى ... فما هو تقييمه لها بمنهج العلم وليس بخطب التنفيس ! ؟

ان الدكتور العالم محمد البهى يعيب بعبارات محنقة — فى بحثه المقدم للمؤتمر الاسلامى الخامس — على الرجل الأجنبى « ساطع الحصرى » لأنه « ادعى التفكير الاجتماعى » ونادى بأعلى صوت ممكن بدعوة «القومية العربية» !... فهل ساطع الحصرى — أخطأ أم أصاب — رجل أجنبى ؟ ... ان ساطع الحصرى — كما يعلم محمد البهى — رجل مسلم الديانة ، تركى العنصر ، عراقى المولد ، سورى المواطنة ، مصرى المعايشة والانتماء ... فهل هو أجنبى لأنه تركى بالدم ؟ ... فكيف اذن يتأسس على مثل هذا الفكر الذى يرى الأتراك أجانب مفهوم سليم للاسلام يتنزه به عن النظرة العرقية ، ويقوم به تصور كالذى يعيش به البهى لأمة اسلامية واحدة تغنى عن التعب وراء أمة عربية واحدة !؟

ان نظرتنا الى ساطع الحصرى — التركى بالعرق — انه عربى ، حتى مع ضعف لسانه العربى فى النطق ، لأنه عاش يخدم فكرة الوحدة العربية أيا كان منطلقه اليها .... عاش يخدمها ، ومات وهو يخدمها ، وأثار بآرائه الخصبة فيها ، ونضالاته الجادة عنها ، ضد أعداء حقيقيين للعروبة والاسلام ، حياة نشطة لفكرة أراد المستعمرون قتلها من البداية. فهو عربى بأعماله بين العرب ، لأنه هكذا لا تختلف العروبة فى نظرتها الى « الأعمال والغايات » عن حكم الاسلام فى هذه النظرة ... ليست العروبة كمافهمها وعاشها ولم يبرأ منها محمد وأصحابه عنصرا ، وانماهى « جوهر وعرف وبيان » قام الاسلام على ركائزها ظاهرا فى قرآن عربى غير أعجمى ... هكذا لا تكون عروبة بغير دين ، ولا يصح دين بغير قدر من هذه العروبة يفيض به القرآن ... لذلك فان المخاوف التى

يتباكى وراءها من يخشون على الاسلام من القومية العربية لا ترجع الى مفهوم عرقى عند العرب وهم الذين خلطوا أنفسهم بكل الشعوب ، وبذلوا حياتهم فى مرضاة الله لكل الشعوب ، وانما ترجع الى اتهام ظالم للعرب بهذه العرقية ، والى خشية أو كراهية لوحدة العرب تتستر شعوبيتها وراء التنديد بالقومية العربية !

وأخيرا فان الدكتور العالم محمد البهى — فى كل ما اعتاد أن يهدر به من سيل غضبه على القومية العربية لا يحسن فيما نظن أن يجد جوابا على كلام ساطع الحصرى الوارد فى كتابه « أبحاث مختارة فى القومية العربية » والذى يقول فيه عامدا الى هؤلاء الذين يرفضون باسم الدين فكرة القومية :

« ... ولست أرى علاقة منطقية بين دعوة علماء المسلمين الى العمل فى سبيل الوحدة الاسلامية » وبين دعوتهم الى عدم الاشتغال بالوحدة العربية » ... اذ كيف يجوز لأحد أن يقول : يتحتم على علماء المسلمين أن يسعوا لتحقيق الوحدة بين العربى والايرانى والهندى والتركى ، ولا يجوز لهم أن يشتغلوا بتحقيق الوحدة بين الشامى والمصرى والحجازى ؟ ... كيف يمكن لأحد أن يأمل بتكوين وحدة من البلاد الاسلامية التى تتكلم بلغات مختلفة ، دون تكوين وحدة من البلاد التى تتكلم بلغة واحدة ، ولاسيما التى تتكلم بلغة القرآن ؟

انى أعتقد بأن الذين يتجهون بتفكيرهم الى الوحدة التى يتطلبها القرآن — حسب تعبير بعض علماء الدين — لا يستطيعون أن يهملوا الوحدة العربية دون أن يناقضوا أنفسهم ، فيترتب عليهم أن يشتغلوا بالوحدة العربية ، فى سبيل الديانة الاسلامية ، ان لم يكن فى سبيل العزة القومية » .

ان فى هذا ، وفى كل ما سبق من المسائل المطروحة تحت نظر الدكتور البهى ، ومن يرى رأيه معه فى النظرة المستريبة الى القومية العربية لمجالا لفكره المتقد ، يكشف فيه ويسجل ، مدى عمره المبارك المديد .

٤ — قومية بغير دين

وحول النشاط الاستعماري المريب قبيل سقوط الدولة العثمانية فى عواصم الوطن العــربى نشأت أفكار جــديدة فى ندوات ومجالس المبعوثين العائدين من جامعات الغرب . وظلت الأفكار والآراء تتشكل وتتغير بسرعة وراء سرعة الاحداث نفسها ، ومع اليقظة الجارفة للشعب العربى ، رغم قواه المنزوفة . كان التركيز الاستعمارى والصــهيونى كما ذكرت ينصب على ضرورة الفصل بين العروبة والاسلام فى أى فكر أصيل قد ينشأ على أرض المنطقة لمواجهــة خطط الاستعماريين الجاهزة لتمزيق الوطن العربى منذ نادى نابليون اليهود لدخول فلسطين وراء قواته سنة ١٧٩٩ !

وكان الاهتمام الأكبر بين دهاة الاستعماريين موجهــا الى حقن الشعوب العربية ــ كتكنيك مبتكر ــ بامصال مضادة للقومية العربية ، هى عبارة عن أشكال متنوعة من « القوميات الضعيفة » ، المزروعة فى المختبر الاستعمارى ، حتى اذا جاءت القومية العربية الصحيحة على رأس ثورة شعبية وجدت الشعوب ، أو على الأقل وجدت أدمغة بعض المثقفين ــ مهيأة لمقاومتهــا والاعتراض عليهــا ! ... وهكذا نصب الاستعماريون بالتسلل الفكرى ، والتمويه الثقافى ، وتربية الميليشيا الخاصة فى كل ركن ، وتحت كل حجر أعجب مسرح رومانى تدور فوقه وتتحرك...مجاميع عديدةمن العرب يصيح كل منها فى وجه الآخر بدون انقطاع ... فبينما ترى مجموعة تهتف « قومية عربية ! » ... ترد الأخرى وهى تصرخ « أين الدين ؟ » فاذا رفعت مجموعة ثالثــة صوتها تقول « وحدة اسلامية ! » هتفت فى وجهها المجموعة الأولى « أين الأمة العربية ؟ » ... هذا بينما يصيح غيرهم فى نغم حلقات الذكر « أممية ... أممية ! » بلا انقطاع ... وبينما يصفق آخرون على نغمة أخرى راقصة وهم ينشــدون « اقليمية ... اقليمية ! » ... الخ الخ

* * *

بينما يمضى الوقت ، ويختلس العدو الغفلات ، وهو يسرق القومية من روادها ، ويعطل الدين بين يدى دعاته ، لولا اليقظة المتصاعدة فى ثورة الشعب ، وكفاح الشعب ...

من هذه الدعوات التى كانت جديرة بأن تشل نشاط الشعور القومى فى وجدان الأمة ، وتضلل الاستهداف الوحدوى فى انجازاتها ما هو منسوب — فى روايات كثيرة كرواية الدكتور محمد البهى السابقة — الى الفكر الذى طرحه فى الاربعينات والخمسينات ميشيل عفلق ... ومن اف افه ! ... لقد نشأ حزب البعث القديم على ما كان يسمى بالعفلقيات ، وربما كان الكثير من شباب اليوم الذين نخاطبهم لا يدرون الكثير عن المناخ الذى نشأت فيه هذه الأفكار ، ومدى امكانية تسربها وتشكلها وتطورها فى الوقت الحاضر ، بعد أن وقع الصدام المبيت ، ودقت اسرائيل على أرضنا طبول حربها بقبضات أمريكا التى تتدخل فى أفكارنا بطريق مباشر منذ سنة ١٨٢٠ * .

ان نشأة حزب البعث — قبل تطوراته — لم توضع حتى اليوم فى كتاب ولا يكاد يطلع على حقائقها الا القليل ، مع أهمية دراسة أفكار هذا الحزب ، الحاكم الآن فى سورية ، والعراق ، وتحليل تطوراته فى اتجاه مانرجوه من تذاوب وسقوط الخلافات بين أدوات وقيادات الثورة العربية ، هذه الخلافات التى يمكن اذابتها حتى لا تعوق طفرة الفكر العربى الثورى الى مستوى الصراع التاريخى والحضارى مع الاستعمار واسرائيل ...

أروى — بايجاز شديد — من مذكرات سنة ١٩٤٣ « حدثنى الأخ السورى «محمد الكسار» — مسلم سنى ، مدير تعليم سابق ، الآن سفير

---

* وصلت البعثة البرسبتارية الامريكية الى بيروت سنة ١٨٢٠ وفى سنة ١٨٣٤ انشأت بها مطبعة ، وبحلول عام ١٨٦٠ انشأت هذه البعثة ٣٣ مدرسة يؤمها ١٠٠٠ تلميذ عربى ، وفى سنة ١٨٦٦ انشأت الجامعة الامريكية ببيروت ، ويرى الامريكان انهم قاموا من طريق مدارسهم بالقسط الاوفر من احياء اللغة العربية بعد أن جمدتها اللغة التركية ثلاثة قرون فكأنهم من غير قصد كانوا أول باعث للقومية العربية !! . . . والحقيقة ان البعثة البرسبتارية التى هى احياء لذكرى فرقة القاتلين من رجال الدين المشيخيين البرسبتاريين Presbyterian والمماثلة للاسبتارية Hospitallers كانت فى ذلك التاريخ هى الرمز الامريكى لبداية غزو العرب غزوا فكريا صليبيا !!

سوريا فى الهند — قال : « فى نوفمبر سنة ١٩٣٨ كان لقاء بينى وبين زكى الارسوزى — علوى ، معلم ، ليسانس آداب من باريس — وكان ذلك على مقهى بميدان المرجة بدمشق . ومر ميشيل عفلق — وهو مسيحى ، معلم ، ليسانس تاريخ من باريس — ثم دخل المقهى وجلس بعيدا . سألت الارسوزى عنه فقال « التقيت به فى باريس سنة ١٩٢٦ واذا أردت رأيى فيه فهو أجبن من حلزونة « قوقعة » تدخل بالخوف ، وتخرج بالأمن » قلت للارسوزى هل هناك مانع من لقائكم ؟ قال — لا أنتقل اليه ! ... قلت — أنا أذهب وآتى به ! ...

وذهبت الى عفلق ، وبعد حديث قصير سألته عن رأيه فى الارسوزى فقال « ان العبقرية هى صفات زكى الارسوزى ، ولكن رأيه عنى سيء جدا » قال هذا بدون انفعال ... قلت له « هل هناك ما يمنع من لقائك به » قال لا ... وقمنا واجتمع عفلق بالارسوزى ... وفى هذا الاجتماع — بعد حديث عن الأحوال السياسية وكان هاشم الاتاسى فى الحكم — تم الاتفاق على أن يسبق العمل السياسى عمل ثقافى يهدف الى نشر الوعى القومى فى صفوف الشعب ، وفى صفوف الطلاب بخاصة ! »

ويستأنف محمد الكسار حديثه معى فيقول « وفى اليوم التالى قابلت زكى الارسوزى منفردا على مقهى الكمال بالمرجة فقال لى « يا محمد ... اجتماع الامس أثمر » ثم أخرج من جيبه ورقة بها أسماء سبعة أو ثمانية أسماء . قال زكى — اتفقنا على تشكيل لجنة ثقافية من أجل بث الوعى القومى فى سورية . كان الاسم الأول فى القائمة زكى الارسوزى ، والثانى ميشيل عفلق ... قال الكسار — كيف يستطيع من وصفته بالجبن أن يسير معك ويخطو خطواتك الجريئة فى الحقل القومى ... فلم يجب الارسوزى على الملاحظة ، ثم ذكر الاسم الثالث فى القائمة وهو « صلاح البيطار » ... مدرس طبيعة بالتعليم الثانوى .

قلت : ان صلاح فى التعبير الرياضى « تاميشيل » أى تابع ميشيل. ميشيل سيسير معك ستة أشهر ثم يتوقف ، وبعد ذلك سيتوقف فورا

صلاح البيطار ... ! ثم يتوجه الكسار بالحديث لى فيقول « كانت السلطة الفرنسية فى سورية فى ذلك الوقت شبه غاضبة على ميشيل وصلاح لتخلق منهم زعماء !! وكان ميشيل معروفا لهم فى باريس بأن اهتماماته « انسانية » "humanist" مع ميول شيوعية غامضة !

ويستأنف محمد الكسار روايته فيقول : « والرابع فى القائمة التى حملها الارسوزى كان الدكتور عدنان الاتاسى ، دكتور حقوق ، وأستاذ فى الجامعة ، وابن رئيس الجمهورية آنذاك هاشم الاتاسى ، وكان مع الارسوزى فى « عصبة العمل القومى » التى تنادى بالقومية العربية ... قلت للارسوزى : ان عدنان الاتاسى سيبقى دائما وقبل كل شىء هو عدنان الاتاسى ، أى سيبقى الطبقى المخلص لطبقته وأسرته !

وكان الخامس فى القائمة الدكتور نظيم الموصلى ، دكتور فى الجغرافيا ومدرس فى الثانوى ، ورأيى فيه عندما سمعت اسمه انه ضائع وممزق بين كل من الشباب الوطنى فى حمص وبين الشيوعيين !

والاسم السادس فى القائمة « شاكر العاصى » مدرس كيمياء ، أرسله شكرى القوتلى على نفقته الخاصة لدراسة الاقتصاد فى أمريكا ، وبعد ذلك انشق على القوتلى زعيم الكتلة الوطنية وانضم الى حزب الشعب الذى يرأسه رشدى الكخيا . قلت للارسوزى تعليقا على هذا الاسم « ان هذا الفارغ ، المتصنع للانضباط ، الذى يبدو كأنه ابتلع مدفعا كيف تظنه يخلص لك وهو بعد لم يخلص للقوتلى ... ؟ »

ويستأنف محمد الكسار حديثه لى فيقول « والاسم السابع فى القائمة كان « ميشيل قزمه » رجل المخابرات الانجليزية ، نشأ فى الارجنتين ، ويتردد بينها وبين البرازيل حتى الآن يخطب بالاسبانيولية كأهلها .. وكان «قزمه» قد وصل الى سورية ليخطط كما اعتقدت لانشاء حزب قومى يتحرك بعقول غربية ويتكلم بأصوات عربية . لقد كانت لهذا «القزمة» عين نفاذة غير ودية ... وكان قلقه وحذره يبدوان بشكل ظاهر ... وما كاد يصل الى سورية حينذاك حتى اجتمع بكل شباب

دمشق ... قال الارسوزى معلقا عليه : ان قزمة مثل الاصلع الذى يخفى عنك صلعته بأن يعطيك قفاه !

الاسم الثامن والأخير هو اسم السيدة زوج « ميشيل قزمة » ، كانت تعمل مربية للامير العراقى فيصل غازى ... اسمها «اليس قندلفت» قلت للارسوزى — أنا لا أعرف عنها شيئا ... قال الارسوزى — هى أكثرهم ثقافة ، انها معلمة ... ، وهى سورية الأصل » .

انتهى كلام الكسار ... فماذا تم بعد تأليف هذه اللجنة ... بعد ستة أشهر توقفت عن العمل ، وعاد الارسوزى فى طفولته وعبقريته يجلس فى مقهى الكمال أو السلوى ليتحلق حوله بقايا رفاقه فى عصبة العمل القومى ، بينما أخذ ميشيل عفلق يتحرك وينشط مع فريقه ، ويبث دعايته من أفكار زكى الارسوزى الذى يرى أن « عبقرية الامة العربية فى لسانها » ... وعندما قامت حركة رشيد عالى الكيلانى فى العراق سنة ١٩٤١ جمع عفلق من التف حوله من الطلاب فى أول عمل سياسى قام به تحت اسم « نصرة العراق » ، فلما فشلت الحركة عادوا وتكتلوا من جديد وأطلقوا على أنفسهم اسم « حزب الاحياء العربى » ... ولكن الارسوزيين كانوا فى سنة ١٩٤٢ قد بدأوا يطلقون على أنفسهم اسم « الحزب القومى العربى » ويصدرون رسائل باسم هذا الحزب تحت عنوان « البعث العربى » ... عند ذلك جمع ميشيل عفلق جماعته وقال لهم « لقد عبر الأرسوزيون عن المعنى الذى نريده أفضل منا وهو « البعث العربى » فلابد أن نأخذ هذا الاسم « وهكذا اقتبسوا « البعث » اسما لحزبهم من الحلقة الارسوزية التى جعلت البعث عنوانا على حركة وليس اسما لحزب .

ثم مضى عفلق بعد ذلك وقد تناسى فى التيار القومى الجديد شعارات ذلك الداعية « الانسانى » القديم ، القادم من باريس بميول شيوعية غامضة ، وأخذ يخطب الجماهير فى الموالد النبوية ، ويستعمل الاصطلاحات العربية !! ... الى أن بدأ الحزب كتنظيم سياسى سنة ١٩٤٧ ... !

هذا قدر مهم من التاريخ غير المعلن عن لحظات النشأة الأولى لما صار بعد ذلك حزب البعث فى أطوار متلاحقة ، ذهب فيها وانتهى سياسيا عفلق والبيطار ... ثم جاءت الثورة العربية فى مصر ، وفى الأقطار العربية المجاورة ، علامة بين العلامات على أن عطاء هذه الأمة لحياتها أكبر مما تنزفه جراحها ، وحقيقتها أعظم مما يعرفه أعداؤها ، وانها فى دور اعادة التكوين ، وتعبئة القوى ، وترتيب الأفكار قادرة على أن تعرف طريقها ، وتحدد غايتها ، وتنمى فكرتها ، مهما بدا فى لحظة ما أن عقباتها أكبر من قدرتها ، وان أمانيها أعظم من ارادتها ، وان أعداءها ، والطامعين فيها ، والمستخفين بها ، قد أحاطوا بها من كل مكان .!

ان خطوة بعيدة الى الأمام قد خطاها الفكر العربى بعد أن انتزع البعض من المثقفين نفسه من وصاية الفكر الاستعمارى ومن توجيهاته... ففى سنة ١٩٥٧ صدر عن دار الثقافة فى بيروت كتاب عن « معنى القومية العربية » للدكتور جورج حنا ، يشير رغم فكرة المؤلف المادية، وتحفظاته الكثيرة على الدين الى أن احدى الخاصيات التى تؤلف المعنى القومى هى « التجانس فى العقلية والروحية والنظرة الى الكون فى شعوب القومية الواحدة » وهو يرى أنه « مع وجود فوارق غير قليلة فى عقلية الشعوب العربية وروحيتها ونظرتها الى الكون ، الا أن من يتعمق فى فحص هذه الفوارق فحصا مجهريا لابد أن يصل الى أن هذه الفوارق ليست ناتجة عن عوامل داخلية جذرية فى الوجود العربى، بل ناتجة عن عوامل خارجة عن هذا الوجود بعثتها فيه — وما زالت تبعثها — السياسة الاستعمارية » .

اذن فمع ما تقوم به من المقاومة الجادة للنفوذ الاستعمارى ، والتحرر من الثقافات الاستعمارية المشبوهة ، والمواجهة الفعلية للبقاء العسكرى الاستعمارى على الأرض العربية تبدو هذه الفوارق العقلية فى طريق الزوال ، وتبدو ارهاصات عصر الوحدة الكاملة على أفق الشروق !

٥ — القوميات الاوربية

من المحقق أن المصطلح السياسى « القومية » دخل الوطن العربى أول ما دخل فى أواخر القرن التاسع عشر بمفهوم غربى . ويرجع الى ذلك هذا القدر الكبير من البلبلة التى أحاطت بمفاهيم القوميـــة فى بلادنا . لقد كان من المآسى العقلية أن ترجع أجزاء الأمة العربية لكى تتوحد الى تجربة القوميات الاوربية فى القرن التاسع عشر لتأخذ عن أولئك الذين جزأوها واغتصبوا أرضها فى ذلك القرن علما تتوحد به ، وتجربة تستهدى بها الى وحدتها ، فتبقى بذلك مشلولة الحركة فى هذا القيد الذى تطوعت بوضعه حول أفكارها ، تحجل به بعيدا عن المصدر الحقيقى لقوميتها ، وخصائص هذه القومية ، التى عرفتها فى تاريخها الطويل ، لفظا ومعنى ، قبل أوروبا بعشرات القرون !

قبل أن تتحدث عن نشأة القوميات الاوربية ، التى يضعها أكثر المؤلفين العرب فى القومية رائدا لهم ومثالا يجب أن نذكر التواريخ الآتية التى تسجل الأحداث الفاجعة فى الوطن العربى خلال القـــرن التاسع عشر ، عندما كانت تنشأ القوميات الأوربية على أساس انتصار حكومات الطبقات الرأسمالية الاستعمارية الجـــديدة ، وعندما كانت الحكومات القومية الممثلة لهذه الطبقات الاستعمارية ترسل جيوشـــها لاستعمار الوطن العربى جزءا بعد آخر !

* فى سنة ١٧٩٩ بدأ نابليون محاولته لغـــزو مصر ، وعندما حاول غزو الشام أصدر بيانا طائشا فضح به اختمار الفكر الصهيونى فى عقل أوروبا عندما استحث يهود أوروبا للعودة الى فلسطين !

* فى ١٨٠٠ أجابت انجلترا على هذه المبادرة النابليونية فأنشأت فى مسقط بعمان على الساحل الشرقى للجزيرة العربية مكتبا لشركة الهند الشرقية الاستعمارية .

* فى ١٨٠٢ استولت انجلترا على ميناء عدن وتسللت الى جنوبى الجزيرة .
* فى ١٨٣٠ استولت فرنسا على الجزائر .
* فى ١٨٨١ استولت فرنسا أيضا على تونس .
* فى ١٨٨٢ احتلت انجلترا مصر متذرعة بحماية الخديو توفيق بعد هزيمة عرابى فى التل الكبير .
* فى ١٨٩٩ احتلت انجلترا السودان بعد اخماد ثورة المهدى .
* فى ١٩١١ ادعت ايطاليا أن لها حقوقا فى ليبيا من أيام الرومان !
* فى ١٩١٤ احتلت انجلترا العراق .
* فى ١٩١٧ احتلت انجلترا فلسطين وأصدرت على الفور وعد بلفور لصالح توطين اليهود بالقوة فى هذه الأرض العربية .
* فى ١٩٢٠ استولت فرنسا على سوريا ولبنان بعد استقلالهما عن العثمانيين فى أكتوبر سنة ١٩١٨ وكان ذلك بعد واقعة ميسلون الشهيرة ..

كانت أوروبا اذن فى القرن التاسع عشر تعيد تشكيل نظامها السياسى على أساس « قوميات عدوانية » غير انسانية وغير شعبية وغير جماعية.. قوميات يتجسد وجودها فى البحث عن أسواق جديدة ، وعبيد جدد ، بقوة السلاح ، وتحت شعار جميل « المسيحية والتكنيك » أى « المحبة والتقدم » ! !

وكان ضعف العرب والمسلمين واضحا لهذه الدول الرأسمالية الاستعمارية دون أى أقنعة ، وكان مؤرخوهم وكتابهم لا يخفون شماتتهم لهذا الضعف ، ويستعجلون تنفيذ الخطط الموضوعة لتمزيق أرض العالم الملون وفى مقدمتها أرض العرب التى تم بشأنها تحالف خاص بين الصهيونية والاستعمار بقيادة الانجليز أول الأمر ...

كتب « جورج كيرك » المؤرخ الانجليزى الوثيق الاتصال بالدوائر الاستعمارية يقول فى كتابه « تاريخ الشرق الأوسط » فى حوادث ما بين ١٨٠٠ و١٩١٧ أى تاريخ احتلال الانجليز لفلسطين ، وبداية ظهور « الوعد الاستعمارى » .

« ان الحضارة الاسلامية التى كانت يوما ما تفوق بمراحل شاسعة أرقى ما بلغته أوروبا فى عصورها المظلمة أصبحت فى أوائل القرن التاسع عشر أثرا بعد عين » .

نلاحظ بسهولة أسلوب المغالطة الى حد الوقاحة فى قوله « فى عصورها المظلمة » ثم رنة الشماتة والفرح الوحشى داخل هذه الكلمات القليلة ذات المغزى !

ومن جهة أخرى يقول المؤرخ الكندى الأصل « جفرى براون » فى كتابه « الحضارة الأوربية فى القرن التاسع عشر » وهو يشرح هذه الوثبة الاستعمارية التى انطلقت من احتشاد قومى ، وتعبئة صناعية ، وتنظيم احتكارى :

« كان الربع الأخير من القرن التاسع عشر فترة استعمار جامحة ، فقد سعت جميع الدول الكبرى وراء فتوحات جديدة . وفيما عدا حكومة النمسا والمجر خاضت جميع هذه الدول غمار حروب استعمارية بغية توسيع ممتلكاتها فى القارات الأخرى . وفى مدى جيل واحد أصبح خمس مساحة أراضى الكرة الأرضية وعشر سكانها داخلا تحت كنف ممتلكات الغزاة الأوربيين ، وهذه سرعة فى التوسع الاستعمارى فريدة التاريخ . وكان ذلك ذروة قرون من التوسع عبر البحار . وما أن حلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت الحضارة الأوربية تبسط ظلها على جميع أرجاء المعمورة . وقد لخص جوزيف تشمبرلين تطور الموقف بجملة واحدة اذ قال « لقد زال يوم الأمم الصغيرة من الوجود وأتى يوم الامبراطوريات !! ... »

قامت القوميات فى أوروبا على أساس سقوط أشـكال الدول القديمة بمن عليها من الملوك والكهنة ، وقيام أشكال جـديدة من الحكومات التى يتولى السلطة بها باسم الشعوب المستثارة للقـوة والغنى ملوك للصناعة ، وكهنة للديموقراطية المزيفـة . فى نظام هذه الحكومات كانت الملكية الخاصة مقدسة ، وكانت التعقيدات القانونية وسيلة لقيام الشركات الـكبرى بتحقيق الأرباح الطائلة على حساب مصالح عامة الناس . وكان نظام « مجلس الادارة » يسمح بتركيز السلطة فى يد بضعة أشخاص يعملون فى الخفاء حتى باسمائهم عن مئات الآلاف من المساهمين الذين لا يعرفون هل تستثمر قيمة سنداتهم فى قتل الافريقيين ، واختطاف العبيد الى أمريكا الشمالية ، أو فى ادارة منجم بأمريكا الجنوبية بابتزاز خلو من الشفقة والرحمة !! ونشأ بسبب هـذه المشروعات الكبرى عبر القارات نفوذ متزايد للمصارف التى يملكها اليهود ، والتى يدخلون من طريقها لاحتلال مقاعـد هامة فى « مجالس ادارات » الشركات الكبرى بسبب نظام الاقراض . وبذلك أصبح اليهود المندسون داخل هذه الشركات فى العواصم الكبرى : لندن وبرلين وباريس ونيويورك ذوى تأثير مباشر وغير مباشر على كثير من الشئون السياسية ، مع قدرتهم على توجيه الاحداث الجارية والهامة دون أن يدرى بذلك رجل الشارع ... الذى يمول مشروعاتهم !

لقد كان مفهوم « الأمة » مجهولا فى أوروبا قبل النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فاقدم التعاريف التى يذكرها الأوربيون عن الأمة هو ماجاء فى موسوعة ديدروودى لامبير فى أواسط القرن الثامن عشر، ففيها أن الأمة « هى اسم جمع يستعمل للدلالة على كمية كبيرة من الناس الذين يعيشون على قطعة من الأرض داخل حدود معينة ويخضعون لحكومة معينة » ان هذا التعريف الركيك كاف للدلالة على البداية الضعيفة التى بدأ بها الشعور القومى فى أوروبا فى وقت متأخر جدا هو القرن التاسع عشر .

لقد كان الخضوع للدولة هو الشائع خلال أحقاب سحيقة ، لذلك

فان تعريف الدولة فى هذه الموسوعة يكاد يتشابه مع تعريف الأمـة — تقول الموسوعة عن الدولة « هى اسم جنس يدل على جماعة من الناس يعيشون معا تحت حكومة واحدة فى حالة سعادة أو شقاء ! »

طبعا كانوا يعيشون فى حالة شقاء تحت أقدام أباطرتهم ، حتى جاء عصر الآلات فساروا وراء أمـراء الاقطاع الصـناعى ، ولصـوص الاحتكارات ، لينقلوا الشقاء والأحزان والتخلف الى غيرهم ... الينا نحن فى آسية وأفريقية !!

ثم كان أول تعريف علمى للأمة بعد ذلك من وضع مانشينى الايطالى الأستاذ بجامعة تورينو الذى أعلنه فى سنة ١٨٥١ أى بعد قرن تقريبا من تدوين موسوعة ديدرو — ودالامبير .

قال مانشينى « الأمة مجتمع طبيعى من البشر ، يرتبط بعضه ببعض بوحدة الأرض ، والأصل ، والعادات ، واللغة ، من جراء الاشتراك فى الحياة والشعور الاجتماعى »

حول الجزء الأساسى من هذا التعريف وهو « مجتمع طبيعى من البشر » قامت مدارس أوربية كثيرة تحدد العنصر الأهم ، والمقـوم الأساسى لتكوين هذا « التفاعل الطبيعى » فى جماعة ما من البشر محدودة بارض حتى تصبح أمة ، ومن أهمها :

* المدرسة الألمانية وترى أن المقوم الأساسى هو اللغة ولذلك اهتم رواد القومية الألمانية مثل فيخته ببعث اللغة الالمانية .

* المدرسة الفرنسية وترى أن المقوم الأساسى هو « مشيئة المعيشة المشتركة » التى تجمعها أمجاد وآلام الماضى ، وتحركها الى الأمام آمال وأهداف المستقبل ... وصاحب هذه النظرية تفصيلا هـو ارنست ريناان سنة ١٨٨٢ ، وقد أيدها لصالح الاستعمار الفرنسى « هنرى هاوتزر » سنة ١٩١٦ فى كتابه « مبدأ القوميات » .

* النظرية الروسية الماركسية ، وترى أن من أهم المقومات الاساسية « وحدة الحياة الاقتصادية » وقد عرفت هذه النظرية باسم واضعها « ستالين » الذى نشرها فى مقال له سنة ١٩١٣ شرح فيه ان الأمة تنشأ من أربع روابط هى وحدة الأرض ، واللغة والثقافة المشتركة، وأهمها الحياة الاقتصادية ...

لم يكد يمضى وقت طويل حتى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، الذى هو قرن التحولات الكبرى فى أوروبا ، هذه النظرة النقدية الصحيحة الى هذا « الشكل القومى » الذى يضغط عن طريق الاندفاع بالتقدم الصناعى ، والتزايد فى اعداد «اجراء» الصناعة فى اتجاه استعمار الشعوب الأخرى ، وسرقة مواردها تحت شعار كاذب « المسيحية والتكنولوجيا والمشاركة فى خيرات العلم !! » ... لقد ظهرت الاشتراكية فى هـذا القرن تحاول أن تغير اتجاه سفينة الحضـارة الغربية ، وتهدىء من ضجيجها ، وتعيد النظر فى كل شعاراتها الكاذبة التى أخذت تنفثها فى الفضاء ، وتخفى فى دخانها مصالح الشعوب الحقيقية ، وحاجة الجماهير العاملة التى تؤدى العمل الى أن ترفع النير عنها فى المجتمع الرأسمالى، وان تملك السلطة التى هى حقها ، وان تقود السياسة والمجتمع ، وكان من بين هذه الشعارات المتعددة المعانى مبدأ القومية ...

بدخول الاشتراكية مجال التأثير فى مفهوم المصطلحات السياسية احتفظت كلمة قومية « ناسيونالزم » Nationalism بمفهومها الأول الذى ظهرت به مع نشوء الأمم والقوميات فى أوروبا وهو«وطنية الدولة » أو « الدولة الوطنية » التى تعمل فى اتجاه طبقى « يمينى » متطرف ، مثير للنعرة الاستعمارية من أجل انشاء الامبراطوريات التى تهيمن عليها هـذه الدول ، أى شركات الاحتكار فيها ، أى الفاشية الرأسمالية فى أشكالها المتنوعة .

وعلى هذا فقد كان لابد للاجتماعيين من التوصل الى كلمة أخرى فى معنى القومية لا تحمل آثار تلك الدلالة الأولى السيئة على الرجعيـة

والطبقيةوالاستعمار ، وعلىمشروعاتالابتزاز الكبرى فى أنحاء الأرض فكانت هذه الكلمة المطولة هى « ناسيوناليتارزم » Nationalitarism وبذلك أصبح المؤمن بالقومية — غير العدوانية — قوميــة الشعب الطبيعى هو الناسيوناليتارى ، بينما القومى الاستعمارى العدوانى هو الناسيونالى !

الناسيونالية القــديمة اذن أصبحت تعنى بوضوح العــداء لمبدأ القوميات ذات الانفتاح الانسانى ، والعداء لمبدأ الحريات الديمقراطية « الديمولبرالية » . ولا يعنى التطور فى مفهوم الكلمــة انه تطور فى مفهوم القومية نفسها ، بل هو تصحيح لتعريفها من وجهة نظر الشعوب!



٦ — القومية العربية الحديثة

كان طبيعيا ان المبدأ القومي لا يكاد يطل على الأفق العربى محمولا من الغرب على أجنحة ثوار ، وأحرار ، ومرتزقة ، ومثقفين لا لون لهم ، ومثقفين لهم مائة لون ، وعلماء «آكاديميين» يشتغلون بالسياسة ولكنهم لا يفهمون فى السياسة — حتى يتمزق هذا « المبدأ الطريف » فى الأيدى والقبضات التى امتدت الى انتزاعه ، وتشكيله ، والاستئثار به !

لقد كان حماس الجميع — منذ كانت هناك حرب تحررية سافرة بيننا وبين الانجليز والفرنسيين — ان يعرفوا من المصادر الغربية ما هو تاريخ هذه القومية ؟ ما هو كنهها ؟ ما هى النزعات والخلافات العلمية التى حدثت بسببها ؟ ولكن قليلون جدا أولئك الذين اهتموا بمفهوم كلمة « العربية » عندما نضيفها الى القومية ! .. لقد كانت هذه هى المشكلة الكبرى . ذلك لأن مفهوم « القومية » اذا كان واحدا فى كل الحالات مثل « الماء » فان « الأمم » هى مثل « البذور » فى التربة تحمل خصائصها المتنوعة التى يظهرها الماء عندما يحتويها . ان القومية اذا كانت هى الشخصية العامة المميزة للأمم بما يتوفر لأفرادها من روابط مختلفة فان هذه الشخصية تختلف فى أمة عنها فى أمة أخرى ، وذلك باختلاف هذه الروابط ودرجتها وجذورها ، أى باختلاف عمقها ونشاطها ونضجها فى التاريخ . لهذا فان القومية البولونية تختلف مثلا عن القومية الاسبانية ، وهما معا — فى قارة واحدة — يختلفان عن « القومية اليوغوسلافية » و « القومية الانجليزية » ، وبالتأكيد فان هذه القوميات جميعها تختلف عما يحق لنا أن نسميه بالقومية العربية!

ان أحدا فيما أعلم — حتى ولا ساطع الحصرى — قد اهتم بتقصى المعنى القومى الخاص فى جذور الروابط الأساسية فى مجال « قومية عربية » وذلك اكتفاء بمراجعة خريطة الفكر الغربى عن القوميات على واقع عربى غير غربى ، وبذلك كانت النتيجة اننا فهمنا « القومية

العربية » بأشكال خلافاتنا المتعددة ، وكان المتوقع أن يذوب قدر كبير من هذه الخلافات من خلال فهمنا المشترك ، والحتمى ، لكلمة « عربية» حين تضاف بكل الخصائص والسمات والتاريخ الى المبدأ القومى !

ان ساطع الحصرى الذى يعد بحق أكثر الدعاة للقومية العربية جلدا واستيعابا ونضالا عنها فى القرن العشرين يرى فى تعريف الامة ــ جريا على النمط الغربى ، وبعد أن انتقد فى حرص ومعاناة جميع التعاريف الأخرى أن « أس الأساس فى تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة ، ووحدة التاريخ ، لانهما يعملان على وحدة المشاعر والمنازع ، ووحدة الآلام والآمال ، ووحدة الثقافة ... »

ثم يقول موضحا وجهة نظره ، وكاشفا عن موقفه من وجهات النظر الأخرى « انه لا الدين ، ولا الدولة ، ولا الحياة الاقتصادية المشتركة تدخل بين مقومات الأمة الأساسية . كذلك ولا الرقعة الجغرافية أى الأرض ... » !

ان من حق الكثيرين ان يتساءلوا عن مدى الصحة والجدية فى مثل هـذا التعريف ، الذى انتهى اليه فكر رجـل عالم ، مناضل ، خبير باكتشاف الأدلة ، وشحذها ، وتوجيهها الى مقاتل خصومه فى الرأى ، عاما بعد عام طوال حياته المديدة التى أنفقها وباعها لهذه القضـية وحدها ، قضية القومية العربية ... ان ساطع الحصرى قد أثرى المكتبة العربية الحديثة ، وهو يزود فكر الشباب المعاصرين بكتبه ومحاولاته حول هذه القضية التى هى احدى القضايا الكبرى فى جهادنا المعاصر ، ومع ذلك فانه من حقنا أن نقول انه أخطأ ، ومن حقه علينا ــ يرحمه الله ــ ان لا نجعل خطأه طرفا فى معادلة اتهام له بسوء القصد ، فان خطأ ساطع الحصرى ، التركى الأصـل ــ الذى لم يكن يحسن النطـق بالعربية ــ هو تأكيد لصحة رأيه فى اللغة من حيث انها المقوم الأساسى فى تكوين الأمة ، وتأكيد أيضا لعجزه عن أن يفهم ما وراء اللغة العربية بالذات من انها جهاز صوتى مهمته الأساسية بناء العقيـدة ، وليس جهازا مهمته فى بناء الامة ملء الفراغ بين أبنائها بالفراغ !

ان المشكلة الأساسية التى سدت الطريق على عبقرية الحصرى هى انه قد حدث بعد ظهور الاسلام أن بعض الجماعات استعربت دون أن تعتنق الاسلام ، كما أن بعض الجماعات اعتنقت الاسـلام دون ان تستعرب . ويرى ساطع الحصرى أن هاتين الظاهرتين معا تمنعان وجود قاعدة عامة تقول ان الدين واللغة هما من مقومات تكوين الأمة العربية، لأن الجماعات التى استعربت ولم تعتنق الاسلام تدخل مفهوم القومية من جانب اللغة ولا تدخله من جانب الدين ..

وهذه النتيجة التى يتوصل اليها الحصرى خاطئة تماما بالنسـبة لظروف الأمة العربية وان كان من الممكن أن تكون صحيحة بالنسبة لظروف أمم أخرى ...

أولا عن هذه الجماعات التى يقول انها استعربت بظهور الاسلام ، ويعنى بها مصر والعراق والشام فهـذه الجماعات عربية أساسا — فى أصول اللغة وأصول العقيدة وأصول الجنس — قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام صححت هذه الجماعات لغتها المتحللة على طور من أطوار اللغة حى وخصب ومشع برسالة . والا ما استطاعت هذه الشعوب ان تنفتح سريعا الى فهم هذه الرسالة ، والى تأييد الوجود الاسلامى حتى مع الخلاف الظاهرى فى الديانة ... ان هذه الجماعات هى نفسها أولئك العرب الذين نزحوا قديما الى أحواض الأنهار قبل الاسلام ، والذين يقول عنهم ساطع الحصرى انهم قد فقدوا اتصالهم بموطنهم الأصلى أى الجزيرة بعد نزوحهم الى أحواض الأنهار العربية فى مصر والعراق، فليس غريبا أن تنبههم الصحوة الجديدة الى أصولهم ، والى لغتهم الحية التى جاءت تملأ اسماعهم ، وتذكرهم بمزاجهم العقائدى الذى هو ثمرة مشتركة بين ابناء هذا الوطن ، وفى كل العصور .

ثانيا — من الظـواهر الثابتة — التى ما كنا نظن أن فكر ساطع الحصرى اللماح يغفل عنها — ان المستعربين غير المسلمين أقرب الى فهم الاسلام ومشاكلة أهله من المسلمين غـير المستعربين ، فالغساسنة

المسيحيون فى الشام والمسيحيون القبط فى مصر ، الذين لم يشغبوا على وحدتهم القومية مع المسلمين قرونا طويلة عاشوا فى الحقيقة الى جانب وحدة اللغة والتاريخ متماسكين بذلك الجوهر الدينى الواحد فى الاسلام والمسيحية فوق كل الخلافات ، التى ان كان لها وجود فى الأسفار ، أو فى حوافظ الشيوخ والاحبار فان هذه الوحدة اللغوية والتاريخية فى سلوك العامة تجمعهم بمؤثر المكان — أى الوطن ومشاهده وخصائصه — حول محور الايمان بالاه واحد حق بيده ملكوت كل شىء وليس كمثله شىء !

لقد تبدوا هذه الظاهرة فى تديين العروبة لأبنائها أضعف من ان ترى فى هذا العصر بسبب الكثير من العوامل التى كان بعض آثارها ضعف اللغة ، وتعدد مفاهيم الدين ، وتدخل الاستعمار فى العبث باللغة والدين ، واللعب على أمانى الجماعات والفئات المختلفة لتفتيت وحدتها ، مما أضعف أثر العروبة والدين معا على سلوك المعاصرين ... ومع ذلك فان أقل قدر من النهضة اللغوية ، ونشاط حركة التعريب فى مجال التاريخ ، والمجال القومى ، يعطى آثاره فى نمو الاحساس القومى بوحدة العقيدة تحت كلمة الدين ، مع وحدة اللغة ، والارض ، والآمال ، والمصالح المشتركة ...

ان هذه الوحدة العقائدية التى تجمع بين المسلمين والمسيحيين فى مصر أقوى فى شكلها الدينى ولا شك من تلك الروابط غير الطبيعية بين أبناء وطن واحد ودين واحد يفهم فريق منهم دينه على مذهب ويفهمه الفريق الآخر على مذهب جد مختلف ، كما هو الحال فى العراق بين السنة والشيعة !

ان الاسلام والمسيحية يرجعان فى جذور الأرض العربية الى أصل واحد ، كما يرجعان فى مفهوم الكلمة العربية الى جوهر واحد ، فالوحدة بين المسلمين والمسيحيين العرب قريبة تحت أى شكل من أشكال الخلاف النظرى ، بينما يصعب ان تتصور الوحدة فى مفهوم للاسلام

يرجع به أحد المسلمين الى تطبيقات أبى بكر وعمر ، فى حين يعكس الآخر فى فهمه للاسلام فكر مانى الفارسى ومزدك وزرادشت !!

عندما كان المذهب السائد فى الأرض العربية واحدا على عهد الأمويين ظلت الوحدة قائمة ، فلما تمزق المفهوم الدينى مزقا كثيرة بالمعالجات الشعوبية لأصوله وأسسه تمزقت الوحدة مع تمزق العقيدة ، وأصبح المسلمون داخل حدود الدولة الواحدة جماعات متناحرة ، لا تمثل مع وحدة اللغة أى شكل من أشكال الوحدة القومية ، والا ما استطاع الروم والترك والمغول ان ينفذوا من أسوار الدولة الاسلامية المنيعة ، ويمزقوا ما تبقى من سلطانها السياسى ، كما حدث فى نهاية الخلافة العباسية حيث انتهى تمزق العقيدة ، وتبلبل اللغة ، الى ضياع حرية الوطن العربى ووحدته ... .

ان اختلاف الدين يمنع أيضا — فيما يؤكده الواقع خارج الوطن العربى — من قيام وحدة قومية . ان هذا ظاهر بوضوح فى الهند ، وظاهر فى كندا القلقة بين البروتستانت والكاثوليك ، وظاهر بين انجلترا وايرلندا . كما انه ظاهر فى تاريخ بولندة التى منعها مذهبها الكاثوليكى من الاندماج مع سائر السلافيين المجاورين لها . بل انه فى البلاد العلمانية والبلاد الرأسمالية المسيحية والبلاد الاشتراكية الشيوعية ، التى تقوم بها المذاهب الاجتماعية والاقتصادية مقام الأديان لا يمكن أن تتم فيها وحدة قومية بغير وحدة المذهب الاجتماعى . وذلك ان حزبا شيوعيا فى بلد رأسمالى ، أو تجمعا مضادا للشيوعية داخل مجتمع اشتراكى لا يهدأ لأحد الطرفين فيهما بال حتى يقضى على الطرف الآخر بالثورة العنيفة المسلحة ، أو بالثورة السلمية السياسية !

هذا بينما لم يمنع الاختلاف النظرى بين الاسلام والمسيحية من العودة الى أصلهما الدينى الواحد فى شكل الوحدة التى تمت أحقابا طويلة فى الوطن العربى بين المسلمين والمسيحيين ، ولو تصورنا ان هذا الخلاف كان جوهريا وليس من صنع المبتدعين فى اتجاه بعيد عن فطرة الجماهير ، ما أمكن قط تحقيق هذه الوحدة ! .

ان تعريف الأمة بالمفهوم الأوربى — الذى تجاوز عن كلمة «الدين» كمقوم أساسى من مقوماتها كان يتبع الاتجاه « العلمانى » الذى وضح تأثيره فى القرن التاسع عشر عندما احتدم النزاع بين العلماء واللاهوتيين حول المكتشفات العلمية الحديثة وما اقتضته من أشكال التقدم ، ومن انكار العوائق التى تحول دون هذا التقدم مثل القول بعصمة بعض الأشخاص مثل البابا ، وهو قول يجعل جماهير من البشر فى قبضة ارادة بشرية متغيرة وغير معصومة فى الواقع من الأخطاء . وكان تيار الاشتراكية المادية أيضا هو أحد المؤثرات نحو تجاوز كلمة الدين . بل الحقيقة ان رجال الدين الذين أصبحوا خلال العصور الوسطى «اباطرة» وشركاء فى كثير من أوزار الملوك ومظالم الأمراء قد ظلموا الدين وأخرجوه عن طبيعته ، حتى جاء الشيوعيون فأخرجوه فوق أرضهم لهذه الأسباب من مملكته .

لذلك فان عالما محنكا وشيخا من أعلام المؤرخين هو ارنولد توينبى يجلس الآن على ربوة فى لندن ، حاملا قيثارته ، محاولا بأنغام أغنية حزينة أن يذكر بنى جلدته البيضاء بخطر ما يسميه « الفراغ الروحى » على الحضارة الأوربية . انه يقول ويكرر مثل ما قاله فى كتابه « العالم والغرب » : « اذا دخلنا قلوب اليونانيين والرومان من جيل مرقص أوريليوس وجدنا أنفسنا أمام فراغ روحى تماما ، مثلنا نحن الغربيين المعاصرين . ان أولئك الفاتحين العظام اختاروا لأنفسهم طريقة حياة عالمية دنيوية ، يلعب الذكاء فيها دور القلب بوضع فلسفات تقوم مقام الأديان . ان هذه الفلسفات التى افترض فيها أنها ستحرر «الروح» لم تفعل سوى تقييد النفس بالرتابة الحزينة ... لقد خابت آمال هذه الطليعة الموجهة من اليونان والرومان ... لقد تألموا كسواهم من « الجوع الروحى » الذى كانت تشكو منه الاكثرية الانسانية آنذاك .. »

معنى هذا الكلام أن أوروبا عادت بقوة الصناعة الى طبيعتها الفلسفية الوثنية القديمة ، مع اختلاف نوع الأوثان ، أو هى أوشكت

أن تعود تماما ... ولكن الوضع فى الوطن العربى مختلف ، فثمة طبيعة قوية محسة غامرة بالضوء تفرض وقفة امام هذه القوة التى ألقت وصاياها بصوت الانسان ، قوة الله التى لا يمكن ان يتهرب أحد من مواجهتها على أرضنا ، فى لحظة ما ، أو أن يحتاج ويسعى اليها ويخاطبها فى موقف ما . هذه القوة ، هذا الالاه الذى ينشر حولنا الاحساس به ، ويبثه فى أعماقنا بنا ــ مهما تغافلنا ــ يرفض ماصنعه باسمه وباسم دينه أولئك الذين مالئوا الملوك والأباطرة ، لأنه يأمر دائما بالعدل والاحسان ، ويقيم بين أيدينا ميزانا واحدا لقياس درجاتنا ــ وليس طبقاتنا ــ وهو العمل ... العمل المادى والاخلاقى باسمه فى سبيل الجماعة ، الذين هم أخوة كما كانوا منذ الفجر التاريخ ، وكما ينبغى أن يكونوا دائما ... هذا هو الدين !

لذلك فان بعض « المتحررين » يعودون فيضيفوا الى مقومات الأمة « وحدة النظرة الى الكون » ومعنى هذا وحــدة العقيدة التى تفسر الكون ، فالماركسية اللينينية هى أسلوب فى « النظرة الى الكون» وكذلك العلمانيون ، والمثــاليون ، ينظرون الى الكــون ويفسرونه بأساليبهم . وهكذا فان الدين الذى ينظر الى الكون ويفسره بمشيئة الله « الواحد المنزه » رب العلم والمادة والحياة والمستقبل ، هو كما فى تلك التفاسير مقوم بين أهله من مقومات الامة ، وهو فى طبيعته فى لغة العرب يعنى « الالتزام » وهو التزام أقوى من اللغة لأنه هومضمونها ومحتواها الذى يحقق التفاعل الاجتماعى فى اتجاه التجانس والوحدة !

ان الاتفاق على ان اللغة هى أعظم مقومات الأمة يفقد قيمته اذا لم نلتفت الى أن « محتوى » اللغة من المعنى الذى تنقله هو الأهم فى بناء الوحدة بين أبناء الأمة . فاللغة ليست مجرد صوت ، ولكنها صوت يجسد «اتجاها عقائديا» تختص به الأمة التىتنطقها بالطبيعة. ولذلكفان الترجمة للمعانى الأصلية فى لغة ما الى لغة أخرى لا يمكن ان تتم بصورة متطابقة مطلقا . ان كثيرا من الدقائق المعنوية فى احد النصوص بلغة ما تعجز عن المرور مهما كانت القدرة على الترجمة الى لغة اخرى،

أو ان هذه اللغة الأخرى تعجز عن نقل هذه الدقائق المعنوية الى لسانها. ان هذا يحدث بين لغات تشترك فى جذور لغوية واحدة مثل هذه اللغات الأوربية « الغروية » التى ترجع الى وحدة هذه الأجناس الهند وأوربية فى أوربا . فكيف يمكن أن تنتقل هذه الدقائق المعنوية كاملة من لغة مختلفة بخصائصها تماما عن طبيعة هذه اللغات الأوربية مثل اللغةالعربية الى واحدة منها ؟ ان هذا « المضمون المعنوى » فى لغة ما اذن هو المهم عند التقرير بأن اللغة «مقوم أساسى» من مقومات الأمة . ووحدة هذا المضمون المعنوى لا تتم الا بوحدة العقيــدة الاجتماعية ـ دينا أو مذهبا ــ بين أبناء هذه الأمة ...

لذلك فاننا نلاحظ ــ فى فترات ضعف الأمة العربية وتخلفها ــ ان اللغة التى كانت تمسكها فى الماضى بعقيدة اجتماعية واضحة قد انحلت الى لهجات ، وعندما بدأ نهوض لغوى فى اتجاه لغة فصيحة تجمع مابين الماضى والمستقبل كان التقدم الى وحدة اللسان غير مدعم بالتقدم فى وحدة المفهوم الدينى ... وحدة النظرة التى نملكها ولا نملك غــيرها لتفسير الكون ، مسلمين ومسيحيين على هذه الأرض العربية ... هذه الوحدة التى تجلت فى اتفاقنا على التطبيقات العربية الاشتراكية بعد الثورة !

ان اللغة العربية التى سميت باللغــة الشاعرة ، واللغة الموسيقية ، واللغة الولود هى فى الحقيقة فى لسان كل الشعوب العربية التاريخية التى نزلت عليها الكتب المقدسة «لغة دينية» ... لقد نزلت التوراة ونزل الانجيل بلهجتين من لهجاتها ... ونزل القرآن بها فى ذروة تمامها ... انها لغة دينية ــ أردنا أو لم نرد ــ ومعنى هذا ان التعبير عن الله هو رسالتها الأساسية ، وان الدعوة الانسانية والاجتماعية التى تميزالمؤمنين هى مضمون وجودها وحركتها . لذلك فان هذه اللغة لا تزال تستعصى على اكراهها لغاية بعيدة عن غايتها ، وفكرة مضادة لفكرتها ... انها لغة ايمان ، لغة حياة بالنظرة الأبعد لمفهوم الحياة ، لغة حاضنة لمبادرات

الشعب الذى يتكلم بها فى كل مجالات شرف الانسان ، وحريةالانسان، وتقاء الانسان ، ومجد الانسان ، وايمان الانسان ... !

ان كلمات الدين الأساسية فى هذه اللغة ليس لها مقابل فى أى لغة آخرى . فكلمة « الله » التى معناها تعظيم الغائب الحاضر لا تقترب منها قط كلمة God الاه الغابات الانجليزية ، أو Dieu الذى هو بالفرنسية تطوير زيوس رب الارباب على قمم الأوليمب فى أساطير اليونان ... ثم كلمة «شيء» التى تستوعب معنى المادة كلها فى الكون انما تحمل دلالة « المشيئة الالاهية » ، فالشيء هو ما شاءه الله دائما ـ و «الخير» هو ما اختاره الله ، والعقل هو «الربط» والحفظ ، فما تعقله هو ما تمسك به من المعنى السليم ، أو ما تمسك نفسك عنه من المعنى السقيم ! والقلب هو جهاز التقلب بين الأمن أو الشك ... بين الايمان أو الالحاد . و « النفس » من النفس المتردد دلالة على سرعة زوالها عن شكلها ، و « الروح » من الريح القادمة من بعيد دلالة على مصدر الحياة بها ... دلالة على الله الذى شاء بها الحياة ... ومثل ذلك كثير فى تكوين لغتنا العربية ، التى نشأت كلماتها فى أساسها من جذور الاستعمالات الصحيحة للمعانى فى حياة كل البشر ... نشأت من التلقى المباشر عن الطبيعة ممن عاشوا الحياة لأول مرة مع الطبيعة من غير تزييف ، وبالتالى أصبحت اللغة العربية مثل الانسان المؤمن قادرة على التطور والتجدد فى اتجاه مصادرها الأولى مع تقدم الانسان وتنمية انسانيته .

الدين اذن بهذا المفهوم الانسانى هو مع اللغة أساس من مقومات الأمة العربية ، أى هو مقوم بتفسيره الايجابى للحياة بعيدا عن مزالق وتيارات التعصب الطائفى ، والجدل المذهبى ... التى لا يعمل على اثارتها وتأجيج عداواتها الا الاستعماريون أعداء الشعوب !

* * *

٧ — جذور المبدأ القومي

اذا كانت القومية تنشأ حول أساسها الموضوعي وهو الأمة من هذه الجاذبية الجماعية الطبيعية التي يلتف بها أفراد الأمة بعلاقات واحدة ، حول أهداف واحدة ، فان هذه القومية ترجع في نشأتها ولا شك الى أول نشأة الجماعة الانسانية . ان هذه الروابط والجواذب قديمة مع الانسان قدم وجوده . ان الانسان ــ احس أو لم يحس ــ يعكس في مجتمعه نفس الحركات الفلكية المحيطة به ، والتي هو في هذا الفضاء الكوني السحيق الأبعاد محمول بها ، ومتأثر في أعماق نفسه وكيانه بمؤثراتها الى أقصى حد . ان هذه الحركات التي أتيح له من قبل ان يلمحها بوضوح قد أثرت في نظمه الاجتماعية بقوانين موجودة وثابتة في الأفلاك ، تحكم جميع أشكال حياته من «التجمع» أو «الانفراط» .

ان الأرض تدور حول نفسها أولا ... ثم هي تدور حول الشمس ، ثم هي في المجموعة الشمسية تدور مع مجموعات أخرى حول نقطة أو قرص مركزي في المجرة ، ثم هذه المجرات أو المدن النجومية تدور بدورها حول مركز غير مدرك في هذا الكون الواسع الذي لايدرك ...

على هذه الدورات أو الالتفافات الفلكية يدور الانسان أولا حول نفسه من أجل بقاء الذات ، فهذا هو محور «العمل اليومي» للافراد . ثم هو يدور مع الآخرين في مجموعته أو جماعته حــول مركز معنوي « عقائدي » فيها ، من أجل بقاء هذه المجموعة ، فهذا هو « الشكل القومي » في علاقات هؤلاء الأفراد . ثم هو يدور في مجموعته المتنوعة الروابط القومية حول مركز هو من المسلمات في انسانية الانسان ، من أجل بقاء هذا النوع الانساني كله ، فهذا هو مبدأ « العالمية » في واحد من مفاهيمها !

ان الشعور القومي نزعة وجود متكاملة واصيلة في نفس الانسان ،

لذلك فانه يفتقدها اذا لم يجـدها . ولذلك فان الأممية الماركسية لم تستطع أن تتجاوز هذه المرحلة القومية ، بل وجدت من الحتمى أن تمر بالقومية قبل انفتاحها على الطبقية الدوليـة ، أو القومية العماليـة أو الأممية .

ان الشعور القومى اذن هو التجسيد الكامن أو الظاهر لهـذه الجاذبية الطبيعية بين المجموعات البشرية المتشاكلة وهى تجمع افرادها برباط المكان والزمان والحركة والهدف !

لقد عرف اليونان القدماء هذه المشاعر القومية ، عرفوها فيما تحكيه الالياذة والأوديسة حروبهم الطويلة مع جيرانهم . لقد عرفوها حين ميزوا أنفسهم بين الأقوام بانهم « الهيلينيون » أى الأخوة الذين ينتمون الى قبيلة هيلين الهندية الأوربية . وهيلين هذا فى الأسطورة هو ابن ديوكاليون من زوجته بيرها بوصفهما المخلوقين الوحيدين اللذين عاشا بعد الطوفان العظيم الذى قضى على جميع من فى الأرض ... كما تروى أساطير اليونان عن أنفسهم !

كذلك ميز الفرس أنفسهم بانهم « الايرانيون » الآريون ... أى السادة . وميز الأتراك أنفسهم بأنهم الطورانيون ...

وعندما انتصر العرب على الفرس قبيل الاسلام فى موقعة ذى قار كان واضحا لهذه المجموعة الصـغيرة من قبائل بنى شيبان فى شرقى الجزيرة التى انتصرت وحدها على حملة التأديب الفارسية ، ودون قيام وحدة سياسية بين العرب فى ذلك الوقت ـ كان واضحا للشيبانيين أنهم انتصروا بوصفهم « عربا » تجمعهم جاذبية طبيعية لسلوك ولغـة وعرف يتميزون بها جميعا عن غيرهم من البشر ، ويلتزمون بها أيضا ، حتى يبقى هذا الشعور القومى ، الدافع للحياة بينهم ، حيا ونشطا !

والآن كما رأينا فى الأسطورة اليونانية التى يرجع اليها فى عمق التاريخ مبدأ القومية الهيلينية أن ارادة « زيوس » فى افنـاء العالم

غضبا على سوء سلوكهم قد احتفظت بكل من هيلين وزوجته بيرها ليعيدا « صنع البشر » من اليونان ... فاننا قبل أن نتكلم عن مفهوم كلمة القومية فى لغة العرب يجب ان نرجع بالمبدأ القومى عندهم الى جذوره فى مفهوم كلمة « العرب » نفسها بكل وضوح ...

فما هـو معنى كلمة عرب ، أو من أين جاءت هـذه التسمية ، وما دلالتها فى اضاءة المفهوم القومى العربى ؟

بدأ المستشرقون كالعادة فى العصر الحديث يضعون من عندياتهم هذه الاجابات الغريبة بسوء النية أو بالجهل على كثير من القضايا التى تهمنا ، ومنها الاجابة على هذا السؤال : من هم العرب ؟ ... قالوا — وقال وراءهم من تأثروا بهم من العلماء مثل الدكتور عمر فروخ فى كتابه « تاريخ الجاهلية » ان سكان ما بين النهرين من البابليين والأشـوريين كانوا على حق عنـدما أطلقوا على أقاربهم الساميين وجيرانهم الى الغرب والجنوب الغربى اسم « ا — رى — بى » أى الذين يسكنون جهة الغرب ، ثم أصبحت الغرب عربا ، وهذا فى كلام الدكتور فروخ وغيره غير صحيح لأن اللغة تسير مع خط الهجرة من الجزيرة العربية الى العراق — ما بين النهرين — وليس العكس ، أى من العراق الى الجزيرة ... وقالوا كذلك ان كلمة عرب من « العربة » بمعنى الوادى العظيم . وقال الدكتور حسن ظاظا العالم المصرى وكان ذلك فى مستهل شبابه سنة ١٩٤٤ « ان كلمة عرب هى تلخيص معنى الدمج لكلمتين هما « على الرب » أى المترحلون توكلا على الرب وايمانا به » ثم حاول أن يؤكد هذا المفهوم فقال ان « عجم » المقابلة لكلمة « عرب » هى أيضا لفظة مدمجة من كلمتين هما « على الجم » والجم هو الماء ، فالعجم اذن هم الذين جموا واستقروا على الماء ، أى استقروا على أحواض الأنهار ، فاستعجمت لغتهم ، أى فقدت وضوحها واعرابها ..

ثم يتطوع بعضهم فيقول وهو يحاول بغباء اضعاف الشعور القومى عند العرب — « ان هذه الكلمة لم تكن معروفة قبل نزول القرآن» ..!

والحقيقة أن القرآن هو الذى يعطينا مفتاح الفهم الواضح غير المتعسف لهذه الكلمة عندما وصف الله القرآن بأنه « عربى مبين » فى قوله « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » وفى مقابل ذلك يضع العجمة فى المكان المضاد فى قوله « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته » !

العربى اذن هو المبين ، انسانا أو كلاما ، وهذا المعنى التجريدى لكلمة « عربى » فى القرآن وهو يتجه الى أولئك العرب الذين استمعوا اليه أول الأمر ، يعنى أن هذه الكلمة « عرب » قد مرت فى أطوار طويلة قبل أن يخلص اليها هذا المعنى الذى نزل به القرآن . هذا المعنى هو الوضوح ، وهو البيان ، وهو القدرة على التعبير ، وكل هذه صفات تقترن بالحرية ، وبالحق ، وبالعرف ، وبالعدل ، وهى أيضا صفات لا يستطيعها المستعبدون ، والمبطلون ، والمنحلون . فالحرية وضوح ، وبيان ، وقدرة فى الانسان الحر على التعبير عن انسانيته ، وهو يلتزم بحقوق الناس عنده ، وحقوقه عند الناس ، وكذلك الحق هو بيان للطبيعة المضادة للباطل ، ووضوح لما لا ينبغى أن يجهله أحد ، أو يخفيه أحد من الاقرار بفطرة الحياة ، وحركتها ، وقوانينها ، وأهدافها التى تسوى بين الجميع . اذن فالعروبة هى الوضوح ، والعربى هو الواضح ، والانسان لا يكون واضحا الا بالحق ، وعندما يكون الانسان محقا فانه يستطيع أن يعبر عن نفسه بالحرية والحق والعدل ، تعبيرا باللسان ، وبالعمل ، وبالقتال الدفاعى اذا لزم الأمر ! ومن الواضح أن مفهوم « الواضح » للعربى ، ولكل ما هو عربى ، يرجع الى حقيقة مادية موضوعية هى حياة هذا العربى بالبداء ، أى بالوضوح ، فى طبيعة بادية هادية ، واضحة أمام عينيه ، يشق طريقه عليها بالهدى ، والوضوح ... أو يموت ! !

بهذا ينتقل معنى كلمة « عربى » من الأساس العرقى الى الأساس الأخلاقى ، فى كلمة واحدة من أربعة حروف تكاد ان تلخص الكون فى

فكرتها التى لا تحد ابعادها . لقد كان ذلك واضحا فى معارك القبائل العربية الطويلة قبيل الاسلام بدوافع أخلاقية قبل أن تكون اقتصادية. كما كان واضحا قبل الاسلام فى أن هذه القبائل كانت تخلع من ولائها أولئك الذين يخرجون على العرف « العربى » الأخلاقى فى أى مسلك من مسالك حياتهم ، ومثل هذا الخلع من حق الانتماء الى الجماعة العربية كان أقصى عقاب — ولا يزال — يمكن أن توقعه جماعة على أحد أفرادها ! ... كل ذلك يؤكد أن « الظهور والوضوح بالحق » كان هو الأساس القومى فى حياة العرب منذ كانوا ، وهو أساس أخلاقى ولغوى يفسر — بوضوح تام ومن غير أساطير — لماذا نزل الدين بأرض العرب فى كل مراحله ، ولماذا قامت حياة العرب على الدين فى كل عصر ، فوق هذه الأرض الرحيبة ، المشرقة الآفاق ، التى قدمت لهم أكثر من أى أرض أخرى — ولا تزال تقدم — شواهد قدرة الله ووحدانيته ، فى حركة آياته المتعاقبة منذ بدأ الخلق ، ومنذ اختصهم بهذه اللغة المبينة، لغة الحق والعدل ، والحرية والكتاب !

* * *

٨ — مقومات القومية عند القدماء

يقول ساطع الحصرى فى تعريفه للامة — كما أوردنا عنه — انه لا شىء من المقـومات يصنع الأمة بعد اللغـة والتاريخ ، فلا الدين ولا الدولة حتى الرقعة الجغرافية أى الأرض ، تدخل بين مقومات الأمة الأساسية . بينما الحقيقة الكبرى التى غابت عنه وعن الكثيرين ممن تكلموا عن القومية العربية ، وبحثوا تركيب المجتمع العربى ، وحللوا تاريخه وأحداثه — هى أن الأرض والجغرافية العربية التى فرضت فى صحرائها الواسعة وجود نمط معين وظاهر ومشتهر من الحياة القبلية ، واللغة ، والعرف — هذه الأرض بخصائصها الجغرافية والمناخية هى المنبع الأساسى لكل مقومات الأمة العربية فى الماضى والحاضر ، وهى الأصل الذى يتفرع عليه الوجود اللغوى بشكل قومى ، والوجود العقائدى بالمفهوم الذى تنشط به روابط هذه الأمة وتتوحد أجزاؤها ...

فى كل الأمم القـديمة والمعاصرة توجـد بنيتان فقط فى صرحها السكانى أو تركيبها الاجتماعى هما القـرية والمدينـة ، حيث يعيش الفلاحون والبورجوازيون ، أو الفلاحون والعمال . توجـد بنيتان هما المزرع والمصنع ، وهاتان البنيتان تسيران اليوم فى العالم المتقدم فى طريق التقارب والاندماج السريع مع تطور الطرق الآلية والعقلانية للزراعة وصولا بها الى « الصناعة الزراعية » حيث يتحول الفلاحـون الى عمال الصناعة الزراعية ، أى يتحول المجتمع — اذا كان اشتراكيا — الى « بنية واحدة » وطبقة واحدة من عمال الصناعة .. ! ومع ذلك فان البنية الأولى القبلية التى اندثرت تماما فى حياة الاوربيين اليوم ، بعد أن اسـتقرت فى الأرض للزراعة والصناعة والحرب قبـائل الفرنجة والسكسون واللومبارديين والوندال والصقالية والبورغنديين وغيرهم لا تزال الأمم المعاصرة تحتفظ بتاريخها القبلى كاملا ، وتعمـل على احيائها « كما كانت » فى ذاكرة أطفالها وأجيالها ، وذلك فى المسرح

والأدب والمتاحف وأكثر من ذلك فى الأعياد القومية حيث لا تزال تظهر كل الازياء القومية القبلية بكل الاعزاز والتقديس .

أما بالنسبة للمجتمع العربى فمفتاح قوانينه وحركتها هو هـذا الثلاثى العجيب ، والطويل الأمد فى بنائه السكانى وتركيبه الاجتماعى على ثلاث مراحل تبدو منفصلة تماما عن بعضها ، ولكنها فى انفكاكها أو تماسكها ، فى تنافرها أو تجاذبها ، فى انفصالها أو اتحادها تخضع لقوانين ثابتة تؤكد المبدأ القومى حتى فى حالة التفكك أو الانفصال بين هذه المراحل الثلاث وهى « الصحراء والمنزرع والمـدينة » ، أو « البدو والفلاحون والدولة » ... ذلك لأنه فى أى موقف تتعرض فيه للخطر هذه الأشكال الاجتماعيـة فى تركيب المجتمع العربى يحـدث التوحد المفاجىء والشامل أمام هذا الخطر ، ولاشك أن مثل هذا الخطر الذى يهدد البدو والفلاحين والمدنيين مجتمعين معا — على تفـرق لهجاتهم ومصالحهم — ليس خطرا هينا ... ليس خطرا يدخل تلافيه فى حدود قدرة الدولة أو المدينة وحدها ... انه الخطر الذى يهـدد مقوم الأمة العربية الأساسى وهو عقيدتها ، وحدود أرضها ، ومدنها التاريخية المقدسة ، وجذور ثقافتها ولغتها وتراثها ...

ان « القبيلة العربية » التى تقطع مرحلة التكوين الاجتماعى القومى الأول فى شعبنا ، مترحلة عبر الفيافى الواسعة ، والأزمان السحيقة ، تعود فتستقر على الأنهار العربية التى تشق هذه الصحراء حاملة زادها من اللغة والدين ، ومن النظرة العلمية التى اكتسبتها من معايشة ملتحمة مع الطبيعة فى حياتها القبلية الأولى ، وهى بهذا الزاد تنشىء على النهر حضارة زاهرة قد تنقطع فى الظاهر عما وراءها وهى تعيـد تشكيل تصوراتها البدوية من الحركة الى الاستقرار ، ومن المعنى الكلى الى المعنى الجزئى ، ثم تذبل هذه الحضارات بعد وقت وتموت ، وتنشأ فوقها حضـارات جديدة من « قبليين » جدد تدفعهم حركة الحياة الى الاستجمام على النهر ، والى تغذية حضارة جديدة بهذا الزاد الذى تحمله من اللغة والدين ، ومن النظرة العلمية ومبادراتها الحضارية ! ...

ثلاث مراحل تجتمع فى كل منها مقومات « الأمة الواحدة» قد تنفصل هذه المراحل بعضها عن بعض فى حياة شبه استقلالية ، تحت ظـلال الرغد والأمن فى بعض العصور ، أو بتحريض العـدو المتربص بهذا الشعب وأرضه وموارده حين يعمل على توسيع الفجوات بين البـدو والفلاحين ، وبين الفلاحين والمدنيين ! ولكن اذا ما لاح الخطر الذى يهدد ذات الأمة ووجودها وحقيقتها توحدت مرة واحدة كل أجزاء هذه الأمة من البدأة والفلاحين والمدنيين ، فوق كل العوائق ، وفوق حسابات كل الأعداء ، كما حدث ذلك فى شكله الرائع فى ابان فتوح التحرير بالاسلام فى وجه قوى الاستعمار الفارسى والبيزنطى ، وكما يمكن - بل وكما ينبغى أن يحـدث اليوم فى وجه العـدوان الصـهيونى الأمريكى ... !

ومن المؤسف بالنسبة لسكان المدن العربية المعاصرين أن المستعمر والصهيونية واسرائيل هم الذين يعرفون هذه الحقيقة الديموجرافية أى التركيب الاسكانى العربى ، وأنهم حرصوا من قديم الزمن على طمس كل المعالم الخاصة بالقبيلة مع بقائها الى اليوم ، ومحاولة تمزيق الرابطة القومية بين البـدو والحضر ، حتى أصبح سـكان المدن ، والفلاحون أيضا يظهرون كبشر من غير تاريخ ، وأمة من غير جذور ! وآخر ما انتهى اليه جهد الاستعمار فى ذلك هو اضعافه لدراسة الأدب العربى عند ما كان مسيطرا على المنـاهج التعليمية ، ومن ثم استمرت الدعاية ضد القاعدة الصلبة التى تحمل منجم الخصائص للامة العربية وهى « المرحلة القبلية » التى تعمل اسرائيل ويعمـل الغرب كله على ابرازها وتقـديسها فى معنى الانتماء القومى والدينى والانسـانى فى تاريخهم وحياتهم ... !

هذه الأرض العربية منحتنا هذه اللغة الخصبة المؤمنة من مصـدر لا يخطىء تركيب المعنى فى اللفظ ، وتجسيد الحقيقة فى الصوت هو المصدر القبلى ... من مصدر واحد هو رواد اللغة الأولين الذين عايشوا حركة القوانين الطبيعية بشكل مباشر تحت السماء الصافية وفى بحار

الأضواء : عايشوا الحركة المستمرة والمنظومة فى قيد هذه القوانين ، نضالا وسعيا ، أو استجماما وتفكرا . ومن كلمات هذه اللغة ــ التى نشأت معها منذ القدم ــ نجد كلمة أمة ، وكلمة قوم ... فما معنى كلمة أمة ... وما معنى كلمة قوم فى اللغة العربية ؟

الأمة فى اللغة العربية من الفعل « أم » بالميم المشددة . أى قصد واتجه ، والأمة هى الطليعة من الناس ، الطليعة فى سلوك ، أو دعوة ، أو منهج ، أو عمل ..

يقول الله فى القرآن « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » أى وجد طليعة من أفراد القبيلة أو العشيرة تقوم عمن وراءها بسقى الأنعام ...

ويقول الله « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » أى فلتكن منكم طليعة وقيادة مرشدة تتولى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة الى الخير ... الى شريعة الله .

ويقول الله « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله » أى كان اماما ، قاصدا وجهة الحق وطليعة الى دعوة صادقة لمن كان معه ، ولمن جاء من بعده ، طليعة الى الفطرة والاسلام على لسان موسى وعيسى ومحمد ...

ويقول الله « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء » ومعنى ذلك أن الأمة هى الطليعة المهتدية ، طليعة مقومها الأساسى هو عقيدتها ...

وأما « قوم » فمعناها فى اللغة العربية « الجماعة من الناس » وهى من « القيام » أى أن القوم هم الجماعة من الناس الذين يقوم بعضهم لبعض دفاعا عن أنفسهم ، وحفاظا ، وقياما بالحق . فالأمة التى هى من القصد تعنى « الاتجاه » والقوم تعنى « الحركة » الى هذا الاتجاه ، ذلك لأنه ما كان من الممكن أن يقوم أفراد من الناس بعضهم لبعض

بالدفاع والحفاظ والحق داخل مفهوم « القوم » الذين ينتمون اليهم الا اذا كانت هناك روابط قومية تجمعهم ، وتؤكد وحدتهم ، بل وتؤكد فاعلية وايجابية هذه الوحدة ... وأولها رابطة الاتجاه والعقيدة !

المضمون العقائدى واضح اذن فى كلمة قوم . وهو فى تاريخ الأمة العربية مضمون واحد بين كل قبائلها وأقوامها وهو العرف أو الدين . وعندما يضعف العرف أو الدين ينشأ بين هذه الأقوام من يعمل على ردها الى عرفها ودينها ، حتى تحتفظ بقدراتها على الدفاع عن نفسها وذاتها وحقيقتها ... وقوميتها !

يقول الله فى القرآن فى دعوته للاقوام العربية الى الدين ، أى الى الالتزام بالله كلما تراخت فطرتها ، وغامت بصيرتها ، فضلت سواء السبيل « والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله » .

ويقول : « والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله » .

فالأقوام العرب جيلا بعد جيل ، وحدات متجانسة من البشر يمسكهم عرف واحد ، اذا انحلوا عنه قام الى دعوتهم رجل منهم ، وأخ لهم ، مأمورا بالوحى ، أو مستجيبا لداعى القومية التى يقوم بها كل فرد من القوم لجميع الأفراد ، دفاعا عنهم ، وحفاظا عليهم ، ودعوة لهم الى الحق والعدل والمعروف ...

وفى آيات القرآن ما يؤكد قانونه الاجتماعى ، الحتمى ، من أن الأقوام التى يمسكها الايمان تبقى وتقوى ، والتى لا تتناهى عن الظلم تذهب وتنتهى ، وفى ذلك يوجه الله القول لمن يحملون المسئولية :

« ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » و « ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » و « ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

ويقول فى المعنى المقابل « والله لا يهدى القوم الظالمين » ويقول

« فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين » ويقول « وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون » .

يتضح من هذا فى مقومات الأمة العربية أن الأرض التى تحرك عليها العرف ، ونزل عليها الدين ، حفظت بشواهدها الحية من آيات الله التى لاتتكامل فى أرض سواها مقوما أساسيا لهذه الأمة هو دين الله، وهيأت للتذكير به ، والدعوة اليه ، بدافع التآلف على الوحدة ، وليس بنزغ الشقاق والعصبية — لغة تملكها أمتنا هى طوع وحدتها . لغة هى أقدم اللغات ، كما أن دعوتها فينا الى العلم والايمان والعدل والعمل هى أقدم الدعوات . لغة تامة الابجدية ، وتامة النطق ، وتامة التطور ، وتامة القدرة على متابعة التطور . لغة هى بين جميع اللغات الأخرى تعكس وحدها حيوية الطبيعة التى أوحت بها ، وتحكى تدفق أشكالها الخلقية بغير نهاية . فهى لغة الاشتقاق ، اللغة الولود من ذاتها، التى تلد المعنى فى لفظه كلما حضر ظرفه ، فاذا ذهبت الحاجة اليه ذهب . لغة تستحدث اللفظ لكل معنى مستحدث ، فهى تعايش الأزمان والعصور سابقة فى عوالمها الجديدة ، وكشوفها المبتكرة .. لغة يقوى بها الانسان اذا وضعها فى قلبه قبل لسانه ، وتقوى به كلما وضعها الانسان من لسانه فى موضع قلبه ...

هذه اللغة العربية التى لم تمت بعد — كائن حى ، شامخ العمر ، باذخ الثراء ، تعيش بيننا جليلة بالتاريخ دون أن نحس جلالها ، غنية بالحياة دون أن تتقصى كل منابعها ، ودون أن نستخلص لحياتنا كل حياتها . تعيش بيننا كما لو كانت فى غيبة عن أحداثنا ، ونعيش بها كما لو كنا فى غيبة عن مكنونها ، وفكرها ، تنميها ببطء ، وتنمينا بسخاء . كانت عبقرية القدماء ، وبيانها عن أنفسهم ، والتزامهم بحقيقتهم ، وامتدادهم فى مواقعهم ، واليوم هى تعود الينا ، أداة لثورتنا ، فنجدها بحق هى هذا النبع الذى لم يتغير طعمه ، يفيض فينا بايجابية الفكر الثورى ، وخصوبة الحس الانسانى ، وواقعية المنهج العلمى ، وصدق التوقع المستقبلى ...

ان لغتنا التى هى وعاء مقوماتنا ، وسر بقائنا ، كانت فى الماضى ، كما هى اليوم ونحن نمتد بها فى واقعنا وعصرنا وآمالنا هى لغة الجماهير الثرية بمبادراتها ، النبيلة بانسانيتها ، الواثقة بحقيقتها ، القادرة بذاتها وقيادتها ولغتها على أن تخترق حواجز الطبقية الفكرية ، والطبقية الاجتماعية ، والتمويهات الاستعمارية ، لتضىء بنضالها دائما طريق الانسان العربى ، الانسان المؤمن ، الانسان الانسانى ، الذى أوحى الله فيه السلام ، وعلمه السلام ، ليبنى دائما من أجل السلام ، وليقاتل وينتصر

فى سبيل السلام .

هذه هى أرضنا ...

وهذه هى لغتنا ...

وهذه هى عقيدتنا ...

جميعها هى مقومات قوميتنا ...

كما هى مقومات نضالنا ...

... نضالنا مع العالم وليس ضد العالم ...

... ومع الحياة وليس ضد الحياة !

* * *

٩ — ذبول وازدهار

القومية العربية بهذه المقومات تذبل وتزدهر ... تنحل فى طريق الزوال ثم تنبعث وتنشط كأن لم يكن بها شىء ، كأنها مشرق نهار جديد !

ذبول الشعور القومى ، أو القومية العربية فى بلادنا يرجع الى ذبول مقوماتها ... مقوماتها هى لغتها التى تجرى بمضمونها ... ومضمونها عقيدتها ... واطار عقيدتها كتب الله فى جوهر دعوته ... والقرآن يحتوى الأساس العلمى لهذه الدعوة ، ويشهد على قيام الايمان على العلم وبالعلم ، وعلى تجاوزنا به « ايمان العجائز » الى ايمان المتفكرين المهتدين ، الذين يملأهم العلم ايمانا وخشوعا ، ويتدفق فيهم حركة وعملا ، وينطلق منهم جهادا وعزا ... !

ليس للغة العربية مضمون ولا محتوى ولا رسالة الا محتوى كلمة الله فى الناس ... كلمته لهم بالتحرير لانسانيتهم فوق كل قيد ، وعن كل خطر ، الا قيد الله ومحظوراته ... كلمته لهم بتحرير الآخرين ... بتحريرهم من أرباب البشر ... من أثقال الطبقة ... ومن أعباء الفاقة ... بتحرير المجتمع ــ بعد الفرد ــ بسلطان النظام ، وتحكيم العلم ، وتنمية العمل ، وتنشيط الحافز ، والمبادرة بالجزاء ، والتعجيل بالحساب ...

ان وهن اللغة من وهن الناس ، وصحوتها من صحوتهم ، وقد حفظ لنا المحاربون العمالقة القدماء من علمائنا وقادتنا هذه اللغة الانسانية منذ قاموا يدرأون عنها وعن قرآنها بحياتهم وما ملكت أيديهم ، رغم اطباق المحاق التركى عليهم ، حيث كان العربى على أرضه اذا أخرج يده لم يكد يراها ، واذا أصغى الى صوت قريب لم يكد يسمعه . لقد حفظها هؤلاء المحاربون العمالقة العلماء رغم خطط الجبابرة والطغاة من الاستعماريين الانجليز ، الذين جاءوا من بعد العثمانيين

والبكوات المزركشين يعمدون الى اللغة رأسا فيطعنونها ، ويتدبرون لمصرعها ، حتى مهندس الرى الانجليزى الافاق ويلكوكسون ـ الذى لم يكن مهندسا قط بل كان جنديا مرتزقا فى سلاح الغزو الفكرى الامبراطورى البريطانى ـ كان يحاول وهو يتدخل فى حياة الازهريين وفكرهم أن يقنعهم بأن يشربوا بحر « اللغة العامية » كما يسميها !! وكان يرصد لهم الجوائز ليشجعهم على كتابة موضوعاتهم بها دون الفصحى ، وكان يطمعهم بدخول « جنة الانجليز » ووظائفهم اذا « أفصحوا » بالعامية ... ! ولكن ويلكوكسون غرق فى قناة صغيرة ... وخرج من مصر مبتلا بعرق هزيمته ... وسارت من بعده رحى العامية تدور ... ومناهج التعليم تصاغ ، وأساليب الكتابات العامية تبتكر من أجل هذا الهدف الاستعمارى ... الذى هو وهن اللغة العربية حتى يبقى العرب فى وهن وعجز عن « الوحدة » ... وحدة المشاعر ، ووحدة الفكر ، ووحدة النظام ، ووحدة العمل ، ووحدة الهدف ... حتى يعجزوا عن مواجهة « اسرائيل » التى كان يدبر لها منذ قرن من الزمان ... ولكن !!

ولكن جاءت بداية الثورات العربية فى مصر ، فأوقفت كل هذا السحر ، وهى تدفع فى شجرة اللغة بحياة جديدة ، ومعانى جديدة ، حتى أصبح الفلاحون الأميون فى أعماق القرى ، والعمال من أنصاف المتعلمين فى أعماق المصانع يرددون ويفقهون كلمات « الكفاية والعدل » و « الكفاح والنضال » و « التنمية والتصنيع » و « التوسع الأفقى والتوسع الرأسى » و « الدراسة والتخطيط » و « الوسيلة والغاية » و « التطور والتقدم » و « النظرية والتطبيق » و « الولاء والانتماء » فى نهر عظيم تتجمع روافده من كل نفس وقلب وجهد ... هو النهر الجارف والهادف لحياة العرب الجديدة ...

ولكن هذه الثورات وخاصة فى مصر ، ومع التقدم بالتنفيذ لمخطط وجود اسرائيل وهدم العرب هاجت الاحتكارات النائمة ، واحتشد الاستعمار المحنق ، وتحركت الجماعات السرية ، وخرجت ميليشيا

العدوان الفكرى ، والتخريب النفسى من كل شقوقها ، وتحت كل أسمائها المستعارة ، وألوانها المموهة تستهدف اللغة أيضا قبل أن تستكمل لها القوة ، وتكفل لها الحصانة بعد تلك النكسات الطويلة السابقة ...

ان التيار الثورى العربى يكفل فى صدقه نماء اللغة ، واخضرار كل أوراقها ، وازدهار كل معانيها ، ولكن يجب أن نستحضر فى عمليات المراجعة كل هذه الظواهر التى لا تزال تعانيها لغتنا فى ألسنتنا ، وتعانيها لغتنا من تخلف الخطط الموضوعة لانهاضها ، ومن هذا الشقاق الفكرى فى استعمالها بين التطرف السياسى يمينا أو يسارا ، والتخلف الدينى جمودا أو تدروشا ... !

أصبحت كلمات كثيرة وكبيرة من كلمات اللغة العربية التى بثت فينا الحياة من قبل تكاد أن تكون قد فقدت معناها ودلالتها وجاذبيتها فى مدركات الاجيال مثل كلمات : الدين ، الاسلام ، الايمان ، الفطرة ، المشيئة ، الخير ، الحق ، النفس ، القلب ، الروح ، بينما ظهرت مصطلحات كثيرة جديدة يرددها بعض الناس دون قاعدة من وعى أو علم أو التزام !

كذلك فان استعمالات كثيرة للغة تأخذ اتجاهات مختلفة بمضامين تكاد أن تكون متناقضة . فبينما يستعمل الشرعيون والمدرسيون اللغة بمنهج وصياغة ومفهومات القرن الخامس عشر — قرن الموسوعات العربية الضخمة — فان الرأسماليين قد وضعوا اللغة فى حصار معنيين اثنين فقط هما « شرعية التميز وحق الابتزاز » وبينما المتحررون قد أخذوا يشقشقون بالترجمات الرديئة لفكريات لم يعرفوا جذورها فى بيئاتها ، وفى التاريخ والواقع ، فى حين أنه ليس لهم فى مجال التعبير عنها بلغتهم قرار يستقرون عليه ، أو منطلق الى معنى يستوثقون به ، دون أن يفقدوا فى ذلك ذاتهم وغايتهم !

هذا بينما يمضى الثوريون العرب يكافحون هنا وهناك وراء وحدة

فكرية لابد من بناء أساسها ، ودعم قاعدتها ، فينشأ على أرض المعركة السياسية ، ومعركة السلاح فى الجبهة طور رائع لتجديد اللغة ، ومولد لكلمات عربية جديدة ، أو انبعاثها ، مشرقة ومشعة بضـوء الفجر ، وحركة الحياة ، بين الدم المهراق للشهداء ، والنصر المرتقب للمجاهدين!

فهذا هو الجهاد الحق المقدر ، الذى يمكن أن يدفع بالسلبيين والهازلين والمعقدين ودراويش السياسـة ليفكوا عقـدهم ، ويزكوا حياتهم ، ويعرفوا ربهم ؛ ليكون من كل ذلك جسر للحياة تعبر عليه كلمات جديدة غنية وقوية ومنظومة ، تحيى حياتنا ، وتثرى كفاحنا ، وتقطع لسان عدونا ... فاللغة ليست مجرد جهاز للاصوات والقوالب والأشكال والتراكيب ؛ ذلك لأن هذه الأشكال تؤثر فيها وتغيرهاطبيعة العقيدة التى تملأها ... ان وحدة العقيدة اذن ، أو وحدة الاتجـاه العقائدى فى لغتنا ، هى أساس قومى تبنيه وتقويه وتطلق قدراته ثورتنا العربية المؤمنة المتصاعدة .

وفى الجانب الدينى هناك أيضا تبدو أهميـة هذه الاستعمالات الصحيحة للغة ... ان العلماء بالدين يملكون بالطبع لغة خصبة وقادرة للتطور والتجدد مع العصر من بداية هذه المبادىء القرآنية التى تشتد حاجة مجتمعنا اليها فى مرحلة بنائه ، ومجاهدة أعدائه ... ولكن فيم يضيع الجهد بهذه اللغة فى الأماكن المغلقة ، والزوايا النائية بعيدا عن نهر الحياة ، وحركة الناس ، وآمال الشباب ، وفكرة المستقبل ! ? ...

انه لاتكاد تنفتق لعالم من المسلمين عبقرية ، ويفيض منه علم ، حتى يثب الى المسائل الخلافية فيثيرها ، ويبذل الجهد فى تجديدها ، وبعثها.. فهل المسيح واحد أو ثلاثة ؟ ... من هو المسيح فى القرآن والانجيل والتوراة؟ هل هو صحيح انجيل برنابا ، وما أدراك ما انجيل برنابا .. !?

كل هذا أثناء معركة يخوضـها المسلمون والمسيحيون معا ضـد تحالف الصهيونية والاستعمار ، الذى يهدد القرآن والانجيل معا ... يهدد المسلمين والمسيحيين فى وقت واحد !

وينبرى القساوسة المسيحيون بالطبع للرد على هذه القضايا ... ويظهر الفارس المغوار « الحداد » فى بيروت ... ويظهر متحمسون منفعلون فى مصر ... يدافعون ... هاهم هـؤلاء الاخوة اذن يضرب بعضهم بعضا والأعداء يضحكون ... !

* * *

قلت لأحد العلماء المسلمين : « هذه القضايا الخلافية بين المسلمين والمسيحيين ألم يحسمها القرآن الكريم ؟ ألم تنته الى انه « لا اكراه فى الدين » ؟ ألم تنته منذ سنة ٦٤٠ ميلادية الى معايشة ووحدة والتحام بيننا وبين اخوتنا فى الأرض والتاريخ واللغة والحياة وجوهر الدين ؟ ... ماذا يفيدنا ان تثير قضايا التثليث والصلب والفداء ... وان يزأر الطرف الآخر فيحمل كارها دعاوى الغرب على النبى والقرآن والمسلمين ! ؟

قلت للعالم المسلم : أليس الأحق أن يوجه علماؤنا فائض عبقريتهم الى أولئك المسلمين الذين عادوا يقولون — مع قيام القرآن فيهم وتلاوته بينهم — بعصمة الانسان ، ويهدرون قيمة العمل ، ويلتزمون بمبـدأ « عدم الاعتراض » ... ويرون السياسة لغوا ، والدنيا جيفة ، والمادة التى خلقهم الله منها فى أحسن تقويم — رجسا ... المـادة التى هى الشمس والقمر ، والماء والهواء ، والايمان والحب كلها أرجاس بغيضة ، وعوائق منكرة ... فكيف ندع هؤلاء الذين يطبقون أفواههم على الأضرحة ، ويمرغون خدودهم على الاعتاب ، وينظرون الى الدنيـا بظهورهم ، والى الآخرة بذهولهم ... دون كلمـة توجيه ، أو لمسة هداية . ؟ أما يحتاج هؤلاء الى كلام وكتب ... والى جهاد ونفير ... هؤلاء الأعزة الذين قصم ايمانهم التلقين ، ومزق وحدتهم القهر ، وشجع تنظيماتهم العدو ... هؤلاء الذين يملكون فيضا من الحب ، ونهرا من الشوق ، وضراما من الحماس يراق كله فى التراب والضباب والاعتاب!

ولكن طليعة الثورة التى تنبثق من التراث ، وتستحيى حياة اللغة ، وتؤمن الايمان الذى لا يتزعزع بالله والرسل ، تمضى وتسـير ، وتضىء الطريق ...

وجمهرة أخرى من العلماء الفضلاء لا يزالون يحرقون أعصابهم ، ويعضون بالغيظ على أناملهم ، وهم يسكبون جهدهم وجهد اللغة الفصحى فى احتفالات الكراهية ضد الكفار من قريش ... ضد أهل البيت ... وقوم النبى .. ! ويالها من نشوة وحشية تلك التى تقام بها فى كل المناسبات الدينية «أعراس السباب والهجو» لأولئك العرب «الطغاة» الذين عاشوا فى ظل «الطبقية العاتية! » ، والجاهلية الباغية !!! .. ولكن هؤلاء العرب جميعا قد دخلوا فى الاسلام قبل أن ينتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ! هؤلاء العرب قد « دخلوا فى دين الله أفواجا » بعد أن قال الله يخاطبهم « اليوم أكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ... وهؤلاء العرب انفسهم هم الذين خرجوا بعد أن هداهم الله بالاسلام ، وألف الله بين قلوبهم بالقرآن فبذلوا عشرات الألوف من شهدائهم لتحريرنا فى مصر والعراق والشام من اغلال الروم والفرس ، ومن طبقة الولاة والكهنة ... ! ثم هانحن هؤلاء وفى طليعتنا مشايخنا نعيش على أرض عربية ، تتكلم بلغة العرب ، وننفق من تراث العرب ، ونحاول أن نبعث فيما بيننا فهما للاسلام ، ومكارم الأخلاق ، كالذى خرجت به الينا هذه الطليعة المؤمنة من العرب ... الطليعة التى صحبت الرسول ، وعاشت القرآن ، وبذلت الأنفس ... أفلا يكفى انهم آمنوا وأحسنوا ! ... وكيف بنا اذا قسنا مساوئهم قبل الاسلام الى مساوئنا اليوم بعد الاسلام !! ؟ ... لماذا نفعل ذلك ونحن عرب ننادى فى وجه اسرائيل بوحدة العرب ! ؟

وغير هؤلاء العلماء ــ والدكاترة أحيانا ــ من يهدرون اللغة ، ويريقون دمها ، ويمتهنون صدقها ، وهم يحاربون الالحاد الشرقى لصالح الالحاد الغربى ... حسنا ... انهم يتبنون مذهبا سياسيا من وراء الحملة على « المادية والالحاد » ولا يبتغون بحملاتهم هذه وجه الله ، ولا وحدة المؤمنين ... والا فكيف يكون الأمر غير ذلك وهم يرددون ما يذيعه وينفثه الجهاز الغربى والحلف المركزى من حجج المواجهة للعون السوفييتى لمصر ، وللعرب ــ باسم الدين ، أو باسم الجزع على الدين... والسؤال الأول : هل استيراد الفكر حرام من الشرق ولكنه حلال

وقريب الى الله من الغرب ؟ ... والسؤال الثانى هل الخشية علينا ان تقع فى ورطة الشيوعية ونحن مؤمنون بالله حقا ... أم الخشية علينا ان ندين دين الرأسمالية الاحتكارية الطبقية ونحن لهذا المرض مستعدون ، بل لا يزال بعضنا منه ناقهين ! ... ماذا كنا قبل الثورة ؟ ... هل كنا شيوعيين أم كنا عبيدا للانجليز وأصحاب الشركات الكبرى من اليهود ؟ ... وماذا نخشى على أنفسنا بعد الثورة ؟ ... أن نكون شيوعيين أم أن يرجع الينا مرض هرم الطبقات ، وعقدة الخواجات ، ودولة اليهودوالباشوات!

أن للطبقة التى نقضها الاسلام وجودا تاريخيا على أرض الشرق ... هل فى هذا شك ؟ ... ان قرونا طويلة فى تاريخنا قد سادت فيها شريعة أولئك الذين اتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ... وعندما نمد أبصارنا اليوم نحو أهرام الملوك الأقدمين فى الجيزة ، ثم نصرفها من بعد ذلك تلقاء أهرامات أخرى حديثة أقامها الشعب فى أسوان ، وبناها الشعب فى السويس ، ورفعها الشعب فى حلوان ، سندرك الفرق واضحا بين ما نقضه الاسلام بالأمس ، وما يشيده فكر الاسلام والثورة اليوم، فعلام الخوف اذن ؟ ... ولصالح من هذا الخوف عندما نمالىء النظام الرأسمالى الغربى ، ونعلن عن سعادة العمال داخل النظام الغربى ؟ ... لصالح من عندما نغمز المساواة الاشتراكية فى بلادنا وهى دعوة الاسلام ، ونستخف بدعوة القوة بالتنمية وهى دعوة الاسلام ، ولا نؤيد دعوة الوحدة بين العرب وهى أول وحدة ذكرها القرآن وقام عليها الاسلام ؟

ان أصوات الجزع على الدين ، والهمهمة بالخوف من المذهب الشرقى هى ترجمة حرفية لمخاوف الاستعمار الغربى وأمريكا من الأسلحة الشرقية فى أيدى جيش مصر الذى يواجه بشجاعة جيش اسرائيل المسلح بالأسلحة الغربية ... ان الجزع هو من استخدام هذه الاسلحة والأسلحة بطبيعتها غير ملحدة ... ولكنها فى ايدى المصريين المؤمنين ترد على الحاد السياسة الصهيونية العدوانية ، وعلى الحاد الضمير

الامريكى حين يوافق على تزويد اسرائيل المعتدية بالأسلحة الأمريكية!!

وثمة مجالات غريبة لا تزال تهدر فيها طاقة لغتنا العربية ، التى هى اداة تنميتنا الفكرية ، ووحدتنا الاعتقادية ، ... هـذه المجالات لا تخرج عن كونها عمليات شعوذة عقلية للشغل بالتوافه ، والصرف عن الحقائق . من مثال ما ينشر فى بعض الكتب والصحف مما لايغيب عن الجماهير الجادة ادراك ما وراءه من غايات ومقاصد ، ونحن نخوض غمرات هذه الحرب المصيرية الطاحنة الطويلة التى لا هزل فيها للجادين، ولا بقاء بعدها لغير المنتصرين ...

كيف نستكشف هدفا انسانيا من نشر كتاب خرافى عن « الجن » يصدر فى يوليو ١٩٧٠ فى عيد الثورة ، وذروة نضال أمة ... كتاب كان من الممكن ــ مع استبعاد ذلك ــ ان يكون علميا ، وذا جوانب كشفية لهذا « الخلق» الذين ورد ذكرهم فى القرآن ... ولكن المؤلف يحشد خرافات اليهود المتعمدة فيضعها فى متناول القارىء العربى فى هذا الشهر ... فبدلا من دراسة مرشدة فى واحدة من القضايا العديدة التى تشغل بالنا يحدثنا المؤلف ــ غفر الله له ــ عن قبيلة من الجن اسمها « بنو الشيصبان » ... ثم يتفضل فيعرفنا بجماعة أخرى اسمهم « العضرفوط » ... ثم يزيد علينا تفضلا بالعلم « الجنى » فيؤكد لنا ان الجن نوعان ، أعلاهم وأشدهم « الجن » ... أما أضعفهم وأذلهم فهم « الحن » !! وان العرب كانوا يعايشون الجن والحن معا ، يركبونهم فى أسفارهم ... ويتزوجون نساءهم ... ويتعلمون منهم الشعر !! ... أليس هذا عجيبا ؟ الا أن الأعجب من ذلك انه حين تهب زوبعة فان العامة ــ قديما ــ كانوا يصيحون « عمر ... عمر » ويقصدون عمر بن الخطاب ، فكان الشيطان الذى يحرك الزوبعة يخشى اسم عمر فيختفى ويذهب بمشيئة الله ! ... بقى ان المؤلف لم يذكر لنا هل الذين اغتصبوا أرضنا فى تلك الزوبعة العدوانية من الجن أم من الحن !! ... وهل اذا قلنا « عمر ... عمر » دون عقيدة وخطة ، وجيش وعمل ، وتصميم ووحدة ، وجهاد واستشهاد ــ هل يذهب شيطان هذه الزوبعة الشيطانية

الاسرائيلية ... أم انه لابد من العقيدة والخطة والجيش والعمل والجهاد والاستشهاد ؟ ... فلماذا أراد المؤلف أن يشغلنا عن كل ذلك ؟ !

وموضوعات أخرى فى بعض المجلات الاسلامية التى لا تزال تجر أقدامها لتعايش واقع الأمة ، وتصحح اتجاه الكلمة المؤمنة ، والجهد العام ... لا يزال بعض العلماء والفضلاء يتكلمون عن « المهدي المنتظر » ... وعن القرين أهو شيطان أم غير شيطان ... وعن نعش الرجل الصالح هل يطير أم لا يطير ... قال بعضهم فى مناظرة حامية : ان النعش لا يطير الا بارادة حامليه من المتهوسين لذلك لم يحدث قط أن سيارة الموتى طارت بمن فيها !! ... فاجابة العالم الفاضل الآخر واثقا : « حرام يا أخى ... ولم لا ... ان العلم الحديث يؤكد ذلك !! » اعجب ما فى الأمر أن الموتى يحلمون بالحياة ، أما أن يحلم الاحياء بالموت ، ويعيشون قصص الموت وهم أحياء ... أحياء بالتنفس... وأحياء بالايمان ... واحياء بالعلم فهذا مالا يستقيم تصوره مع قيام الحياة ! ... فاذا كانوا موتى فلماذا لا يعيشون ... والله سبحانه يقول ما يرددونه كل يوم دون فهم « أومن كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى النـاس كمن هو أعمى ... » ! ... لماذا لا يولدون من فوق ، مرة أخرى ، بالايمان ! ؟

هذه صور عابرة لبعض الذنوب الصغيرة ، التى تكون مع الوقت كبيرة ... ذنوب فى استخدام اللغة ، وذنوب فى فهم الدين ، وذنوب فى تصور القومية ... قد تتلاشى كلها فى شعاع الصحوة ، وتنصهر فى الجهاد ، وتؤجر بالتوبة عنها فى مجال الانابة ...

ولكن اذا كان للقومية اعداؤها فى الغرب ، وفى الحركة الصهيونية فان لها فى طبيعة بلادنا ، واتساع أوطاننا ما يجعل القومية فى منعة من أعدائها ، وحصانة بمقوماتها فى المناخ الدال عليها ، والمنبه اليها ... فكثيرا ما ضاقت الأرض علينا بالعدو فكان فى حياة الجماعات المؤمنة بالحرية ، والآبية للذل ، والحافظة للدين واللغة والتراث وهى تتحرك من مكان لمكان ، ومن شعب الى شعب ، ومن زمن الى زمن صون لهذه

المقومات والمقدسات فى صدور هذه الجماعات الحرة المتنقلة دون أن تجد حرجا ، أو تحس اغترابا ، أو تذهب بددا ... هكذا انتقلت الشعلة والجذوة والقبسة على أرضنا من بلد عربى الى آخر . لقد وجد الأحرار الجزائريون ملجأ من الفرنسيين فى الشام ، ووجد الشاميون ملجأ من الفرنسيين فى مصر ، وعاشت جماعات كثيرة فى الصحراء تحفظ الدين واللغـة والشيم كما تحفظ النطف خصائص الوراثة ، وكمـا تحفظ الصدور محكمات الآيات !

انه دائما كلما وقع الخطر الأعظم على العرب حدث فى مواجهته التجمع الأعظم للعرب . حدث فوق أهواء الأفراد ، ونوازع الفئات ، وملء يقين الجماهير ... انه يحدث دائما من حيث لا يحتسب أحد .. يحدث فوق توقعات العدو ، وتجاوزا لفهمه وظنه ... انه يحدث عند تهديد الوجود الذى هو الأرض واللغة والعقيدة ... انه يحدث تماما كما نراه يحـدث اليوم ... انه يحدث كما نرى أنفسنا بالتجمع نسير وتتعلم ، ونستثمر ونبذل ، ونقاتل ونستشهد ... لئن كان ذلك فى انجازاته لا يزال أقل من أمانينا ، الا انه فى حساب الممكن أسرع وأعظم من قدراتنا ...

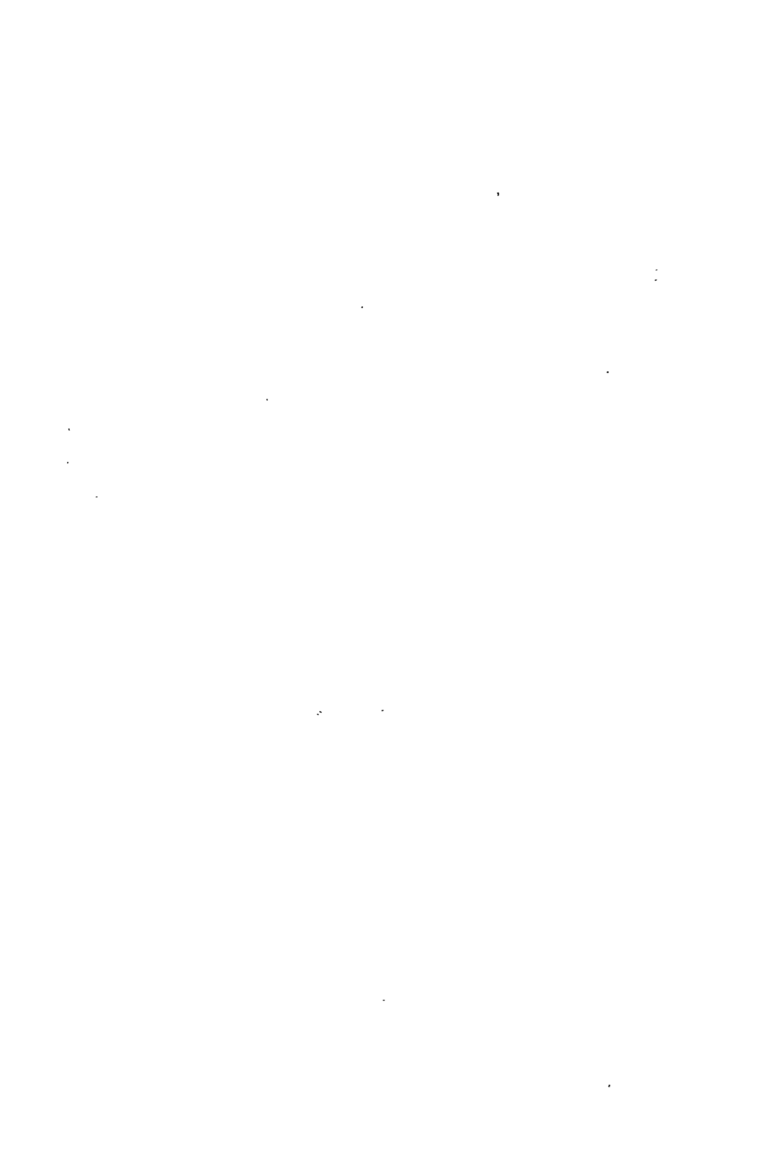
نحن اذن نبنى وتتجمع ، تحت راية حرية وعـدل ووحدة ... تحت ظلال شجرة عظيمة خضراء ، زيتونة لا شرقيـة ولا غربية ... يزداد بجهادنا نموها واخضرارها وازدهارها كل يوم ... شجرة يمتزج فى ترابها دم المسلمين والمسيحيين وعرقهم ، فى وحـدة لا تنفصم ، وعهد لا يزول ... كما كنا بالأمس نكون اليوم ، ونكون غدا ، وبعد غد ... تحت هذه الشجرة العظيمة التى غرسها لنا الايمان فى أرض الوطن ... غرستها يد الله المبـاركة ... شجرة القوميـة العربية ... الدينية ... المؤمنة !

هـذه هى آفاق قوميتنا بوضوح ... ولكن ما هـو الأساس الموضوعى لحركتها ... لوجودها الصحيح وقدرتها على التحقيق ؟ ..

الأساس هو انطلاق المحتوى الاشتراكى فى بنائنا للحياة الجديدة بالثورة ... ان نبنى الاشتراكية بتطبيقاتها العربية ذات الجذور المؤصلة فى تاريخنا البعيد ، وفى فكرنا الدينى المتدفق ... فى جوهر هذا الفكر المتوازى مع قوانين الحياة والوجود والكون ... وان تحمل تبعة البناء فى كل اقليم عربى طليعة عربية ثورية ، وتنظيم اشتراكى نشط ، وان تتلاقى أدوات الثورة مع الوقت الطبيعى لنضجها وتوحدها فى اداة واحدة للثورة ... ودولة واحدة للامة ...

... وأن تكون اللغة العربية دائما ، المنظم المعنوى التاريخى والذاتى لوحدتنا ، هى التى تصنع وتصوغ وتبنى هذا النسيج الجديد الواحد ، للكيان الواحد ، والحياة الواحدة ، لهذه الأمة العربية الواحدة ، ذات الأداة الثورية الواحدة ، والدولة الواحدة ، والتنظيم الواحد ، فى اتجاه المستقبل العريض ... دون حدود أو سدود ؟ فهى بيد الله المباركة ــ كما كانت ــ تعود فى صورة الحاضر ... وتزدهر !

* * *



الإسلام والإشتراكية العلمية

« ان ما يحدث الآن فى هذا العصر
هوطور هام فى تاريخ الانسان، يتلاقى
فيه « الالاهي والبشرى » من النظم
الثورية ، التى تتوخى بالعلم بناء
المجتمعات الإنسانيةبالكفاية والعدل.
وفى هذا اللقاء المقدور تتجه حركة
مئات الملايين من البشر المسلمين
والمسيحيين الى ارادة التحرر
الاجتماعي الاشتراكى ، ولكن على
قاعدة الايمان بالله الذى هو امتداد
رؤيتها الدينية منذ فجر التاريخ »



١ — تساؤلات . .

فى يوليو ٥٢ قامت فى مصر ثورة «شعبية تقدمية» .. وفى يوليو ٦١ صدرت مجموعة القوانين الاشتراكية التى تأصلت بها قاعدة للملكية العامة لوسائل الانتاج .. وفى مايو ٦٢ صدر الميثاق الوطنى ليقدم أساسا فكريا للشكل والتطبيقات العربية التى أخذت بها مصر الثورة « ج.ع.م » فى الاتجاه لبناء المجتمع الاشتراكى ، وفى هذا الأساس الفكرى تأكيد للايمان الذى لا يتزعزع بالله ، وبالكتب والرسل ، والبعث والحساب ، الأمر الذى يشكل خلافا جوهريا فى الأساس العقائدى للاشتراكية العلمية أى للماركسية اللينينية ..

تتيجة لتطبيق القوانين الاشتراكية سنة ٦١ فى مصر ، ولصدور الميثاق سنة ٦٢ كان طبيعيا أن تنشط التساؤلات من كل اتجاه لمحاولة التحليل والكشف عما وراء هذه « التطبيقات العربية للاشتراكية » فى طبيعتها وفى مسيرتها . فمن مراكز الاقطاع والرأسمالية فى الوطن العربى يقع التشكيك فى امكان تأصيل هذه التطبيقات العربية للاشتراكية على مبادىء الدين وغاياته ، ويتلاحق الادعاء بأن هذا الشكل العربى للاشتراكية هو مرحلة نحو الاشتراكية بمفهومها فى الماركسية اللينينية ، وليس نحو تأصيل قيم ومبادىء الدين ..

ويهتم المسلمون فى العالم الاسلامى الكبير بموضوع العلاقة بين الاسلام وهذه الاشتراكية التى نطبقها من أجل أن يطمئنوا الى أنه لا توجد علاقة « عقائدية » بين هذه الاشتراكية التى نطبقها وتلك الاشتراكية التى لا نطبقها ، أى الاشتراكية الشيوعية ، حرصا على أن تبقى مصر كما هى قيادة وطليعة للمسلمين فى العالم .

ويتساءل الشيوعيون أنفسهم — بأكثر من طريقة غير رسمية — أى فى حواراتهم الجانبية مع الاشتراكيين العرب عن جدية وامكانية

الجمع فى فكر العرب الاشتراكى بين الاشتراكية العلمية المؤسسة فى بنائها العقائدى على العلم ، وبين الدين الذى يقوم بناؤه على مقررات صادرة من مصدر فوق العلم ، أو وراء العلم ، وهو فى نفس الوقت مصدر لا يستطيع أن يؤكد العلم صحته بوسائل وأدوات العلم .

كذلك فان الاشتراكيين العرب ــ وهذا هو المهم ــ لا يجدون لأسباب تاريخية تتعلق بتعدد المفهوم الواحد للدين ، وتضارب الأقوال المعاصرة فى جوهره ــ هذا الاشباع العقائدى الكافى ، الذى يكفل بالوضوح كشف وتحديد العلاقة فى التكوين والبناء النظرى بين الدين ، والاسلام بالذات ، وبين التطبيقات العربية للاشتراكية ، وبالتالى كشف وتحديد الموقف المقارن من حيث نقط الاتفاق ونقط الاختلاف بين الأصول الفكرية لهذه التطبيقات العربية للاشتراكية وبين الاشتراكية العلمية بمفهوم الماركسية اللينينية ...

ان هذه التساؤلات كلها تجعل من الحتم ونحن نبنى من خلال الثورة فكر وتطبيقات الحياة السياسية والاجتماعية للامة العربية أن نعرف على وجه اليقين ، ودون أى لبس ، شكل وطبيعة هذا الامتداد العقائدى بين الدين أو بين الاسلام وبين هذه التطبيقات العربية للاشتراكية .. ان علينا أن نكتشف أو أن نكشف عن هذه الأنهار والقنوات المردومة ــ تحت ركام القرون الطويلة ــ التى تصل بين المنابع العقائدية للدين الصحيح وبين مصباته العقائدية بمفهوم ثورته الانسانية والتقدمية فى هذه التطبيقات العربية التى نأخذ بها فى بناء المجتمع الاشتراكى الحديث ..

ان جميع هذه التساؤلات ــ من الأعداء والأصدقاء ومن القوى الثورية العربية نفسها ــ تفرض علينا واجب الدراسة الصحيحة لجوهر رسالة الاسلام فى ضوء الكشف عن طبيعة الفكر الاشتراكى والثورى والتقدمى والانسانى فى عقيدته حتى تتحدد تماما هذه العلاقة العضوية بالمفهوم ، والممتدة فى الزمن ، بين الاسلام وبين تطبيقاتنا العربية للاشتراكية ، ومن ثم يتاح لنا أن نضع الاسلام فى جوهره الصحيح الى

جانب الاشتراكية العلمية « الماركسية اللينينية » عند أقرب مسافة قياسية بينهما للتنظير تساعد على مقارنة أحدهما الى الآخر ، هذه المقارنة التى تكشف فى الضوء — على الرغم من نقاط الخلاف المتعددة — امكانية الحركة المشتركة بينهما نحو الأهداف المشتركة ، دون تصادم أو فتور ...

اننا نحن العرب — مسلمين ومسيحيين — أبناء هذا الوطن العربى الذى نزل به الدين ، والذى قرىء به ولا يزال يقرأ القرآن والانجيل — نواجه فى هذا العصر ضرورة الكشف عن هذا الاتساق القائم بالفعل بين الايمان والثورة الاشتراكية والتقدم .. هذا الاتساق الذى يؤكد اكتشافنا له صحة استحضارنا واستعادتنا لمقومات وجودنا العربى ، فى هذه المرحلة من التاريخ التى نعيد فيها على أرضنا بناء الحياة ، ونواجه فيها مسئولية احباط خطط العدو ، ونحمل فيها عبء حماية ودعم الثورة ..

لذلك .. فان دراسة لجوهر الاسلام فى ضوء ما فى مبادئه الثابتة من الطبيعة العامة للاشتراكية ، ثم الكشف فى ضوء هذه الدراسة عن نقاط الاتفاق ونقاط الاختلاف مع الاشتراكية العلمية — هما معا واجب أساسى فى مجرى التثقيف العام ، ومجال التثقيف السياسى ، يقدم بالوضوح والتحديد والحسم جوابا صحيحا وضروريا لكل التساؤلات المطروحة حول هذا الموقف العقائدى ، كما أنه فى نفس الوقت يصنع بامتصاص هذه التساؤلات طريقا وانفراجا فكريا تنشط فيه على جذور عقائدية صحيحة ونامية ومستهدفة — قوى الثورة العربية فى كل مكان ...

٢ — منابع التطبيقات العربية للاشتراكية

ونجعل البداية فى الدراسة من التطبيقات العربية للاشتراكية ، هذه التطبيقات التى حددها الميثاق ، والتى تزيدها القيادة السياسية وضوحا مرحلة بعد أخرى ، والتى تسير فى مجرى تطورها الطبيعى مع الأحداث على أصولها التى بدأت منها ، والتى تشترك مع الدين ، والاسلام ، فى نقاط اتفاقه ونقاط اختلافه مع الاشتراكية الماركسية تؤكد امتداد أصولها وجذورها الى تراث الأمة العربية فى فكرها الدينى ، والاسلامى بخاصة ..

** ما هى نقط الاتفاق بين تطبيقاتنا العربية للاشتراكية وبين الاشتراكية العلمية الماركسية ؟

* الجواب أنهما يلتقيان فى النقاط الآتية من ناحية مقومات البناء الاجتماعى للمجتمع بعد الثورة :

١ ــ مبدأ الملكية العامة لوسائل الانتاج .

٢ ــ مبدأ أن العمل هو مصدر كل الحقوق السياسية والاجتماعية للمواطنين .

٣ ــ مبدأ أن البناء التقدمى للمجتمع يقوم على أساس العلم والتخطيط .

* ثم هما يلتقيان أيضا فى النقاط الآتية من ناحية الأهداف الاستراتيجية للاشتراكية :

١ ــ محاربة الاستغلال وأية أشكال أخرى للتميز الطبقى .
٢ ــ محاربة الاستعمار والامبريالية .
٣ ــ محاربة العنصرية وسياساتها الفاشية .
٤ ــ تأييد ودعم السلام العالمى .

٥ — تأييد التعاون بين الشعوب من أجل الرخاء للمجتمع البشرى .

** فى ثمانية نقاط تتفق تطبيقاتنا العربية للاشتراكية مع الاشتراكية العلمية الماركسية ، والآن ما هى نقاط الخلاف بينهما ؟

* الجواب أن الخلاف يقع بينهما فى النقاط الآتية :

١ — التطبيقات العربية للاشتراكية ترتكز عقائديا على قاعدة الايمان بالله ، بينما الاشتراكية الماركسية تقوم على الالحاد، أى على الغاء فكرة الله من موقفها العقائدى تماما . ومعنى أنها تلغيه فى أيديولوجيتها يختلف عن قولنا أنها تغفله ..

٢ — فى التطبيقات العربية للاشتراكية يتولى السلطة « تحالف قوى الشعب العاملة » بينما فى الاشتراكية الماركسية تمسك طبقة العمال وحدها بالسلطة .

٣ — الديمقراطية بمفهوم التطبيقات العربية للاشتراكية مباشرة أى هى ديمقراطية كل الشعب بالطريق المباشر ، بينما الديمقراطية فى الاشتراكية الماركسية « مركزية » تقوم على أساس « الوصاية » أى على أساس نظام الحزب الحاكم ، المستمد من مبدأ دكتاتورية البروليتاريا. وهكذا يبدو فى بناء النظام الشيوعى أن تركيز السلطة فى يد « الطليعة الواعية » هو القاعدة الأساسية للايديولوجية والديمقراطية ...

٤ — تؤكد التطبيقات العربية للاشتراكية ايمانها بالقومية العربية بينما تسير الاشتراكية الماركسية فى اتجاه دعم الطبقية الدولية أو الأممية العمالية أو « قومية كل عمال العالم فى العالم » ..

من هذه النقاط للاتفاق والخلاف بين تطبيقاتنا العربية للاشتراكية وبين الاشتراكية الماركسية نكتشف أن تطبيقاتنا للاشتراكية تأخذ بوضوح — فى موضوع الاشتراكية — جانب الرؤية العربية التى يحددها التراث والواقع والنظرة الاختيارية الى تجارب الأمم الأخرى . ومعنى هذا أن التطبيقات العربية للاشتراكية تأخذ الموقف الذى يمكن أن يأخذه الاسلام من الاشتراكية الماركسية اذا ما أمكن اجتذابه وتحكيمه — بالقياس اليها — فى قضايا المجتمع الانسانى المعاصر ...

من هذه النتيجة ينطلق سؤال بالغ الأهمية وهو :

** « هل تطبيقاتنا العربية للاشتراكية هى تطبيقات اسلامية معاصرة ؟ ... بعبارة أخرى ... هل هذه التطبيقات هى الشكل التحقيقى للمبادىء الاسلامية على قضايا وعلاقات العصر التى لم تكن مشكلاتها قائمة فى صدر الاسلام الأول .. أم أنها نشاط بالتطبيق على جذور عقائدية مغايرة ؟

* تقودنا الاجابة الى الطريق الصحيح لدراسة أساسية للاسلام فى اتجاه الكشف عما فى مبادئه الثابتة من طبيعة الفكر الاشتراكى، ومن مقومات ثورة التغيير للمجتمع الانسانى على أساس الجماهيرية والعدالة والتقدم . كذلك الكشف عما بين الاسلام والاشتراكية العلمية من نقط اتفاق كثيرة تمتد على طريق واضح للعلاقات الايديولوجية المتوازية بينهما ، هذه العلاقات التى وان تكن غير متلاحمة الا أنها فى أكثر مجالات التطبيق ليست متناقضة ...

* * *

٣ — ما هو الاسلام ؟

** سؤال من وجهة النظر الى قضـايا العصر واهتماماته والصراع البشرى فيه .. ما هو الاسلام ؟

* الجـواب : الاسلام دين الله ، بمعنى أنه تفسير للحياة على أساس « مشيئة الله الواحد » ، ثم الالتزام بهذا التفسير الذى يتم نتيجة « ايمان » أى تصديق من طريق العلم المباشر ، أو العلم بالاستدلال بأنه « الله » الذى «ليس كمثله شىء» ، والذى هو صانع ومحرك ومدبر هذا الكون ، ومن فيه ، وما فيه ، بين الأزل والأبد ، على أساس وحدة هذا الكون ، واتساق قوانينه ، وتساوى وحدات أجزائه وأشيائه أمام هذه القوانين . كذلك فان العبادات والشرائع والنظم الاجتماعية والاقتصادية التى أوحى الله بها الى أنبيائه ، والى محمد ، هى موضع تصـديق كامل ، وتطبيق أمين ، ومسئولية مقررة من الأفراد تجاه المجتمع ، ومن المجتمع تجاه الأفراد ، ومن كل فرد تجاه نفسه ، من حيث أن هذه الشرائع والنظم هى أساس قيام «مجتمع المؤمنين» الذى ليس فيه واحد من البشر أكثر من واحد ، ولا واحد أقل من واحد ، وأن الجميع سـواء فى موقفهم البشرى أمام القانون الأعلى عليهم وعلى كل شىء وهو الله » .

هذا تعريف للاسلام من وجهة النظر الى موقفه العقائدى . واما من وجهة النظر اليه كمنهج لبناء المجتمع فان تعريفه على أساس مقوماته الاجتماعية يكون كالآتى :

« الاسلام هو نظام الاهى فى تشريعه ، وعلمى بتجربته ، وهو يقوم على بناء المجتمع عن طريق بنائه الانسانى للفرد ، والقيادة فى هذا المجتمع جماعية بين أبنائه الذين هم بالايمان عباد الله ، وأخوة بين أنفسهم ،

وسادة على الموارد المسخرة لهم . والذين يقيمون مجتمعهم على أساس أن العمل هو مصدر الحقوق والدرجات للافراد فى هذا المجتمع ، وعلى أساس أنهم من نقطة الاخاء بالايمان شركاء بالعمل فى الموارد والثمرات والأموال التى هى فى المجتمع وفى أيدى المؤمنين أموال الله . وعلى أساس أن هذه المشاركة تعنى بالوازع وبالالزام أن يعـود « فائض الحاجة » فى يد كل فرد ـ أى ما يفيض عن حاجاته الاساسية ـ الى أيدى أخوته الآخرين ، أى الى المجتمع الذى يتحرك بهذه الأموال على أساس العلم المستمد من تجربة الايمـان ، الى العمران ، والانفتاح بالسلام على كل العالم » .

من هذا التعريف نبدأ فنسأل ونبحث عن هذه المجالات التى تبرز فيها علاقة الاسلام الواضحة بالمفاهيـم العامة للاشتراكية العلميـة فى مضمونها الاجتماعى ، أو كيانها الجماهيرى ، أو أساسها العلمى ، أو اطارها الثورى ، مع أن الاسلام سابق كثيرا بالزمن لمولد الاشتراكية العلمية الماركسية فى العصر الحديث ... !

* * *

٤ — معنى أن بلادنا مهد الدين

منـــذ القرن العشرين قبل الميلاد ــ على الأقل ــ بدأ ظهور الدين الالاهى الذى يمكن دراسة دعوته ومناقشتها فى ضوء حاجات ومفاهيم العصر الاشتراكى الحديث ، وهو دين ابراهيم ، الذى هو دائما دين واحد متعاقب ، قائم على نفس الدعائم والخصائص الاعتقادية فى تفسير الحياة بمفهوم مشيئة الخالق القادر الذى « ليس كمثله شىء » الخالق الذى هو الله ، ودينه الذى هو الاسلام ..

ولقد كان ظهور الدين ، أو دعوة الاسلام الى الله ، فى أجـــزاء متعددة من منطقة واحدة هى الصحراء العربية ، فلم تتجاوزها الى منطقة أخرى ، جديرا بأن ينبه بتواتر هذه الظاهرة الى علاقة أساسية بين البناء العقائدى للدعوة الدينية وبين اقتراب هذه الدعـــوة ــ فى مراحلها المتعددة وبشكل مباشر ــ من منطقة « الشيوعية البدائية » فى اصطلاح الاشتراكية العلمية التى هى المرحلة الأولى التى تتمتع « تلقائيا » فى أول طريق التطور الاجتماعى للعـــلاقات الانتاجية ــ بشكل « طبيعى » للاشتراكية .. بشكل تتم فيه دون ثورة حالة الاستجابة أو « الاسلام » الى القوانين الطبيعية ... حيث يتم بالطبيعة ، ودون صراع وضع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية فى اتساق مواز لهذه القوانين ... حيث تنشأ من غير « تنظيمات سرية » ولا « فلاســفة حزب » ولا « مســيرات احتجاج » جميع مقومات المجتمع الاشتراكى الحديث وهى الملكيـــة العامة لوســـائل الحياة والانتاج مثـــل الماء والكلأ والنار ، واعتبار « العمل » مصدر التقييم لدرجات الأفراد وأساس حقوقهم فى هـــذا المجتمع القبلى ، الذى هو تنظيم متحرك ، ثم قيام كل طرق التنميـــة لهذا المجتمع الذى هو « مؤسسة اقتصادية فى مسيرة دائمة » على أساس التخطيط العلمى الوثيق بحسب المعلومات « العلمية » المتوفرة مهما كان قدرها ..

حول المجتمع القبلى البدائى ، وفى منطقة المسلمات الطبيعية ، والرصد لحركة القوانين الكونية المتسقة ظهر الدين ليعيد بدعوته أولئك الذين يؤمنون به الى هذه المقومات الطبيعية المستخلصة من مجتمع « الاشتراكية البدائية » بعد صهرها فى صياغة انسانية شاملة ، تذوب فيها حدود القبيلة لتتحد فى شكل أمة المؤمنين ، ولتنفتح فى شكل الأمة والدولة على العالم الانسانى بعلاقات تبادل العلم والرخاء وتنمية السلام .

الدين اذن دعوة لاعادة المؤمنين به الى هذه القواعد الأساسية للاشتراكية التى تمت فى الطبيعة من غير صراع ... تمت من التلقى المباشر والاستجابة التلقائية لأمر قوانين الحياة فى الطبيعة ، انه يردهم الى قاعدة الملكية العامة لكل الأموال ، وقاعدة حساب درجات البشر بقدرتهم على « العمل » من أجل الجميع ، وقاعدة فهم الحياة وبنائها فى ضوء الواقع والعلم ، وذلك بعد أن يفسر لهم وحدة هذه القواعد واتساقها حول مركز أساسى هو الايمان بالله ، المحرك للقوانين المتسقة حولهم .

ان علاقة الدين أساسية اذن بالاشتراكية من مصدرها الطبيعى وهو العلم ، لأن الدين وهو يعمل على أن يرد المؤمنين به الى قواعد الحياة — المستمرة فى شكل الاشتراكية البدائية من ايحاء القوانين الطبيعية وسلطانها على الجماعات المتحركة فى حياة فطرية أولى — انما يرجع الى نفس المصدر الذى أخذت منه الاشتراكية العلمية فكرها وهو « القوانين الطبيعية » الا أن الدين الذى ظهر فى منطقة « التلقى المباشر » من القوانين الطبيعية أضاف التفسير الأساسى لاتساق هذه القوانين .. أضاف التفسير الذى يملأ الفراغ القديم والحديث فى ثغرة المعارف الانسانية ... أضاف التفسير الذى لا يزال يعوز أيديولوجية الاشتراكية العلمية وهو اليقين بأن هناك فوق القوانين التى تحرك المادة ارادة عليا تكفل أن لا تختل ولا تتصادم هذه القوانين .. هذه الارادة العليا على قوانين المادة ، وعلى كل شيء ، هى الله فى تفسير الدين ..

هناك خلاف لا يمل الماديون من تكراره ضد هذا التفسير يبدأ من التشكيك فى الوحى .. والصورة التى تقدمها هنا عن مجال العلاقة الأولى — فى منطقة ظهور الدين — بين الدعوة الى الله والمقومات الأساسية للاشتراكية الطبيعية تساعد على تقريب تصور الوحى بأنه « مؤثر خارجى ينقل الى الانسان مشيئة هذه القوة المهيمنةعلى القوانين الكونية فى أن يفرض الانسان هذا الاتساق العلمى لهذه القوانين على حياته وفكره وعمله وعلاقاته وغايته . هذا المؤثر يحتاج تلقيه الى مستوى عال من الحساسية العقلية والنفسية بالكون وحركته » ، وهى فى أعلى مستوياتها تبلغ درجة « النبوة » أى التلقى المباشر من الله بالكلمة المسموعة ، والآية الواضحة ، وما كان من الممكن أن يتضح مثل هذا الحس بحركة الكون ، وتتوفر هذه القدرة على التلقى المباشر من الله فى غير هذه المنطقة التى ظهرت بها دعوة الدين ، وعاشت بها « المنظمات القبلية » على قواعد « الاشتراكية الطبيعية » والتى تتيح لأبنائها تحويل النظرة التأملية الداخلية لفكر الانسان الى انفتاح خارجى شامل وممتد ونافذ فى الطبيعة ، وحركة قوانينها ... انفتاح بالقلب والعقل قادر على أن يتسمع فيما وراء الآفاق المرئية الى ملكوت السماوات والأرض ليستوحى ويستهدى القوة العظمى التى تدبره بالمشيئة والعلم ...

* * *

٥ — الجماهير فى دعوة الدين

فى هذه الأجزاء المتفرقة من منطقة واحدة فى وطننا هى الصحراء العربية بزغت دعوة الدين فى رسالة كل من نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم واسماعيل ومحمد ، وحتى فى دعوة موسى والمسيح ، بزغت هذه الدعوة قريبة من المجتمع الطبيعى النشط ، المجتمع القبلى الذى خرجت منه بالتحقيق العلمى كل أصول ومواد الحضارة العلمية مثل — القوانين واختراع الكتابة والمنهج العلمى والعلاقات الانسانية ... بزغت قريبة من مجتمع الرعاة العرب المتحرك والمنتظم على قواعد الاشتراكية الفطرية ، المستوحاة لأفراده من ملامستهم اليومية لحركة القوانين الطبيعية ، ومن تسمعهم لنداءاتها الواضحة لهم فى الأشياء التى يرونها ، وفيما وراء هذه الأشياء ...

هنا يعرض لنا سؤال عن حاجة الجماهير فى هذه «المناطق الطبيعية» الى الاستجابةلهذا التغيير الثورى ، التغيير المفاجىء — بدعوةالأنبياء — لشكل الحياة والعلاقات فى مجتمعهم الطبيعى ، أو القريب من الطبيعى، مجتمعهم غير المثقل بمشكلات الصناعة ، وغير المضغوط بأى طبقية مستغلة ، وغير المقهور بعنصر خارجى مستعمر ..

هل هذهحاجة العبيد الذين يتألمون فى هذا المجتمع من قسوة سادتهم فيقوم رجل من هذا المجتمع هو « نبى » يتلقى الوحى من الله لتخليص هؤلاء العبيد من سيطرة السادة والكبراء واستغلالهم .. ؟ اننا نلاحظ فى قصص الأنبياء أن العبيد أول من يبادر الى الايمان بهذه الدعوات الدينية ، ولكن هذه الفئة التى يقع عليها ضغط التميز لا تمثل فى تلك المجتمعات البدائية شكلا من أشكال الاضطهاد الذى يحرك ثورة . فهؤلاء « الرقيق » كما يسميهم الأحرار فى هذه المجتمعات تلطفا بهم يصلون الى أسواقها نتيجة الحروب الضارية بين الامبراطوريات القوية المحيطة بالوطن العربى ، أو المستعمرة لبعض أجزائه ، والتى كانت

تقاليدها قتل الأسرى أو بيعهم رقيقا ، وهكذا عند قيام محمد عليه الصلاة والسلام بالدعوة الى الاسلام كان الفرس قد باعوا الى العرب « صهيب » الرومى ، وكان الروم قد باعوا الى العرب « سلمان » الفارسى ، وكان الروم أو الفرس قد باعوا للعرب بلال الحبشى ، وكان دور العرب فى مرحلة قيام ثورة التحرير بالاسلام هو رعاية هؤلاء الرقيق قبل الاسلام ، واعادة حريتهم اليهم بعد الاسلام ..

ومع ذلك بعد تلك القرون الطويلة ، بما جاءت به الينا من التراكمات المتتابعة ، والتحريفات المدسوسة ، وآثار الاستعمار بكل ألوانه لابد للمسلمين العرب وهم يحاولون التحقق من البناء العقائدى للدين ، ومن فهم أسباب ظهوره فى مجتمعات بعينها فى وطنهم ، ومن تحديد طبيعة الثورة واتجاهاتها فى الأفراد والجماهير من القاء الضوء على قضايا كثيرة أساء السابقون من علماء مرحلة الانحلال عرضها علينا ، وهم متأثرون بفكر القوى الأجنبية والدخيلة ، وبطبيعة عصور الانحلال للسلطة العربية والاجتماعية الاسلامية منذ القرن الثانى للهجرة — هذه القضايا هى فى بحثنا بمفاهيم العصر عن شكل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، والتى تحمل تناقضاتها بذور الثورات هى « الطبقية » وقضية « العدل الاجتماعى » الذى هو موضوع الاشتراكية ... لابد لنا من المرور بهذه القضايا لنحدد موقف العرب منها بصفة خاصة قبيل الاسلام ، وبالتالى موقف المجتمعات المشابهة التى ظهر بينها الدين بنفس الأساليب وعلى نفس الشرائع ، والى نفس الغايات .

* * *

٦ — قبلية وليست طبقية

اذا أخذنا عرب الجزيرة قبيل الاسلام مثالا على مجتمع الدين لندرس فيه قضية « الطبقية » فلن نجد صعوبة فى ذلك لأن قيادة هذا المجتمع موصوفة فى القرآن بتفاصيل كثيرة ، وهى قريش ...

هل كانت قريش تمثل طبقة بالنسبة للعرب ؟ ... وهل هى فى بنائها الاجتماعى كنموذج للقبائل تقوم على نظام طبقى ؟ ... وأخيرا هل كان العرب جميعا ـــ على عهد الدعوة الاسلامية فى جزيرة العرب ـــ يعرفون نظام الطبقات ؟

نحدد الاجابة فى النقاط الآتية :

١ — كان المجتمع العربى ـــ فى مرحلة ظهور الدين وظهور الاسلام ـــ مجتمعا قبليا ، لم يشذ عن ذلك فى أى مرحلة من مراحل الدعوة الدينية خلال آلاف السنين . ولا يزال هذا المجتمع الى اليوم ـــ فى بعض مواضعه ـــ يعيش قبليا كما كان تماما ، على أساس حركة وعرف القبيلة ، التى حفظت لنا الطبيعة شكلها كما كان فى نوع نشاطها وعلاقاتها وبنيتها الاجتماعية ، ومجال حركتها ، كما لو كانت كتابا حيا فى مكتبة الطبيعة التى لا تفنى أشكالها ، لذلك فان أية معلومات عنها يمكن مراجعتها على الأمثلة الحية التى لا تزال قائمة ..

٢ — معنى القبيلة الاجتماعى : الأسرة الكبيرة أبناء الأب الواحد ، ومعناها اللغوى « مجتمع النظراء » الذين يتلاقون وكل منهم فى مقابل الآخر ، فى كل مهام واعباء وأهداف حياتهم الواحدة . فالمقابلة هى المواجهة ، والقبلة هى الاتجاه ، وقبل هى ضد بعد ، اذن فالقبيلة هى مركز اتجاه أفرادها ، الذين يجتمعون بالتكامل

والتقابل على عقيدة وجودها ... وليس فى هذا الاساس أى قدر من الطبقية أو العلاقات المتناقضة التى توجب تسلط بعض القبيلة على بعضها الآخر ...

٣ — الأساس الاقتصادى للقبيلة فى بيئتها هو الرعى أولا ، وحراسة التجارة اذا كانت على طرقها ، ليس مجتمع القبيلة زراعيا ، ولا صناعيا بالمفهوم الاقتصادى الحديث . والزراعة القليلة لا تزيد عن رمى البذور ، أو غرس النخل ، او الحدائق القليلة على بعض الينابيع ... لذلك فليست هناك ملكية خاصة أو محددة فالأرض كلها مشاعة للقبيلة التى تقوم عليها ، والتى تتركها من بعد فى حركتها لتحل محلها قبيلة أخرى ... ووسيلة الزراعة أو وسيلة الانتاج الزراعية ليست « قوة بشرية » تتعرض للاستغلال لأن انتاج الأرض بالشعير أو القمح يأتى عارضا ، والأرض أوسع وأكبر من قوة العمل بالقبيلة فلا مجال لضغط الاقوياء على الضعفاء ، ولأن الزراعة الأساسية هى « المراعى » التى تنمو بلا عمل ، والتى لا يبذل فيها من العمل الا جهد الاستهلاك بافواه الأغنام والابل ، ولأن آلة الرى ليست « النهر أو المهندس أو الساقية أو الماكينة البخارية» ولكنها السماء التى تمطر بحسابات يتأملها الانسان الأول و لايستطيع التأثير عليها .. ومن تأملها استفاد معرفته أكثر من فلاح النهر بالقوانين الطبيعية ، واكتشف القوة التى وراء هذه القوانين ، وآمن بها ، لانها تباشر مورده الاقتصادى وهو «ماء السماء» دون اجحاف بأحد ، أو استغلال لأحد ...

٤ — فى مجتمع القبيلة ، وعلى الأرض التى ظهر بها الدين ، تنحصر المشكلة التى تتحدد بها العلاقات الاقتصادية فى علاقات التوزيع وليس فى علاقات الانتاج ... المنتج هو الله ، ووسائل الانتاج التى هى البحر والسحب والرياح وسقوط الأمطار هى فى يد المنتج العادل القادر وهو الله وليست فى يد الاقطاعى أو الرأسمالى

... واما الأرض وسيلة الانتاج الثابتة فهى لهم جميعا . ان العرب الرعاة فى مجتمع القبيلة ، وعلى الصحراء التى ظهر بها الدين ، هم جميعا بروليتاريا الطبيعة ، تعطيهم أو تمنعهم ، دون صراع معها ، وهم يجتهدون أعظم الاجتهاد فيما تعطيه لهم فينعمون أحيانا ، ويضيقون بالجدب أحيانا أخرى ... فليس هناك تعقيدات فى الانتاج ... المنتج الأعظم هو الله ، الذى يرزقهم بغير حساب لو انهم وعوا ما يوحى به اليهم ، وما يكون من تعليمه لهم ... الله هو مالكهم ومالك كل شىء وقد علمهم « المعروف » الذى يبصرونه واضحا أمامهم كأعراف الجبال وقممها ، علمهم ايضا ان يتقاسموا أموالهم وارزاقهم كأخوة يبدأ كل منهم فيعطى قبل ان يطلب ، فالمال مال الله ... وقد تحقق هؤلاء الأخوة الكادحون المتماثلون المتجانسون من هذا القانون الأعظم ... ونفذوه !

ولكن التوزيع ليس سهلا أن يتم بالعدل بين القبائل وبعضها ، اذا كان سهلا فيما بينها وبين نفسها ، فهناك مشكلتان ينجم عنهما صراع مرير فوق هذه الأرض الجليلة التى تنزل عليها الدين فى دعوات متصلة حتى ظهور الاسلام .

المشكلة الأولى :

قسوة الطبيعة بالجدب ، والمجاعات أحيانا ، فليس فى بيئة الصحراء وسيلة انتاج أساسية فوق الرعى يوجه اليها الانسان عمله وطاقته فى غالب الأمر . والاستقرار فوق هذه الأرض قاتل ، والحركة محفوفة بالكثير من المشقة والخطر .

انها الأرض التى قال فيها العرب قبيل الاسلام ، ولا يزال يصدق فيها هذا القول حتى اليوم :

فى مهمه[1] قذف يخشى الهلاك به   اصداؤه ماتنى بالليل تغريدا

---

(١) مهمه قذف يعنى بادية مترامية الاطراف .

وقالوا :

ودوية غبراء قد طال عهدها　　تهالك فيها الورد والمروحامس(١)
قطعت الى معروفها منكراتها　　بعيهمة تنسل والليل دامس (٢)

وقالوا :

كم قطعنا دون سلمى مهمها　　نازح الغور اذا الآل لمع (٣)
فى حرور ينضج اللحم بها　　يأخذ السائر فيها كالصقع (٤)

المشكلة الاخرى :

هذه الطبيعة الواسعة المضيئة ، التى يتحرك فيها الانسان حركة حياته كلها ، وثيق الاتصال بما حوله الى حد الاندماج والتوحد منحت هذا الانسان أعظم ثمار اتساقها فيه ، واتساقه بها وهو « المعرفة » التى عظم بها تقديره لنفسه ، والسكينة التى ذاب فيها حاجز الموت أمام عينه ، فأصبح «حرا » الى أقصى ما تعنيه كلمة الحرية ، وأصبح «حيا» بأقصى ما تعنيه كلمة الحياة ، أى أصبح « مؤمنا » بكل ما يجرى ، فهو يتقدم بحياته ولا يتأخر ، ولقد يرفع لذلك شعارا يحدده قول شاعر الجاهلية ، الذى تمثل به محمد صلى الله عليه وسلم وهو يحفر الخندق فى موقعة الأحزاب :

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد　　لنفسى حياة غير أن اتقدما

أصبح هذا الانسان « انسانا » بتربية الطبيعة ... اصبح يرفض الدعة ، أو الرغد ، اذا جاءا من غير جهد ... اصبح اليفا لمعالم ومشاهد الاكوان ... للآفاق ... للأرض المجهولة ... أصبح يقول فى قبوله لهذه المعادلة فى حياته « الحرية مع المشقة والكفاف » ... :

وقفر مخوف أقمنا به　　يهاب به غيرنا ان يقيما
جعلنا السيوف به والرما　　ح معاقلنا والحديد النظيما

(١) الدوية القفر الذى تهلك به الابل ، والمرو حامس أى الحجر ملتهب .
(٢) العيهمة الناقة تخترق البادية فى ظلمة الليل .
(٣) الآل السراب .
(٤) الصقع رعدة تصيب الانسان من شدة ضربات الشمس .

وهذه مشكلة ... ان لا يستطيع الانسان مفارقة حياة وبيئة تتهدده بالموت تعلقا بها ، وبما تنميه فيه من خصائص القوة والنفاذ ومقارعة الصعاب ، والظهور فوق الذل ، ورفض التبعية للغير !

تقوم اذن — فى ذلك المجتمع — مشكلتان فى مجال التوزيع : مشكلة الجدب الى ما تحت الكفاف أحيانا .. ومشكلة الاصرار على البقاء فوق هذا الجدب . ومن تصادم هاتين المشكلتين نشأ صراع متواز فى اتجاهين مختلفين :

أولا :

صراع المعدمين ليحصلوا بالحرب على ما بأيدى غيرهم ، وليس هذا بأى شكل من الأشكال صراعا طبقيا ، بل هو ثورات بروليتاريا الطبيعة ضد من منحتهم الطبيعة فبخلوا ، والجميع بروليتاريا واحدة ، والمال يدور بينهم بحد السيف أحيانا .

ثانيا :

صراع الاخلاقيين بينهم لضمان حدود التوزيع العادل أى لضمان تحقيق القسمة بقـوة الحق ، هذه القوة التى تتساوى بها وحـدات العناصر امام القوانين التى تسودها ، كما يرون ذلك ويفكرون فيه كل يوم ، فى هذه الآفاق .

لذلك نشبت هذه الحروب والمعارك أيضا بالسيف والكلمة على كل من يتخطى العرف فيمنع المال أو يهدر كرامة الانسان ، وبهذه الحروب تم ارساء قواعد الاشتراكية الطبيعية ، والمشاعية ، مـع ضمان الأمن والحماية للجميع ، وذلك بالنسبة الى كل قبيـلة فيما بين أفرادها ، وبقيت مشكلة ان تأخذ القبائل بينها وبين نفسها بحدود الله والمعروف فى قسمة المال ، وتوفير كرامة الانسان ، كما تأخذ به كل قبيلة على حدة ...

لذلك بقيت الحرب مشبوبة بين القبائل ، وهم أخوة متكافئون وممارسون للتطبيق الانسانى فى علاقاتهم القبلية — بقيت الحرب تأكل القبائل بنيرانها لأوهى الأسباب ... كانت المشكلة الكبرى هى « كيف تتوحد القبائل ؟ » « كيف تذوب فى وحدة ؟ أى فى أمة واحدة ، تعيش فى اطارها حياة السلم والاشتراكية والتقدم انطلاقا من عرف القبيلة » كانت هذه أمنية ، وكان التعبير عنها فى كل مرة دعوة الى دين ، والاه ... على لسان نبى من ابناء القبيلة ، وكان هذا الدين مسبوقا دائما بالعرف الذى وجد بين القبائل من يقول باسمه فى معنى الالتزام بحياة اخوانه من قبيلته قول الشاعر الفارس عروة بن الورد :

اقسم جسمى فى جسوم كثيرة   واحسو قراح الماء والماء بارد

ووجد من يقول فى مشاركة ابناء قبيلته ومعونتها فى السراء والضراء :

واذا لقيت الباهشين الى الندى   غبرا أكفهم بقاع ممحل *
فاعنهمو وايسر بما يسروا به   واذا هموا نزلوا بضنك فانزل

ووجد من يقول :

الخالطين غنيهم بفقيرهم   والباذلين عطاءهم للسائل

وهكذا فان مشكلة وحدة القبائل على قانونها ... على معروفها ومقومات حياتها الاشتراكية كانت الموضوع الأساسى فى دعوة الدين، وذلك بتحويل المعرفة اليقينية بالله من غير شريك فى هذه البيئة الجليلة الى قانون نافذ وصارم ، تذوب فيه كل أثرة ، وتنشط معه كل نوازع الايثار والجماعية ، فتتم وحدة القبائل — على أساس سلطان الله وشريعة الله — فى أمة قادرة على ان تستثمر بالعلم وتنظم بالتخطيط

---

* الباهشون الى الندى الذين يحتاجون الى البر ويهرعون الى اهله

وتوزع بالعدل ، قوة العمل وثمراته فى مجالات تتسع وتنمو باطراد ، وهى تنفتح على كل العالم ...

يقول القرآن فى هـذه الغاية العظمى التى حققتها الثورة بالدين على هذه التناقضات المريرة فى مجتمع الاخوة المتصارعين على الاخلاق وقسمة الاموال ، فى مجتمع القبائل التى تكاد تفنيها الحرب لاتفه الاتهاكات للعرف :

« وألف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الأرض جميعـا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » ويقول « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » .

ويقول « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا »

اذن فمشاكل مجتمع القبائل لم تكن الصراع بين طبقـة مستغلة وأخرى مغبونة يقع عليها جور « الطبقية » بل مشاكل هذا المجتمع تنبع من « القبلية » نفسها أى من توقف حركة المعروف فى جماعيـة القبيلةومشاعيتهاعن قدرة التوحيدللقبائل التى هى فىمفرداتها ووحداتها تمارس سلوكا اشتراكيا ــ وفيما بينها وبين نفسها تمارس صراعاتأدبيا رغم أرادتها ، وهى تعرف انها تنحرف عما تحبه لنفسها ... وتبحث عن الحل ، عن الثورة الجذرية على هذه الصراعات المهلكة ... بين الاخوة المتجانسين فى العقيدة ، وانماط الحياة ، واشتراكية المجتمع الصغير ... كان الجميع يتألمون أشد الألم لما يقع منهم برغمهم فى صراع رهيب على أسباب عيش محدود فوق أرض قاسية ، جليلة ، عظيمة الأثر ببساطتها وجلالها ووحيها على أنفسهم ...

كان شاعر القبيلة يقول أسفا على مقتل ذوى قرباه من قبيلة أخرى:

ونبكى حـين نقتلهم عليـهم وقتلهـم كأنا لا نبـالى !

ويقول آخر :

تفلق هامــا من رجال أعــزة   علينا وهــم كانوا اعق واظلما

كان الصراع بالغزو يحمل فى طياته ثورة الندم لوقوعه ، والبحث عن مخرج انسانى منه ، وكان ذلك المخرج هو دعوة الدين الشاملة بانسانيتها ، وايجابيتها ، وتقدميتها ...

٥ ــ كان هذا الصراع القبلى فى حقيقته حركة ثورية فى اتجاه تعميم « النظرية الطبيعية » للاشتراكية ، أو العرف الاخلاقى الانسانى المؤصل فى وجدان وايمان وتطبيقات كل القبائل ... كان صراعا على العرف ليبقى بالنسبة للجميع ... وليس بالنسبة لكل قبيلة على حدة ... كان صراعا يطوى هدفا انسانيا أكثر من كونه حافزا لاقتســام ما بأيدى المتمولين من أموال بالقوة ... الأموال التى لا تزيد عن الابل والأغنام والخيل ... ولقد أكد القرآن دعوة العرف ، لأن دعوته فى أساسها قامت على المناداة بمعروف القبائل ودينها جملة وتفصيلا ... فحين كان الله يدعو هؤلاء القبليين المتفرقين الى أن يؤمنو فيأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ... كان يعنى ما استقروا عليه من الاخلاق « المعروفة » لهم ، البارزة فى حياتهم ، والوشيكة الاهتزاز والانهيار بصراعاتهم ، وفعل العدو فيهم ... لم تكن هناك دعوة اكثر من تعميق ايمانهم بالله مخلصين له دون شريك أو شك ، حتى يخلص لهم تمسكهم بالمعروف ــ الذى يعرفونه ــ وتجنبهم للمنكر الذى ينكرونه ... كما كانوا ينكرون الشح والغدر والخمر ... معنى هذا ان الله بالدين لم يهدم القبيلة ، وانما هدم أسباب هدمها وذلك بتأكيد معروفها فى وحدة مع القبائل كلها ، تنتظمها شريعة أمة ، وغاية اسلام وعدل وعمارة ومياسرة ...

وفى هذا يقول الله فى القرآن لهؤلاء القبليين :

« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم »

معنى الشعب هـو القبيلة الكبيرة مثلا كهلان وحمير وعـدنان . وهو الأب الأكبر لمجموعة من القبائل تتصل به ، فليس معناه فى الآية ما وهم بعض المفسرين من أنه يشـمل شعوب الحضـارة بالمفهوم الحديث . لذلك فان معنى الآية هو تقرير دعوة الله الى تآلف القبائل الكبيرة والصغيرة على المعروف « ليتعارفوا » وان « التقوى » أى اتقاء المنكر هى أساس هذا الاتحاد والتآلف .

ويقـول الله « ولتكن منكم أمـة يدعون الى الخـير ويأمرون بالمعروف » .

ويقول على لسان محمد :

« خذ العفو وأمر بالعرف ... »

ويقول فى وصف المؤمنين :
« الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله »

ويقول ما يؤكد ان الدعوة بالدين هى احياء نافذ وصارم وشامل لما يعرفونه من الحق الذى كاد أن يضيع بينهم بالصراع القبلى ، وفتنة العدو :

« أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين »

معنى هذا انه ليس ثمة « صراع طبقى » فى حياة القبائل التى دعاها الدين والقرآن ، وانما هى دعوة لوقف الصراع القبلى بين الاخـوة المتكافلين على ما جاء آباءهم من قبل من الدين ، ومن المعروف ، ومن حدود الله وشريعة الله ...

٦ ــ والآن وقد أطلق العرب على قادتهم كلمة سيد ، ونحن مع تطاول الأزمة وتطور العلاقات وتفشى الاستعباد للافراد والشـعوب ننظر الى كلمـة « سـيد » والى « السيادة » فى اطار مصطلح صنعته التداولات المتعددة ، والاضافات والانعكاسات التى فرضها الصراع

البشرى على الحرية .... لذلك فمن المهم ان تتحرى المفهوم الذى كان سائدا عند العرب لمعنى كلمة « سيد » ... هل كان السادة سادة بمفهوم الطبقة ، أم كانوا قادة أحرارا لقومهم الأحرار ، الذين وضعوهم فى مكان القيادة عليهم بسبب كفاءتهم القيادية فى معترك صراع ضار توفر له العرف ، وتوافق فيه جهد الجماهير ابناء القبيلة ، ويبقى ان تتوفر له كفاية القائد وقدرته التى يعتمد عليها النصر فى موازين المواجهة المتقاربة فى صراع كل يوم ...

لقد كان السيد فى القبيلة هو قائدها ، وكانت القيادة جماعية ، والذى يختار « السيد » أو القائد هم أفراد القبيلة ، يختارونه بالاجماع وعندما تحتاج القبيلة الى قائد لا تجده بين أبنائها ، فانها قد تغرى بقيادتها أحد ابنائها الابعدين من قبيلة أخرى ، أو تنضم لقبيلة لها قائد قوى ... أو تتعرض للهلاك ...

السيد اذن فى لغة القبيلة العربية هو القائد المتمتع بخصائص القيادة وكفاءتها واخلاقها ، والقادر على أن يقود القبيلة فى معترك الصراع بالسلاح وبالكلمة القاتلة على أساس العرف ... على أساس اخلاقى يتحاشى به الخيانة والغدر والشح والجبن ولو كان فى ذلك بذل الجميع لأموالهم وأنفسهم .

وأصل السيد فى اللغة من « السواد » وهو الشخص الظاهر على البعد فى أرض طبيعتها الضوء الباهر . فالسيد هو الرجل الظاهر فى جماعته ، هو قائدها الذى تلتف من حوله فى صراع حياتها على العرف والعيش ، فهى سيادة بالرأى النافذ ، والقدرة على الاحتمال ، والأمر فى اختيار القائد ودعوته لمباشرة القيادة هو الى الجماعة ، فليست القيادة فى أسرة ولا اختيارها الى طبقة أو فئة ، ولا يمكن ان يكون غير ذلك للدوافع الآتية : —

١ — الواقع الصعب الذى لا بديل فيه لاختيار القائد الكفء والا هلكت القبيلة .

٢ — تجانس أفراد القبيلة من خلال حياتهم .

٣ — الحياة الفطرية التى يعيشونها تساعد على بروز قيادات جديدة فى كل المجالات مرحلة بعد مرحلة ، مما تعتبره القبائل من أهم أعمالها واعظم ثرواتها ، ومما يجعل فى استطاعة القبائل أن تختار قائدا لها لكل مجال ، وأحيانا يتيح لها أن تختار قائدا لكل موقف أو كل معركة .

٤ — مع وجود القادة الذين سودوا أنفسهم باعمالهم وليس بقهر طبقى أو عنصرى أو ملكى فان جمهور القبيلة ـ بسبب الواقع الصعب ـ الذى يؤدى فيه أصغر تهاون الى هلاك القبيلة ـ رجالا ونساء ـ كذلك بقوةالتجانس بين أفرادها لغة وفكرا وحركة واتجاها ـ هذا الجمهور له دائما حق الاعتراض وحق المحاكمة ، وحق العزل ، وحق العقاب . وفى الحالات القليلة والمعقدة التى لا يتم فيها الاجماع تنشق القبيلة الى قسمين أو أكثر ، كل قسم منها يبدأ حياته من جديد بمقومات ونظام قبيلة جديدة .

السيادة اذن هى مرتبة القيادة التى يبلغ اليها صفوة القادرين على تدبير شئون القبيلة من ابنائها فى مجالات متعددة تتجمع كلها فى السياسة والرأى ، وفى انفاق الأموال وتدبيرها ، وفى قيادة القتال ومباشرته . والصفات التى تؤهل لبلوغ هذه المرتبة مطلوبة لكل ابناء القبيلة ، والمتفوقون فيها همأهل الرأى فى تدبير شئون القبيلةوسياستها الخارجية ، والكرماء الذين يقسمون أموالهم ويساوون انفسهم بغيرهم والذين يملكون موازين العدل اذا حكموا فى الخصومات ، والشعراء الذين يحسنون الاعلام عن القبيلة ، ويكسبون لها الرأى العامفى مجتمع القبائل ، والذين يعرفون مواقع المطر ومنازل الخصب والأمن فيأمرون بالارتحال أو الاقامة ، والذين يحفظون على القبيلة قوة ذاكرتها ومعنوياتها فيروونها التاريخ والاخبار وشعر الوصايا ومأثور الحكمة، وأهل الرأى الذين اليهم اعلان الحرب أو قبول الهدنة ، أو قبول

التحكيم ، والشجعان الدهاة الذين يصنعون خطط القتال ، ويقودون القوات ، ويباشرون المعركة بانفسهم ...

السيادة اذن ليست قهرا طبقيا فى مجتمع القبائل ، لأن القبيلة كلها وحدات متجانسة تتميز فيما بينها بالتنافس فى اتجاه واحد ، وعلى مقياس واحد ، تجمعها علاقات متساوية وليست متناقضة . والقبيلة هى التى تختار سادتها أو قادتها لكل موقف وكل مرحلة كاى تنظيم سياسى عقائدى ، بفارق ان القبائل لا تعانى أى ازدواج فى نشاطها ، اذ ان معسكر تدريبها هو ميدان عملها ؛ وهو واقع حياتها الموحد ...

وقد ترك لنا كتاب الشعر العربى قبل الاسلام ملامح واضحة لنظام السيادة والقيادة بين القبائل ـ قبل ان يوحدها الاسلام ـ نذكر منها ما يلى :

يقول الشاعر فيما يشير الى أن اختيار القائد والسيد والرئيس هو حق ابناء القبيلة ، أو بلغتنا حق الجماهير :

فقلد الأمر بنو هاجر — منهم رئيسا كالحسام البريق
مضطلعا بالأمر يسمو له — فى يوم لا ينساغ حلق بريق
سيد سادات اذا ضمهم — معظم أمر يوم بؤس وضيق

ويقول آخر يدعو قبيلته الى اختيار قائد يوصيهم بصفاته العسكرية:

قوموا جميعا على امشاط أرجلكم — ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركموا — رحب الذراع بامر الحرب مضطلعا

ويقول من يفخر بسادات قومه المهابين فى الحرب :

أولئك قومى ان يلذ ببيوتهم — اخو حدث (١) يوما فلن يتهضما
وكم لهو من سيد ذى مهابة — يهاب اذا ما رائد الحرب اضرعا

(١) اخو حدث هو من جنى جناية يخشى عواقبها لذلك هو يستجير بقادة القبائل حتى ينال حقه بالتقاضى والاحتكام الى العرف .

ويقول شاعر يفخر بكثرة القادة فى قبيلته :

اذا مات منا سيد قام سـيد   قئول لمـا قال الكرام فعـول

ويقول الشاعر العظيم زهـير بن أبى سلمى يؤكد أن السيادة هى تسابق بين القبائل لادراك غايات المجد ، وليست عملا من أعمال القهر ، لأن القهر ليس مجدا ... يقول وهو يقصد هرم بن سنان احد قادة قبيلة قيس وسادتها :

اذا ابتدرت قيس بن غيلان غاية   من المجد من يسبق اليها يسود[١]
سبقت اليهـا كل طلق مبـرز   سبوق الى الغـايات غـير مبلد
فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت   ولكن حمـد المرء ليس بمخـلد

ويقول آخر :

ان تبتدر غاية يوما لمكرمـة   تلق السوابق منـا والمصلينا
وليس يهلك منـا سـيد ابدا   الا افتلينا (٢) غلاما سيدا فينا

ولكن ما هى غايات المجد التى يتسابق اليها القادة ؟

أشرت الى ان المجالات المفتوحة لنشاط القبائل فى ظعنها واقامتها ، فى سلمها وحربها ، فى خصبها وجدبها هى مجال « الرأى والسياسة » ومجال «انفاق الأموال وتدبيرها » ومجال « قيادة القتال ومباشرته»... انها اذن بلغتنا المجال « العقائدى » ثم مجال « العلاقات الاقتصادية » الذى يكفل الحرية الاجتماعية ، ثم مجال«الدفاع المسلح» الذى يكفل « الحرية السياسية » ... وهى كلها تقوم على أساس « الاشتراكية الطبيعية » أو « المشاعية الفطرية » الخاضعة لتنظيمات وقواعد صارمة فى حياة موحدة بين شكل الحزب وتنظيماته وشكل المجتمع وأسره .

---

(١) يسود بالواو المشددة اى يوضع فى موضع السيادة ، اى يرفعه قومه الى مستوى القائد .

(٢) افتلينا اخترنا وانتخبنا .

فى واقع واحد حى ... المعسكر أو المخيم فيه هو الحياة ، والحياة هى المخيم ... فى رحلة دائمة وراء التنمية ، وصراع مسلح وراء الوحدة ..

مواصفات السيادة أو القيادة تؤكد اذن — فى حياة القبيلة — الأساس الاشتراكى لهذا المجتمع الطبيعى الذى نشأ على أرض الدين، وقامت باتحاد وحداته الأمة العربية فى أقوى اشكالها وتطبيقاتها وغاياتها مرة بعد أخرى ...

من هذا قول الشاعر الذى يرى ادراك المستوى القيادى — أو السيادى — ليس سهلا لكل أعضاء المنظمة القبلية فهو يقول : —

لولا المشقة ساد الناس كلهمو   الجـود يفقر والاقدام قتال

أى ان من أهم مواصفات السيد والقائد أن يقسم أمـواله حتى لا يكاد يملك شيئا ، وان يتقـدم المقاتلين ولا يبالى بالمـوت حتى يموت ...

• تقسيم الأموال هو أساس « الحرية الاجتماعية» وتوجيه التعامل فى ثروة القبيلة الى شكل العلاقات المتساوية غير المتناقضة .

• والقتال حتى الموت هو ضمان الحرية السياسية ، وعدم التبعية لسلطة أخرى ...

وكانت القبيلة تختار لقيادتها فى بعض الاحيان من لامال له ، اذا توفرت له صفات القيادة ، فليست القيادة شرطا فى ذوى الأموال ، وفى هذا يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول :

نسود ذا المال القليل اذا بدت   مروءته فينا وان كان معدما

والمروءة عنـد العرب القدماء هى ما نسميه فى العصر الحـديث « انسانية الانسان » أو « الانسية » التى يكون بها المرء امرءا حقا، مبذولا لكل الناس .

وكانت الشيماء اخت النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى الرضاعة ترقصه فى بادية بنى سعد على انشودة لها تقول فيها :

يا ربنا ابق لنـا محمـدا حتى أراه يافعـا وامـردا
ثم أراه سـيدا مسودا واعطـه عزا يدوم ابـدا

ولقد ساد محمد ـ كما نعلم ـ باخلاقه على أساس « المعروف » فى قبيلته ، وكل القبائل ، قبل أن يسود بنبوته وما انزله الله عليه رسولا لكل القبائل ، ولكل البشر ، فكانت سيادته أو قيادته بالأمرين سبيلا لادراك العرب هذا الهدف العظيم الذى كانوا يسعون اليه فى قتالهم الدموى ، وهو تحرير أنفسهم من سلطة القوى الأجنبية المحيطة بهم ، والجاثمة على بعض وطنهم فى اليمن والعراق والشام ومصر ، ثم اطلاق قدراتهم المؤسسة على اعدادهم الكبيرة ، ومواردهم الكثيرة ، وعقليتهم العلمية لبناء حياة أفضل على أساس « العلاقات المتساوية » فى مجتمع الكفاية والعدل والسلم . ثم تحقيق وحدة ثابتة بينهم تمسكها كلمة الله ودعوته وشريعته فى القرآن الخالد ، كلمة الله كلما نسوها أو تناسوها ذكرهم بها القرآن وصحح طريقهم اليها ...

وفى كلمة أخيرة ـ فى هذا الموضوع المتسع الجوانب ـ اقول ان القبيلة لم تعرف الطبقية التى ينسبها الى العرب بعض أعدائهم ، أو الجاهلين بأمرهم ، لأنها على عكس ما ظنوا كانت تنظيما جماهيريا ألهمت الطبيعة ابناءه الذين عايشوها ـ معايشة كاملة ـ عقيدتهم الفطرية ، وحركتهم المهتدية الى الحرية السياسية ، والحرية الاجتماعية ، وان المخاطر التى تعرضت لها هذه القبائل أو التنظيمات القبلية جاءتها من طريق سباقها المندفع الى غايات هذه الحرية ، ووقوع التصادم بين القبائل فى حرب التقويم ، لا معارك التظالم والاستعباد ... لذلك فان قائدا ، أو ملكا عربيا سودته القبائل على غير تقاليد الملكية الطبقية داخل الجزيرة ، أو اصطنعته الامبراطورية الفارسية ، أو الرومية على أطراف الصحراء للتأثير فى احداثها لصالحها ، ومراقبة من فيها وتأمين

طرقها – ما كان هذا الملك أو القائد الذى اتخذ اسم الملك دون مفهومه فى النظام الملكى – عندما تحدثه نفسه بالظلم والتعالى – ليستطيع ان يأمن على نفسه ، ذلك انه دون أى اعداد طويل ، ومهما احتمى بنفره وشـيعته فانه كان يلقى مصرعه على يد أقرب الناس اليه ، من عشيرته وقبيلته نفسها ...

هكذا قتلت بنو أسد حجر بن عمرو الكندى ، وهو أبو امرىء القيس ، وكانت بعض القبائل قد ملكته ، فظلم بنى أسد وفرض عليهم اتاوة ، وقتل بعض رجالهم ، فلم يلبثوا ان أغاروا عليه وقتلوه ..

كذلك قتل عمرو بن كلثوم التغلبى الملك عمرو بن هند احد ملوك الحيرة عند اول بادرة احسها باستخفاف الملك به ...

وكذلك قتل جساس بن مرة كليب وائل وكان ملكا على قبائل معد كلها التى عقدت له الملك والتاج بعد انتصاره بها على جموع اليمن ومذحج فى موقعة جبل « خزاز » ... قتله جساس وهو ابن عمه وأخو زوجته لانه ظلم فى بغيه وسكرة تعاليه جارة له من أهله فضرب ناقة لها بسهم عندما دخلت ارضا حماها لنفسه ... دون الحق ... ناسيا ان المال مال الله ... ومال القبيلة !

هكذا كان قانون السيادة والقيادة عند القبائل انه حق وواجب على من يملك الرأى والعدل ، والعطاء والبذل ، والقتال للاعداء حتى الموت ... وكان أبناء القبيلة ، رجالا ونساء ، حراسا لهـذا القانون الاساسى لاختيار القائد والسيد ومحاسبته بمفهومه دون مساومة ..

* * *

٧ – الحرية والرقيق

كذلك ونحن نتعرض لمناقشة دعوى « الطبقية » فى حياة القبائل التى كان اتحادها اساسا لقيام طليعة الامة العربية فى عصر التحرير الاسلامى ، لابد أن نتعرض – بايجاز أيضا – لموضوع الحرية وما يتفرع عليه من مفهوم كلمة « الرقيق » فى حياة القبائل ...

أساس الحرية فى مفهوم القبائل العربية فى الأرض التى نزل بها الدين هو :

١ – التقيد الى حد العبودية بالعرف أو « المعروف » ، الذى هو أساس التربية القيادية للافراد كما أشرنا ، على أساس تقسيم الاموال ، والاستبسال فى القتال الدفاعى عن المبادىء والحقوق وكان مفهوم الحرية بمعنى العبودية للعرف هو أساس مفهوم الحرية بمعنى العبودية لله بظهور الاسلام .

٢ – تبدأ حرية الحر فى مفهوم الانسان العربى القبلى من حرية أخيه أى ان العدوان على حرية أحد أفراد القبيلة ، يكون انتقاصا مباشرا من حرية الجميع ، لذلك فالجميع يقومون لمنع هذا العدوان بكل ما يملكون ، وبذلك تبقى الحرية موفورة لهم جميعا ...

٣ – النظرة للحرية بهذا المعنى تعنى حرية ممارسة « المكارم » وهى ألوان متعددة من أعمال الدعم والتنمية للمجتمع ، لها قدسية القوانين التى لا تتغير .. وكلمة المكارم هنا ليست كلمة خيالية أو شعرية غير موضوعية اذ أن أصل المعنى فى التكريم والاكرام هو « التأصيل » و « التنمية » أو « التنشيط » الذى يدفع الى النمو والتكاثر ...

٤ — لذلك تكون النظرة الى الحرية انها أصل فى تكوين الانسان ، وحق فطرى من حقوقه ينشأ معه بالمولد . والواجبات التى تنشأ عن امتلاك الانسان لهذا الحق ، أى لهـذه الحرية تبدأ بالدفاع عنها ضد من يحاول الاعتداء على « العرف » الذى منه كرامة الانسان ، وهى بهذا تحمل مفهوما اصيلا هو الحس المتنبه ، وقوة رد الفعل للدفاع عن « العقيدة الاجتماعية » التى تقوم على حرية ممارسة التنمية الانسانية والاقتصـادية بكل وسائلها من « المكارم » والأعمال دون عائق . ومن أجل هذا كانت كلمة « الحرية » المعبرة عن هذا المفهوم فى لغة العرب حتى اليوم تتألف من ثلاثة عناصر متحدة فى دلالة واحدة متكاملة :

العنصر الأول :

الحرية من معنى « الجوهر الخالص » الذى لا تشوبه الشوائب ، فكل معدن خالص هو معدن حر ، وهى بهذا المعنى الجوهـر النقى لمروءة المرء أو لانسانية الانسان ، الذى لا تشوبه شوائب العدوان منه أو عليه ، هى فطرة الانسانية النقية فى الانسان ، المملوكة فقط لقوانين الحياة غير المتغيرة .

العنصر الثانى :

الحرية من معنى « الحرارة » التى هى الظاهرة الأولى للانفعـال العضوى ضد أى مساس بالحقوق لأى فرد ... ضد أى مساس أو اهدار للجوهر الخالص « الطبيعى » لانسانية الانسان وحقوقه التى أولها الدفاع عن حرية الآخرين وحقوقهم !

العنصر الثالث :

الحرية من معنى « الحركة » التى تمثل رد الفعل العملى لايقاف العدوان على الحقوق ، واستعادة هذه الحقوق سلما أو حـربا دون مساومة ... فالحقوق بالحرية ليست بقوة الدفاع عنها حقوقا خيالية ...

لذلك فالحرية التى مارستها القبائل العربية على الأرض التى نزل بها الدين تمنع قيام أى طبقة ، لأنها تقوم اصلا على مقاومة أى اهدار لانسانية الانسان بالقوة ، من أجل ان تبقى حركة التنمية بالمكارم أى بتقسيم الأموال ، وجبر الضعفاء ، وتنمية الاقتصاد المتحرك ، مفتوحة الطرق فى حياة القبيلة دون قيد ، وفى اتجاه ثابت نحو هدف الوحدة لجميع القبائل ...

ولما كانت الحرية بهذا المفهوم فى واقع « الطبيعة المفتوحة » أو فى مجتمع الاشتراكية الطبيعية غالية الثمن جدا ، لا يطيق أعباءها الا «الخالص» من شوائب الضعف ، الذى يرفض المساومة على الحقوق او الاستسلام لمن يغتصبونها ، فان أسرى الحروب التى كانت تقع بين الروم والفرس وغيرهم من هذه الشعوب أو من الجنود المرتزقة من الاسيويين والافارقة ممن كانوا يباعون للعرب فى أسواق الشام والعراق أو الجزيرة لحساب آسريهم كانوا لا يستطيعون حمل أعباء الحرية فى المجتمع القبلى الصارم الجديد عليهم ، وهم من قبل عندما كانوا احرارا فى فارس أو فى امبراطورية قيصر لم يكونوا يملكون الحرية ايضا فى واقع الأمر ... لذلك فانه بنفس الدافع من تكريم انسانية الانسان كان العرب يسمون هؤلاء « رقيقا » أى الذين هم أرق من ان يحتملوا أعباء الحرية من مركز انطلاق حر لبناء واقع حر ، ينمو بالجهد والمال والدم . ولذلك لم يقع هؤلاء الرقيق تحت نير الاستغلال من أبناء القبائل بل كان من تكريم عرب القبائل لهم انهم :

١ — كانوا يختارون لهم اخف الاعمال مثل المساعدة على الرعى .

٢ — ويسمونهم أقرب الأسماء الى معنى السلم مثل سعيد ومصباح وسلمان ...

٣ — وكانوا يكسونهم أحسن من كسائهم ويطعمونهم من طعامهم دون تمييز .

٥ — وكانوا يمنعونهم فقط من تولى القضاء أو القيادة فى الحرب أو حتى القتال وذلك لانهم لا يحتملون ذلك فى صراع القبائل.

فلما جاء الاسلام منحهم فرصة المساواة والتسابق بمقاييس عمل ليس فيها حساب العنصر أو النسب ...

هذا ولم تكن فئة الرقيق قطاعا متسعا فى حياة القبائل التى ليس لها من وسائل الانتاج الاساسية الا الرعى ، وكانوا يقومون به بانفسهم، ويشركون الرقيق فى أعمال منه مثل ايقاد النار ، واعداد الطعام ، وحلب الابل ، وتضمير الخيل ... فلم يكن ثمة مجال لا من حيث عدد هؤلاء الرقيق ، ولا من حيث نوع التعامل معهم ، يخلق زعما بقيام أية مظالم من طبقة السيادة العربية على طبقة أخرى من الرقيق الشعوبيين ، فلقد كانوا يعاملون بكل رفق كقوة عمل خفيفة ، يجد فيها هؤلاء الرقيق من المزايا ما هـو أكثر على التحقيق مما يجده أفراد الطبقة الكادحـة « الاحرار » فى النظم الملكية والاقطاعية القديمة ، أو النظم الرأسمالية والطبقية المعاصرة ...

ثم جاء الاسلام فدعا الى عتق الرقيق ، وتم ذلك بحماس وصدق، حتى بدأ الترف من جديد ، وبدأت تجارة الرقيق على أيدى غير العرب مرة أخرى ... تمت ولا تزال تتم باشكالها الفردية والجماعية ، وباقسى الصور التى تمتهن بها الانسانية على أيدى الصهيونية والاستعمار ... رقيق العمال والمثقفين فى الدول الرأسمالية ، ورقيق الشعوب بكاملها فى رقعة كبيرةمن آسيا وافريقية ... ورقيق الزنوج فى الولايات المتحدة، ورقيق النساء المتمتعات بالحرية الشكلية ولكن تباع اجسامهن بالدولار فى الغرب الحر !!

الحرية اذن عنصر أساسى كان يمنع الطبقية فى المجتمع القبلى قبل الاسلام ، ويمنع النزوع لاستعباد الآخرين . الحرية عنصر أساسى فى حياة العربى القبلى لم يسمح لوجدانه ولالفكره بالخرافات، ولا بالعدوان ولا بالشعوذة التى تستند اليها طبقة الكهنوت الى جوار طبقة الملوك والنبلاء ... لم تكن هناك صكوك غفران ، ... لم تكن هناك عبادة للرجال أو الأبطال ، ولا استعباد للرجال أو النساء ... وعندما تسللت

الاصنام الرومانية واشباهها الى الكعبة كانت القبائل هناك تسجد لله وليس لهذه الأصنام التى لم تلبث ان سقطت وذهبت بظهورالاسلام ...

لذلك لم تكن ــ وما كان يمكن ان تكون هناك طبقية ، فى ذلك المجتمع القبلى الاول ــ فلما جاء الاسلام الذى اتحدت به هذه القبائل امتد فى نفوس المؤمنين به معنى الحرية ونما حتى أصبح انفتاحا بالدفاع عن كرامة الانسان بالنسبة لجميع البشر دون فارق ... وتحرر رقيق الشعوب الأخرى فى بلاد العرب ، ربما لأول مرة فى التاريخ ... تحررا حقيقيا !

لقد ظل اساس الحرية انها النقاء الخالص بالفطرة لانسانية الانسان فهو نقاء مرتبط بقوانين الطبيعة ، وسنن الكون ، وبالتالى هو منحة الله لمن جعلوا حريتهم فى « العبودية » له ، أى فى الالتزام بقوانينه وشرائعه التى هى ترجمة لقوانين الطبيعة فى علاقات الانسان والتزاماته

بالاسلام أصبحت الحرية أصلا فى عقيدته ، واصبح الدفاع عنها ــ بمفهوم المحافظة على كرامة الانسان والمشاركة فى تنمية المجتمع ــ هو الدفاع عن الطريق المفتوحة الى الله دون قيد ...

اصبحت الحــرية بمفهوم الاسلام ــ امتدادا على مفهومهــا بين القبائل التى سبقت عصر الوحدة به ــ قيدا وليست انطلاقا أو انفلاتا ... أصبحت قيدا ثقيلا مريحا فى نفس الوقت ... هو قيد المساواة فى الحقوق والالتزامات بين البشر على أساس موقف واحد لكل المؤمنين من القانون الأعلى على كل القوانين وهو الله ... لانها عبودية للجميع بالتساوى تحت « علوية » حتمية بغير ظــلم ، علوية الله التى تجمعهم ولا تفرقهم ، وتنميهم ولا تنقصهم ، فهى بهذا المعنى استعلاء انسانى ملتزم فوق كل نزعات الاستبداد والاستغلال ، واستهداء بالرؤيةالبعيدة عن مخاطر الأنانية والأثرة ، ومصادقة لقوانين الحياة واتساق معها هداية واختيارا باخلاص العبودية لله ...

بهذا تكون الحرية عند المؤمنين طريقا بالالتزام الى احياء حياة المجتمع كله ... بمنح هذا المجتمع كل ما يمتلكه الفرد من جهد قلبه وعقله ويده دون امتنان ...

وبهذا أيضا يصبح جميع الاحرار رقباء على حياة الحرية بينهم بحياة هذا الالتزام ، فيكون النقد ، والنقد الذاتى ... يكون التقويم وتكون التوبة طريقا الى مقاومة تسلل القهر أو القسر أو الاكراه تحت أى صورة من صور الالتزام . لأن القهر قيد ، والحرية ترفض أى قيد على قيدها المختار الذى هو الفطرة وقوانين الطبيعة ومشيئة الله ؛ وحدود الله ...

والحرية أخيرا — فى جوهر الدين والاسلام — هى التزام مطلق بالعزم على تحرير كل الناس ، تحرير الانسان فى كل مكان ... التزام بالدفاع عن نقائه ، وعن فطرته ؛ وعن ايمانه ، كلما وسعه ذلك بالكلمة أو المال أو السلاح ، لأنه يعلم بمنطق هذا المفهوم للحرية انه لكى يعيش بالحرية ينبغى ان تكون الحرية التزام الجميع ... أى لابد من تحرير كل المستضعفين ، ومن الدفاع عن الكرامة الانسانية لكل البشر وعن حق كل الناس فى أن يعيشوا حياتهم بالعدل الذى توحى به الطبيعة بكل قوانينها ، وتنادى به شريعة الله فى كل كلماتها وحدودها ...

معنى هذا ان الحرية فى مفهوم عرف القبيلة قبل الاسلام ، ثم فى دعوة القرآن بعد الاسلام بدأت من نقطة الالتزام بها كواجب وقاعدة للحياة عند من يملكها ... ولم تبدأ من نقطة المطالبة بها كحق من حقوق الانسان عند من فقدها ... وهذا يفسر كيف ان دعوة الدين والاسلام تبدأ بثورة الانسان الحر ، تبدأ بثورة الفرد لتقويم نفسه ، وتحرر قدراته ، وتصحيح غاياته ، قبل ان تصبح هذه الثورة ثورة كل المجتمع، بينما قامت الثورة الاشتراكية بارادة كل المجتمع المقهور من أول الأمر لكى يسترد الانسان ما فقده من الحقوق من ظالميه وقاهريه ومستغليه...!

٨ — الطاقة والوسائل الانتاجية وعلاقاتها

بقى فى ايضاح منطلقات الحياة القبلية ، التى كانت أساس المجتمع الدينى والاسلامى عند قيامه ، وانها فى جذورها ليست طبقية ، وليست بعيدة عن المقومات الاسلامية التى جاءت لترفعها عن المستوى القبلى الى الصعيد الانسانى — ان تتناول بالتفسير موقف المجتمع القبلى من الطاقة الانتاجية وعلاقاتها ، التى هى أصل فى البناء الاشتراكى ، والتى لايكون تناقضها الا نتيجة وجود طبقية مستغلة ... فهل كانت هنـاك علاقات انتاجية متناقضة فى مجتمع القبائل ؟

قلنا قبل أن الانتاج الأساسى بين القبائل كان « الرعى وقليل من الزراعة » وقلنا ان آلة الانتاج الأساسية كانت المطر الذى تملكه قوى الطبيعة فى البحر والسحاب والرياح ، أو الذى يملكه الله ، فالقبيلة امام هذا المالك فى موقف متساو تماما — ليس فيـه استغلال — فليست الطبيعة وليس الله عند من يؤمنون به طبقة بالنسبة الى البشر ...

واما الأرض التى ينزل عليها المطر فتنبت الاعشاب والمـراعى ، وتنشأ بها العيون والآبار ، وتصلح بها الزراعة الموسمية للحبوب فى بعض المناطق ، والزراعة الدائمة للنخيل فى مناطق أخرى ، هذه الارض بقانون الاشتراكية الطبيعية فى الصحراء هى « ملكية مشاعة » لـكل القبيلة ... أى ملكية عامة لجميع أفرادها ... ولم تكن هـذه الأرض ثابتة بحدودها كما هو الحال على ضفاف النيل والفرات ، حتى ينشأ التصادم والتناقض فى المصالح ، بل كانت حدودها تتغير كل سنة وربما كل شهر ، وأحيانا كل يوم ، ولكن كل ما تقيم عليه القبيلة من أرض مالم تكن عابرة فى أرض غيرها — فهو لها ... كل ما يراه أفرادهم باعينهم وهم يتحركون فى جماعة صغيرة أو كبيرة فاستثماره مباح لهم دون قيد ... وعندما يأتى ملك أو قائد — مثل كليب أو حجر — فيغتر بنفسه ، ويحمى بعض مواقع السحاب على أبناء قبيلته فيقول « هذا لى وحدى وليس لكم » فانهم يقتلونه دون تردد ...

كذلك كانت الأموال التى يحصل عليها أفراد القبيلة بجهدهم الخاص هى بقوة العرف « ملكية عامة » لابناء القبيلة . لقد كان تقسيم أموال الموسرين بين المقترين ، حتى تقع المساواة بينهم ، التزاما جبريا لا يتنكر له أحد ، وعليه يدور القتال اذا مسه أحد ... ولكن المشكلة كانت ان تقسيم هذه الأموال لم يكن على قاعدة ثابتة ، ولا بمواقيت محددة ، ولم يكن بقوة الزام « السلطة » على القبيلة أى بالزام من القيادة بالشكل الذى تعرفه الدول — ولو من حيث الشكل — فى قوانينها ، وذلك لأسباب فرضتها الظروف ، ولا تمس ايمان القبائل بمبدأ الملكية العامة لكل ثرواتها ، حتى ما كان من جهود الأفراد الخاصة فكانت تسارع الى تنفيذ هذا المبدأ بكل وسائلها بالنسبة اليه ...

كان التنفيذ طوعيا بايدى من تكثر أموالهم ، لأنه يصعب فى انتاج غير منتظم ، وغير مستقر ، تقوم به جماعات مترحلة ان يوضع نظام ثابت لاقتسام الأموال ، حتى جاء الاسلام فاقام على هذا الاساس للملكية العامة فى عقيدة القبائل الاجتماعية قاعدة الزكاة ، وحدد لها المواقيت والنسب المئوية ، وطرق الأداء والمصارف وجعل ذلك بيد الدولة التى قامت أول الامر على اتحاد القبائل لكى يوضع فى « بيت مال المسلمين » لحساب المسلمين .

كذلك كان هذا التنفيذ لمبدأ الملكية العامة لثروات ابناء القبيلة بالزام مع الطوعية فى نفس الوقت . فلقد كان سلاح النقد الفعال — أو الذم — لهؤلاء الذين يجحدون أموالهم كفيلا بمسارعتهم الى انفاقها ، بل والتسابق الى هذا الانفاق . كما أنه من جهة أخرى كان حافز « الحمد » لأعمال أولئك الذى يقسمون أموالهم أولا بأول دافعا عظيما على حركة التقسيم حتى كانت تبلغ به أحيانا حد الغلو والاسراف ، طلبا لمؤهلات وصفات القيادة ، ومسوغات السيادة فى ذلك المجتمع .

فى مثل هذا « الحمد » الذى تحركت به الأموال دون توقف من أيدى الموسرين الى أيدى المقترين تقول الخنساء فى أخيها صخر :

ترى الحمـد يهوى الى بيته ... يرى أعظم المجـد ان يحمـدا

وتقول ايضا تفخر بقومها وهى ترى ان المشاركة فى المال حق :

نعف ونعـرف حق القـرى ... وتتخذ الحمـد كنزا وذخـرا

ويقول عمرو بن الاطنابة :

ابت لى همـتى وابى بلائى ... واخذى الحمد بالثمن الربيح
واقحامى على المكـروه نفسى ... وضربى هامة البطـل المشيح

واما عن سلاح الذم أو النقد الفعال فيقول المرقش :

أموالنـــا تقى النفوس بهـا ... من كل ما يدنى اليهـا الذم

نقطة هامة هنا نلاحظها ـ دون اطالة ـ هى ان الاسلام حين جاء ليبنى شريعته على هذا العرف فى قضايا المال ، جعل المال ـ بعد تنظيم القبائل واتحادها وراء سيد تختاره ونظام وضعه الله ـ حقا فى أيدى الجميع للجميع . لم يجعله منحة ولا عطاء من الأعلى للادنى ، بل جعله حقا للجميع يقاتل أصحابه عليه « وفى أموالهم حق معلوم » وفى هذا المعنى قال أبو بكر عمن منعوا هذا الحق بمنع الزكاة « والله ولو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه .. »

تبقى هنا اجابة لازمة عن اعتراض وارد وهو القول الذى يتردد بشأن الزكاة والتى جذورها فى القبيلة العربية تقسيم الاموال الطوعى والجبرى ـ بان مثل هذا المجتمع .. قد يدعو الى الخمول والكسل كما انه لا يجعل العمل هو المصدر والأساس لكل الحقوق والواجبات فى علاقات المجتمع !

بالنسبة لمجتمع القبيلة الذى يتحرك مع اعداد أخرى من القبـائل فى المجال الصحراوى ، بكل ما فيه من مآثر ومخاطر ، فان هذا المجتمع ما كان ليستطيع البقاء على الحركة والنمو داخل هذا المجال الصراعى

العنيف مع الطبيعة ، ومع الانسان ، ومع القوى الخارجيـة المتسربة لفرض النفوذ عليه، لولا « قوة عمل » هى فى حجمها ونوعها واتساقها فوق أى شك بل وفوق أى قياس . واما الأدلة المادية فنوردها بالايجاز الشديد فيما يلى :

١ — كان مجتمع القبائل ، الذى كان يملك قطاعا هاما من طـرق التجارة العالمية ، يقدم حجم عمل مؤثر الى أقصى حد فى تحريك وحماية هذه التجارة ، بل والمشاركة فى تنميتها على قواعدالامانة التامة والرعاية للمواثيق لم تعهد فى أية أنظمة دولية قديمة أو حديثة ...

٢ — كان مجتمع القبائل ينمو من داخل المجال الصحراوى أحيانا فى حالات توافر الامطار ، وتحقق شكل ما من أشكال الوحدة بين قبائله ، أو فى مجتمع قبلى واحد فى مناطق الاستخلاف ، وعند ذلك كانت تنشأ أعمال حضارية وعمرانية مؤسسة على العلم والتخطيط والبذل المنظم للجهد البشرى .

كانت الجزيرة مركزا لنشأة عمران « اليمن السعيدة » بما قام فيها من حضارة المعينيين و « مملكة سبأ » والقبائل التى أقامت فى نحو القرن العاشر قبل الميلاد اعجوبة سد مأرب ، الذى أثر بناؤه ثم اهماله فى تاريخ العرب القديم ، والتى نشأت بها حضارة عاد التى قال القرآن عنها متحدثا عن قدراتها قبل انهيارها «وتتخذون مصانع[1] لعلكم تخلدون » كذلك قامت على هذه الارض بين هذه المجتمعات والقبائل المختلفـة حضارات كثيرة فى الشمال ، فى أرض ثمود التى قال الله عنهم « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » وقال « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين» وفى مدين وفى المناطق الشمالية كانت حركة التعدين أساسا لقيـام حضارات كثيرة فلقد كانت الجزيرة العربية ـــ كما لا تزال حتى اليوم ـــ

(١) اى تتخذون بيوتا من الحجر تحتاج الى محاجر وصناعات متعددة لاقامتها من المعادن والاخشاب .

مستقرا لأنواع من المعادن فوق الحصر ، وكان لأفراد القبائل علم كبير وممارسة فائقة فى تنظيم حفر المناجم ، واستخراج المعادن المختلفة والاحجار الثمينة واستخدامها ، واعدادها للتجارة من الذهب والفضة والنحاس والعقيق والفيروز الى غير ذلك ... كذلك كان العرب من ابناء القبائل الساحلية شرقا وجنوبا وغربا من أعلم الناس بالبحر ، وقد سادوا البحار وقادوا عليها حركة التجارة والكشف مع الهند والصين شرقا ومع الشواطىء الافريقية والأوروبية الغربية منذ أزمان بعيدة فى التاريخ ، وهذه أعمال كان يتولاها العرب القبليون بانفسهم قبل الاسلام وبعده حتى وقت قريب ... وخاصة فى اليمن والساحل الغربى للحجاز ...

لذلك فان القول بان تقسيم الأموال الطوعى والجبرى فى نفس الوقت من الموسرين على المقترين فى مجتمع القبائل هو ظاهرة خمول ، أو اسقاط لقيمةالعمل الأساسية ، يعتبر ادعاء بغير دليل ، بسببالظلمات الكثيرة المسدلة عمدا وبطول الأمد على حقيقة التاريخ العربى ، وخاصة بعد أن طالت أحقاب انحلالهم ، وملك اعداؤهم عليهم قدرة استخدام التاريخ ، وتوجيه وقائعه ــ بعد التصرف فيها ــ وجهة التركيز على الغرب الأوروبى ، والاحباط المستمر والتغافل والتشويه والغمط والطمس للتاريخ العربى ...

لقد كانت المجاعات فى سنى القحط تجتاح هذه المجتمعات ، فكان الجوع يصيب الجميع ، وكان ــ فى بعض الأحيان يصبح من الضرورى ان يخرج رجل بسيفه ، أو جماعة من الرجال ، للاغارة على من يملكون الأموال ولا يقاسمون الناس حقهم فيها ، ثم يعودون بما هم فى حاجة اليه من الابل والأغنام ليقسموه بأيديهم على العجزة والشيوخ والقاعدين ...

وفى هذا المعنى يقول أحد هؤلاء الغزاة « الانسانيين » وهو شاعر مسموع الصوت كذلك اسمه عروة بن الورد .... يقول فى ذم

« الصعلوك » أى المعدم الذى لا يجد مادة للحياة الا الصخر والقيظ والريح — اذا ما استرخى هذا الصعلوك أو « بلوريتاريا الطبيعة » بجوار خيام الحى ، يتمطى فى الشمس كالكلب المتقاعد ، ينتظر من يقدم له شيئا ، ثم يعود فيصف ذلك الصعلوك النشط الذى يأتى بطعامه بحد سيفه لنفسه وللآخرين من أموال الذين لا يقاسمون اخوانهم أموالهم — يقول عروة :

لحا الله صعلوكا اذا جن ليله	مضى فى المشاش* آلفا كل مجزر
يعد الغنى من نفسه كل ليلة	أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعما	يحث الحصى عن جنبه المتعفر
يعين نساء الحى ما يستعنه	ويمسى طليحا كالبعير المحسر
ولكن صعلوكا صحيفة وجهه	كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه	بساحتهم زجر المنيح المشهر (١)
فذلك ان يلق المنية يلقها	حميدا وان يستغن يوما فاجدر

ويقول الشنفرى الازدى فى بروليتارى آخر ينهب أموال من لا يقسمون أموالهم ليطعم بها المتقاعدين من العجزة فى مخاطر الصحراء وتحت وطأة مجاعاتها وهو يصفه بأنه « أم » هؤلاء المعدمين العاجزين :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم	اذا أطعمتهم أو تحت وتقلت (٢)
تخاف علينا العيل(٣) ان هى أكثرت	ونحن جياع أى آل تألت (٤)
مصعلكة لا يقصر الستر دونها	ولا ترتجى للبيت ان لم تبيت (٥)
لها وفضة (٦) فيها ثلاثون سيحفا	اذا أنست أولى العدى اقشعرت

(*) المشاش رؤوس العظام الهشة أى أنه بالليل يبحث عن الذين فى قدورهم اللحم، وينتظر نصيبه من العظام الهشة التى يمضى فيها بفكيه ، ومثل هذا يرى أن الغنى هو أكلة ليلة عند صديق موسر ، والابيات وصف كامل للانسان الخامل الذى يقول عنه الشاعر وهو صعلوك مثله « لحاه الله أى لعنه ونزع جلده » ..

(١) اى يحدثون صوتا كالذى يحدثه من يزجرون القداح عند الميسر وهو نوع من الاقلام تقابل الزهر فى لعبة النرد . (٢) أو ابقت من الطعام واقلت من عطائهم مخافة استنزافه . (٣) العيل الحاجة والجوع . (٤) تخاف .... « اى آل تألت » اى سياسة اتبعتها فى الاقتصاد وسلامة التوزيع حسب الاعداد والكم من الطعام والتوقعات للمستقبل (٥) اى انها رجل والتصعلك هو حركة الفقير المدقع كحركة « البروليتاريا » فى الاصل عند البطالة وطلب العمل . (٦) الوفضة الجراب والسيحف السهم .

وتأتى العدى بارزا نصف ساقها   تجـول كعير (١) العانة المتفلت
اذا فزعوا طارت بأبيض صـارم   ورامت بما فى جفرها ثم سلت(٢)

هذا هو الجواب .... كان أبناء هذا المجتمع القبلى يعملون ، وكان مجدهم هو العمل لا العنصر ، وكانت قاعدة اختيارهم للقـادة انهم يعملون للجميع ، وكل عمل لا يكون للجميع يكون عملا عدوانيا ، فالعمل هو أساس مجتمع القبيلة بمفهوم جماعى لا طبقى ، لذلك فانه اذا امتنع العمل ، وكان قحط مهلك ، وعز اقتسام ثروات الأعمـال الحاضرة ، أو المدخرة كان العمل الباقى هو انتزاع هذه الحقوق فى الأموال بأطراف السيوف ممن يملكونها ... ليس لحساب فرد بذاته ، وانما لجميع من يحتاجون اليه .. وهذا عدل كبير فى شكل ثورة صغيرة ، يقوم بها فرد أو أفراد .. هو عدل حتى بمنطق أولئك الذين يؤلفون القصص فى المجتمع الرأسمالى عن « اللص الشريف » !!

لذلك فانه عندما جاء الاسلام ، واتحدت القبائل على عقيدة تنظم الاجتماع العام على أسس وحدود ، وعدل وسلطة ، تمكنت قبضتهم من كل قدرات العمل ومجالاته وموارده على أرضهم ، وبرز أثر ذلك كله فى الحضارة العربية الاسلامية غير المسبوقة التى قامت على مقومات مجتمع الاشتراكية الطبيعية بعد صهرها بالايمان فى صيغة علمية ايجابية وانسانية ، فكان امدادها الخارق والمعجـز بالفكر والانجـاز الذى انفتحت به على كل العالم ، فوق أواصر القبيلة ، وأبعد من حـدود الأمة .

كانت الدعوة الدينية موجهة اذن الى الجماهير الأحرار ، ومعهم الرقيق فى مجتمع يكـون أفراده غالبا متمتعين بالحـرية السياسية ، وبالتكافل الاجتماعى فيما عدا الجماعات الاسرائيلية التى خرج فيها موسى والمسيح ... فلماذا دعوة التحرير اذن ، ولم يكن هناك صراع طبقى ولا استعمار ؟

---

(١) حمار الوحش الهائج .   (٢) اى أطلق السهام ثم هجم بالسيف .

ان صوت الثورة يأتى هذه المرة دون أن يصحبه صراخ المنسحقين تحت الآلات ، أو الجائعين الشاحبين فى سجون الملوك ، انها أصوات رجال أحرار يمثلون الجماهير المتجانسة لكل الشعب ينتقدون أنفسهم بأصوات مرتفعة من أجل ذنوب قد تبدو صغيرة جدا بمقاييس العصر الحاضر ، بل قد تبدو أعمالا لا يقوم بها الا « المبجلون » فى المجتمع و « المهذبون » من أبنائه مثل « لا تنقصوا المكيال والميزان » و « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » و « انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » .. !

ان صوت الثورة يرتفع بين عدد من الأفراد يقودهم « نبى » يلقى كلمة الله لأن المجتمع الذى كان متمتعا بأمن الحياة حول منابع الاشتراكية الطبيعية أو فى حدود ما تلهم به الفطرة من مقومات مجتمع العلاقات المتساوية والعمل والعلم قد بلغ مرحلة بدأت دعائمه فيها تهتز أو تتساقط ، فأصبح من المحتم أن يتنادى أحراره حول كلمة الله من أجل العودة الى اقامة هذه الدعائم كما توحى بها شواهد عدالته فى الطبيعة المشرقة .

* * *

٩ - ثورة فى نفس الانسان

ان مجال عمل الدين والاسلام هو هذه الجماهير الحرة المتجانسة باللغة والعرف والسلوك ، القريبة بواقعها من مثال فى العلاقات الاجتماعية والصورة السلوكية الفردية المرفوعة أمامها الى مستوى القدوة ، هذا المثال مجسد فى فترة مرت فى حياة هذا المجتمع نفسه مارس فيها « الاشتراكية الطبيعية » أو بلغة القرآن مارس فيها «الخلافة عن الله فى الأرض » أى مارس فيها انسان هذه المجتمعات قدرته على أن يحقق مشيئة الله بتسخير « الأشياء والموارد » له فيسخرها فى بناء حياة رغدة ، تقوم على العلاقات المتساوية بين أبناء المجتمع فى ملكية واستثمار هذه الموارد التى هى لله فى أيديهم ، وهم وكلاء الله وأمناؤه فى استثمارها ، وتحقيق الرغد بها للجميع .

فعندما يطغى هذا الانسان وينسى بالغنى ، ووفرة الثمرات ، وطول الأمد ، فتتهاوى دعائم هذه الحياة العامة المشتركة ، القائمة على أمانة الاستخلاف لله فى موارد الأرض فان دوافعه لتصحيح مسيرته ، واعادة بناء الدعائم الاجتماعية التى قام عليها مجتمعه من قبل فى مرحلة الاستخلاف تكون فى قوة الثورة التى تستهدف قبل كل شىء نفوس الأفراد فردا فردا ، فتعمل على تصحيح اتجاهها واسترجاعها الى الفطرة بتغيير عنيف تخلص به من كل العوائق أمام هذه الصحوة الفطرية التى هى « الدين » ... والاسلام ... « فطرة الله التى فطر الناس عليها » .

ان استخلاف الله للبشر على الأرض معناه القيام عليها بأمانة الاستثمار والعدل والشكر ، فليس الاستخلاف لكل البشر ، لأن الظلم فى موارد الأرض معاجزة لله ، وعدوان على شريعته .. ولقد أكد القرآن فى قصصه الدينى أن الدعوة والرسالة كانتا للمستخلفين فى الأرض تأتيانهم كلما نسوا آيات الله ، « الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » بطول الأمد ووفرة الأموال وبداية الظلم .

كانت عاد قوم هود مستخلفين بعد نوح وفى ذلك يقول الله لهم :
« واذكروا اذ جعلناكم خلفاء من بعد قوم نوح » .
وكانت ثمود ، قوم صالح مستخلفين من بعد عاد وفى هذا يقول الله لهم :
« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض » .

وكان العرب وقريش الذين دعاهم محمد مستخلفين فى الأرض من بعد هذه الشعوب الغابرة فهو يقول لهم ليذكرهم باستخلافه لهم وانعامه عليهم بحياة الفطرة ومقومات المجتمع الاشتراكى الطبيعى :

« ولقد أهلكنا من القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين ، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » .

ثم يوجز الله دعوة الدين التى هى استرجاع للفطرة ووعده لهؤلاء باستخلافهم فى الأرض وبالقوة والأمن فيقول :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

هذه الصورة المثالية للحياة الكاملة فى حياطة وهدى القوانين الطبيعية ، والتى كانت قريبة فى الواقع من المدعوين الى الله ، كانت فى مرحلة سابقة من حياتهم هى التى تجعل بداية ثورة التحرير بالدين من داخل نفس الفرد ، نفس الانسان الذى يثار الى نقد نفسه بالدعوة المباشرة نقدا شديدا ، يدفعه اليه الاحساس بخطر الانهيار للمقومات الانسانية الفطرية فى نفسه وفى داخله ، فينشط لتغيير نفسه ، على المثال القريب منه فى التاريخ ، المثال الذى يتحرك اليه ليحاكيه ، ومن ثم ليكون بهذا التغيير الحسى والنفسى فى واقعه مثالا لغيره أو دعوة متحركة بين أبناء مجتمعه ...

الشعلة الأولى لثورة التحرير بالدين والاسلام تبدأ اذن فى نفس الفرد متجهة منه الى تحقيق ثورة المجتمع من طريق اتساع ونجاح هذه الثورة الانسانية فى نفوس الأفراد .. وطريق هذه الثورة الاجتماعية فى كل المجتمع واضح فى العودة الى نظام طبيعى سابق ، وذلك باقتلاع كل عوامل الضعف البشرى التى أدت الى انحلال المجتمع ، والىعجزه بالارادة عن حمل أمانة هذا النظام السابق المستخلص من كلمة الله ، ومن وحى الطبيعة ، ومن معايشتها المعايشة المباشرة ، وفهم حـركة قوانينها ، وترجمة ذلك الى العلاقات الانتاجية والانسانية فى بنـاء المجتمع المتوازن بالفطرة ..

ولقـد كان فى قدر الله ومشيئته وسننه أن تذكو وتشتعل ثورة الايمان فى نفوس قريش والعرب منتقلة اليهم من دعوة محمد الى الله بينهم ، ومن قدوته واسوته فيهم . لقد دعاهم الى الاسلام ، والى ملة ابراهيم ، وحذرهم من أن تقسوا قلوبهم بطول الأمد فيتهودوا كاليهود ، ويكونوا مثلهم أبناء ابراهيم الذين لا يعملون بعمل ابراهيم ، ويستحقوا مثلهم قول الله فيهم بكفرهم وقسوة قلوبهم : « وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » ...

* * *

١٠ - من ثورة الفرد إلى ثورة المجتمع

فهمنا أن دعوة الدين والاسلام تقوم أساسا على تغيير الفرد أولا بالثورة فى داخله توصلا الى تغيير المجتمع كله بثورة أفراده وتغيرهم . ان بداية التغيير تكون عملا ثوريا فرديا فى اتجاه كل أفراد المجتمع ، فلم تكن البداية فيما مضى هى هذا التيار الثـورى الذى يفيض به المجتمع أو الطبقة المقهورة فى المجتمع كارادة ملزمة ومفاجئة لجميع أفراده ، اذ أنه لم يكن هناك فى مجتمعات الدعوة الدينية فى مناطـق الاشتراكية الطبيعية أى نظام طبقى أو ملكى أو كهنوتى أو اقطاعى يعكس تيارا ثوريا منظما بالفكر والقيادة والتخطيط والاثارة والاطاحة ضد الطبقة الأخرى .

فى مجتمع الدعوة الى الدين والاسلام يقوم احساس عام بين أفراد المجتمع « جميعا » وهم جماهير طبقة واحدة بأن هناك « ردة » وقعت بالنسبة للدعائم الأخلاقية الطبيعية التى هى قانون وعرف هذه الجماهير..

مزايا بداية الثورة الانسانية بالدين من نفس الفرد أن اعادة بناء وصياغة قوى الفرد على أساس فطرته ، وعلى دعائم الأخلاق المتسقة بتلقائية الحياة مع الطبيعة وحركة وحقائق الكون ـ كما يقع ذلك فى الجماعات التى تعيش وتتحرك بالاشتراكية الطبيعية ـ تؤدى الى أن تكون الثورة الاجتماعية فى كل المجتمع والتى تعقب بناء الأفراد متزنة، وايقاعية مع قوانين الحياة والوجود ، وكاملة الاشباع الثورى فى كل الأفراد الذين تم بناؤهم ، وقامت مسئولياتهم فى المجتمع على أســاس مساواة حقيقية ملموسة ، أمام قانون يتساوى امامه الجميع ، لأن المسافة بين كل فرد منهم وبين مصدر هذا القانون الأعلى وهو « الله » واحدة من غير شك . وبذلك تكون الغاية من الدين ومن الاسلام وهى التزام المؤمن بالله فى كل شيء ، وجهاده اليومى أن يضــع بالاختيار

مشيئته فى مشيئة الله فى كل شىء ، محددة وواضحة كل الوضــوح . كما أن الوسائل الى هذه الغاية وحولها ، والتطبيقات عليها ، وهى العدل فى العلاقات والمطالب تكون محددة أيضا وواضحة كل الوضوح .

ومن ثم فان الثورة الاجتماعية فى مجتمع المؤمنين تكون قادرة على التحول بقوة الامتداد ، وقدرة الأفراد لتصنع فى المجتمعات المجاورة ثورة انسانية شاملة ، تقدم عطاءها للجميع بغير امتنان أو عدوان ، أو تفرقة بين الأجناس والألسنة والألوان ..



١١ - حضارة انسانية موجهة

ان هذه الثورة الانسانية بالدين والاسلام التى يرجع بها الفرد ابتداء من تغيير نفسه الى الشكل المتوافق مع الطبيعة ، الى الاتساق التلقائى مع سنن الكون ، الى الصورة الفطرية للانسان ، الى شكل العلاقات المتساوية فى الطبيعة فى كل ما يصنعه من علاقات مع نفسه ، وعلاقات مع أفراد مجتمعه ، هذه الثورة الدينية التى تستهدف «تطبيع» فكر الفرد وسلوكه ليست رجوعا عن مسيرة الانسان بالتطور الى تصنيع الحياة ، واطلاق « يده » لتنجز ما يميزه عن غيره بتشكيل وتحريك المواد والخامات .. ان هذه الثورة الانسانية التحريرية بالدين وهى ترجع به الى منابع الاشتراكية الطبيعية الفطرية تدفع به فى نفس الوقت الى خط جديد وصحيح للتطور تصبح فيه يد الانسان خاضعة لارادة قلبه ، من حيث أن قلبه يكون بالسلوك الفطرى خاضعا بارادته لارادة الله ... أى أنه عندما يصبح اختيار الانسان بالاسلام هو اختيار الله فان قلبه « الطبيعى » يستطيع أن يحكم فى اتجاه العدل اتناج يده « الصنلعى » فلا يتجه بهذا الاتناج الى مصادمةحقائق الحياة .. لا يتجه الى المعاجزة للقوة غير المرئية التى تحكم الحياة . لا يتجه الى جعل « الاتناج » وهو وسيلة ... غاية مطلقة تشكل الحياة ، وتقود المجتمع من جديد بتراكم السلع وتعدد أغراضها ، وتناقض هذه الأغراض ــ الى ردة طبقية تضع الانسان من جديد فى عبودية العلم ، وسخرة الصناعة ، بدلا من التحرر بهما ، والتسلح بقوتهما لبناء الحياة والمعرفة والسلام..

ان ثورة التغيير بالدين فى نفس الفرد ــ كما حققت ذلك تطبيقات الاسلام الأولى فى مثاله الفذ على التفكير والتطبيق ــ قادرة فى كل زمان وكل الظروف على أن تمد أصول ودعائم الاشتراكية الطبيعية النظرية

على أسس علمية واجتماعية لتتحرك فى أطوار نشطة يبنى بها الانسان حضارة انسانية موجهة ، خالية من العـدوان ، ومن التراكم ، ومن التناقض ، ومن نقائص الاذابة والمحو لحرية وذات وملامح الأفـراد الخاصة ، وذلك بسبب ما تقوم عليه من دعائم ومبادىء الحياة الطبيعية فى صيغة الاهية قابلة للتجدد والامتداد والبقاء ..



١٢ – مفهوم الانسان فى الاسلام

مما سبق يتحدد لنا اطار أكثر وضوحا للمناخ الذى نشأت فيه على الأرض العربية رسالات الدين المتعاقبة ، هذا المناخ الذى يفسر بشكل علمى ظاهرة نشأة الدعوة الدينية الالاهية على هذه الأرض وحدها عبر آلاف السنين ، وبمقومات وغاية واحدة . فعلى هذه الأرض التى يميزها السلطان المطلق للطبيعة ، من حيث الاتساع بلا نهاية ، والضوء بلا عتام ، والحركة بلا توقف ، فى حياة الانسان الموجهة والمحكومة بعناصر الطبيعة نشأت مع هذا الانسان مقومات المجتمع الاشتراكى الطبيعى الأول ، نشأ مجتمع « الاستخلاف فى الأرض » بلغة الدين على أساس الاتحاد بين قاعدتى الاستثمار الجماعى والعدل وبين عقيدة الايمان بالله .

فى هذا المناخ تحدد مفهوم للانسان فى الأساس العقائدى للدين هو أنه — فى صيغة عصرية — « الكائن الحى الذى يحمل أمانة الاختيار » أى الاختيار بين تسيير فكره وعمله مع « سنن الحياة » أو « ضد » سنن الحياة .. أى أن الانسان بأحدث مفاهيم الاشتراكية العلمية فى هذا العصر يستطيع على الرغم من تأثير البيئة عليه أن يختار الطريق الأفضل لنفسه ، فليس من المحتم أن يظل ابن المعتدى معتديا ، وابن الرأسمالى رأسماليا ، وابن الملك ملكا ...

هذه الأمانة فى اختيار الطريق الأفضل أبت أن تحملها « السماوات والأرض والجبال » لأنها تتجه الى هذا الطريق « مع سنن الحياة » طوعا لا كرها ... « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » أى أنه كثيرا ما تحكمه عوامل « نقص المعرفة ونقص التدريب » فتسوقه الى أعمال ينقض بها « التوازن » بين حياته وحركة الأشياء من حوله .. تسوقه الى أعمال يسوء بها اختياره ، أعمال يصادم بها سنن الحياة

وحقائقها ، ولا يسير معها .. وبذلك يخالف الله .. ويتعرض لأن تطأه وتلعنه وتسحقه القوانين ، قوانين الحياة والتاريخ والكون .. فردا أو جماعة .. أو عصرا بأكمله من العصور !

كيف يستطيع الانسان أن يحمل هذه الأمانة فيختار دائما أن يوازن بين قانونه وقانون الحياة ، بين حركته وحركة الحياة ، بين غايته وغاية الحياة ؟ ... ان عليه أن يهتدى بقلبه وعقله معا ، وليس بعقله فقط — الى أن حركة الحياة متسقة فى كل شىء .. الى أن الطبيعة حتى أقصى آفاقها المحسة والمرئية متسقة ، ومفطورة على معرفة طريقها ... وهذه الطبيعة فى اتساقها تعبر عن كون واحد ، وان لم يكن مرئيا ولا محسا ، ذلك لأن ما يظهر منه باتساقه العجيب والمحكم واليقينى يؤكد أحادية هذا الكون ، فهو ليس مطلقا أكوانا متعددة ، تتصارع فيها قوانين وسنن متعددة .. كل هذا يدركه الانسان بالتفكر العقلى ، ولكن القلب هو الذى ينقله من منطقة الادراك العقلى الى مجال اليقين الحسى ، أو الحس اليقينى . ان القلب الذى هو جهاز قياس « الأمن » فى حياة الانسان هو الذى يسجل من خلال انغماره بالنبض « التوافقى » فى هذه المشاهد الطبيعية المتسقة ، المتحركة بعلم ، والدائبة دون جزع ، والهادفة الى غايات مقررة متلاحقة ، لا تنقض الكون بالتغير ، ولاتهدم الطبيعة بالنتيجة — القلب الذى هو جهاز أمن الانسان واستطلاعه هو الذى يسجل بنبضه الهادىء داخل سكينة مطلقة أنه يسير مهتديا فى الاتجاه الصحيح ، مع فطرته ، كلما سمع « صوت الطبيعة المتناغم » . ونفذ الى « حسها الداخلى المتدفق » فيما يدلان به على قيام ارادة عليا مدبرة فوق كل هذه القوانين السائدة ، فوق حركة المادة ، هذه الارادة العليا التى هى فى أصح ما يدركه حسن الانسان ، ويعلن عنه صوت قلبه وعقله هى « الله » ...

يقول الله فى علاقة جهاز القلب — بين السكينة والاضطراب — فى الدلالة على الايمان « اذ جاء ربه بقلب سليم » ويقول « ألم تكن لهم قلوب يفقهون بها » ...

الانسان اذن بمفهوم الدين والاسلام هو «الكائن الحى ذو القلب» اذ أن قلبه هو الذى يهديه من خلال التفكر فى حركة الطبيعة ، الى الايمان بالله ، وايمانه بالله هو الذى يوجه ارادته وعقله ليكون عمله متفقا دائما مع سنن هذه الطبيعة ، وليس مصادما لها ... هذه السنن التى جوهرها العدل فى حركة الحياة .. فيكون جوهرها العدل أيضا فى حركة الانسان ، أى العدل فى علاقاته مع نفسه ، وعلاقاته مع البشر ، وعلاقاته مع الأشياء ، وبالتالى فى ارتباطه والتزامه بالله ، الذى «يحس» به ـ بقلبه المتفكر ـ كارادة عليا للعلم ، للقوانين الطبيعية ، وللبشر ، وللأشياء ، ولكل شىء محس ومدرك ، وغير محس وغير مدرك ، فى الزمان غير المنتهى ، والمكان غير المحدود ...

بهذا « القلب » المؤمن تتحرك « يد » الانسان لتبنى له الحياة .. تتحرك بتوجيه القلب المؤمن ... بقيادة الايمان ... تتحرك بشريعة الأخلاق وقانون العدل والحب والعلم ... تتحرك كأداة انجاز بشرية لاستثمار الأشياء بالعدل الذى يدعو الله اليه فى كل المجالات ، وليس كأداة انتاج وتصنيع آدمية فحسب ... ان يد الانسان باتحادها فى ارادة القلب المؤمن تنسج كل يوم فى واقع المجتمع الذى تخدمه وتبنيهعلاقات اجتماعية انسانية صحيحة ... علاقات عطاء واخاء وابتكار ودعم وسلام ... ثم ان هذه اليد تعمل كل يوم على الدفاع عن استمرار ونمو هذه العلاقات ، مع التزامها فى بناء الصناعة وتعزيز الانتاج بالقدر الذى يؤكد هذه العلاقات الانسانية ـ حجما ونوعا ـ ولا يتجاوزها ...

خلاصة ذلك كله أن البداية فى تعريف الانسان ـ من وجهة نظر الدين والاسلام ـ هى « قلبه » الذى هو جهاز تصحيح اتجاهه الى الله بمفهوم اتجاهه به مع حقائق الحياة ، ثم « يده » التى تصنع وتبنى الحياة بالعلم غير متصادمة مع العدل الذى هو شريعة الله ... الانسان بمفهوم الدين والاسلام وبصبغة عصرية هو « كائن حى ذو قلب ويد ». قلب للايمان والتوجيه ، ويد للعمل والتطبيق ...

* * *

١٣ — المرحلة بين الاسلام والاشتراكية العلمية

قبل انفجار الاشتراكية العلمية كبركان ثائر أضاءت بوارقه وجوه العمال الكادحين المسحوقين فى كل العالم الرأسمالى ليتحدوا ... قبل البداية لهذا النظام الجديد الذى انشق عنه بالثورة مجتمع الثـورة الصناعية ليكفل الحاجات الاقتصادية للطبقة العاملة ، وامتدادا مشروعا لطموحها الانسانى فى وجه استغلال وسخرة النظام الطبقى الرأسمالى ، مرت مرحلة طويلة قطع فيها الاسلام منذ القرن السابع ــ خطـوات واسعة وهو يتجه بطاقاته الانسانية والعلمية الى دعم حضارة انسانية جديدة تقوم « عملا » على الايمان والعلم والعدل والسلام ... حضارة بناها المسلمون فى أصعب الظروف والتداخلات خلال القرون الأولى من انتشار الاسلام ، وخاصة فى المائة الأولى ... لقد كانت محاولات قادة ودعاة المسلمين ، الذين نزحوا بدعوة الدين من قلب الجـزيرة العربية ، من منطقة اشراق « الاشتراكية الطبيعية » ــ تتجه من خلال التسامح مع كل الشعوب الى دفع الفكر العلمى والاخاء الانسانى فى دعوة الايمان الجديد الى قلب الحضارات القديمة وجماهيرها التى خدعتها الفلسفة الاوروبية ، ولم تعزها الروحانية الشرقية ... لقـد اندفعت قيادة المسلمين بقـوة التغيير العلمية للدين ، الكاملة الابعاد والواضحة الهدف وراء الأمل فى بناء عالم جديد تفيض به حضـارة جديدة انسانية ، نشطة المبادرة والابتكار ، قوامها حركة « الأخلاق الطبيعية المنتجة » التى يطلقها الايمان ... حضـارة تنطلق من مركز التكوين الدينى لعناصر « الاشتراكية الطبيعية » فى مسار التطـور الاجتماعى بالعلم ، والصناعة ، والتوسع فى الاستخدام الموجه للادوات، لرخاء المجتمع الانسانى ، وتقليل الجهد البشرى ، وتعزيز هدف المعرفة والسلم أمام الجماهير ، دون أن تنحرف هذه الحضارة العلمية المؤمنة عن مسار العدل ، ولا عن مجرى الأخلاق الطبيعية المتكاملة فى حركة

المجتمع ، ولا عن هذا الاختيار الأمين ــ المقدور على الانسان ــ لطريق الله ...

ولكن هذه التجربة الفريدة أسفرت ــ مع دورة السنن الطبيعية فى تطور المجتمعات الانسانية ــ عن احباط هذه الأهداف الأساسية فى خطط الدعاة والبناة الاسلاميين الذين حاولوا ــ خارج أرض الدعوة وانفتاحا على كل العالم ــ أن يغيروا اتجاه التطــور بصناعة الأدوات ومستويات وأنواع وأحجام المنتجات ــ من اثرة الطبقية الى الايثار الجماعى .. من هدف « الربح » الى غاية « التنمية » ... من تركيز السلطة والقوة فى أيدى بعض الأفراد كنتيجة لتدمير الأساس الأخلاقى للمجتمع الى بناء السلطة والقوة فى أيدى جميع الأفراد ببناء الأساس الأخلاقى للمجتمع ...

فى المراحل المتأخرة من انتشار الاسلام ، وفى سلطان العصــور الوسطى المظلم على أرض أوروبا ، اتسعت الفجوة بين القلب المؤمن المؤمن الموجه واليد الأمينة المنفذة ، حتى تلاشت ــ أو كادت ــ فى النهاية سلطة القلب على اليد ، سلطة الايمان على الانتاج ــ وأصبح طغيان الفرد أو الطبقة هو الذى يتحكم فى تحريك ملايين الأيدى ليصنع ما يقتل هذه الملايين « ماديا وانسانيا » بل يقتل هذه القلة التى تحركها انسانيا أيضا وان كان يحييها ويطغيها ماديا ... اتسعت الفجوة بين القلب واليد ، وزادت تراكمات الأخطاء والمظالم البشرية ، والأهــواء الشرسة ، والمعتقدات المضللة ، والخرافات والمخاوف والأطماع المسيطرة على عقول وقلوب قطاعات كبيرة من البشر .

ان الجماهير فى كل العالم نعمت قليلا بمرحلة اشراق الاســلام ، ولكن الحيوية التى انتفض بها البشر ، والنضارة التى عادت الى ملامحهم الاجتماعية ، والانفراج الذى نشط به الأحرار بعد سقوط العوائق أمام الحرية ، والجماعية الانسانية فى كل قلاع الحكم الامبراطورى والفلسفة والكهنوت والاقطاع وألوهية الملوك ــ عادت فاضمحلت ، وتراجعت

لتتركز وتغرب وتختزن فى بعض الكتب ، وبعض التيارات العقليـة والمناهج الفكرية الجديدة التى أنكرت بعد قليل جذورها العربيـة ، وأصولها الاسلامية ، وأخذت أسماء أوروبية تلمع بالادعاء ، كما قيل ان روجر بيكون هو بداية التأصيل للمنهج العلمى التجريبى فى أوروبا وليس العرب ... من هذا الحيز المغمور ، والدفين فى تراث الأمم المعادية أصبح تراث الدين العظيم ، وتطبيقاته الباهرة فى حياة المسلمين ملكا لفئةقليلة من العلماء الخاضعين للاستعمار والمؤسسات الصهيونيةالغربية، وخاصة بعد أن تم تماما قيام ثورة العلم وثورة الصناعة فى أوروبا على أساس المنهج العلمى التجريبى المنقول عن الفكر الاسلامى ، والرفض النهائى للمنهج التجريدى للفلسفة اليونانية ...

لقد أصبح التراث العربى الاسلامى سرا دفينا لا يذاع فى يد فئة قليلة من البشر ، اندس فيها فى أعمق اعماق خفائها أولئك الذين حملوا وزر الادعاء بانهم « سلالة الأنبياء » وبقية « الشعب المختار » وابطال الملاحم الأسطورية التى تملأ « العهد القديم » ، الذين لا يزالون يرون انهم حكماء الأرض ، وسدنة علوم الدين والكهنوت ، وحملة مفاتيح العالم السفلى القائم على السحر والشعوذة والطقوس السرية ، والرموز الحلولية ، والمفاهيم الغنوصية ... وهم اليهود الأوروبيون ، بنـاة العقيدة الصهيونية العنصرية العدوانية فى العالم القديم والحديث ...

لقد بدأت طفرة أو نكسة واسعة فى اتجاه دعم سلطة العلم بغـير ايمان ، وحركة اليد بغير قلب ، وذلك بعـد الانقضاض المؤقت لذلك الالتحام المأسوى الدامى بالحروب الصليبية بين غلظة أوروبا العنصرية الجاهلية المعتدية وبين دماثة العرب المسلمين الانسانية الرافضة للعدوان والتبعية ... لقد أعقب هذه الهزيمة التى حاقت بالصليبيين مع تفاقـم ضعف العرب تحت تسلط الاتراك المتزايد عصر نهضة فى أوروبا ، ونشاط مضاعف فى كل أرجائها لمعاودة العدوان على الوطن العربى المجزأ ، واجتياز كل السدود القائمة بين أوروبا وبين هذا الوطن المعرض دائما لعدوان الشماليين ... لقـد ذابت تماما كل الانعكاسات الاخلاقية ،

والانطباعات الانسانية للحضارة العربية الاسلامية ، فى تقاليد الفروسية الغربية واغانى التروبادور ، ومسرح شكسبير ، وقصص الرومانتيكيين الفرنسيين والألمان وعجائب الاسبانى سرفانتس المقتبسة من روائع الجاحظ ... بل ذاب أكثر من ذلك أثر العرب العميق على الثورةالدينية التى قادها مارتن لوثر ضد صكوك الغفران الكاثوليكية ، وعلى سقوط جدار التزمت الذى حوصر به الفكر العلمى المتفتح بعد مذابح محاكم التفتيش ، وقرارات الحرمان البابوية وعصمة الملوك وراء قداسةالحق الالآهى ... وتحولت اوروبا للسير فى اتجاهين بالشكل والموضوع ، الأول هو تحسين اداتها الفكرية للتوصل الى « عقلية علمية » قادرةعلى «اختراع الاختراع» وتقدم الصناعة والتكنولوجيا ، والآخر هواضعاف الشعوب الأخرى فى المناطق المستهدفة للاستعمار حتى تكون باجيالها المتعاقبة « فرائس مستسلمة » للاغتيال الاستعمارى ... !

حاولت أوروبا بالتكنولوجيا السرية للاستعمار ، وبقيادة السلطة الصهيونية الخفيـة أن تدعم النظام الرأسمالى بالتحكم فى قنوات ومناشط الثقافة والترفيه ... بالتدبير المتواصل لمسخ التاريخ ، وغسيل مخ البشر من الحقائق لصالح « السلطة البيضاء » فى العالم ... بخلق واثارة الحساسية الاستهلاكية والشره السلعى ... عن طريق تفجير براكين القلق فى كل اتجاه ، ومن كل اتجاه ... بخلق الحاجة الملحة الى المال عن طريق التغيير ــ غير المنطقى ــ فى مستويات المعيشة ، وعلاقات فئات المجتمع المختلفة ، وعادات وانماط الحياة فى الاتجاه الذى يصبح المال فيه هو « الاوكسوجين » المطلوب فى كل لحظة دون صبر ... ومع الحاجة الى الاوكسوجين فى كل لحظة تحترق كل حقائق ومبادىء ومفاهيم الدين والاخلاق ، لكى لا يبقى فى موضع الحروق الا آثار هذه الحقائق وذكرياتها ... لكى لا تبقى الا أشكال النفاق والمظاهر الكاذبة التى اصبحت البديل الوحيد لها بين أكثر الجماعات ... وفى نفس الوقت تتسابق الجماهير ــ التى تكاد تختنق بالضغط والتخطيط الرأسمالى ــ فى طلب الاوكسوجين ... فى البحث عن العمل ... العمل تحت أى شروط ، وبأى أجر ... ان الجماهير المقهورة من الرجال

والنساء ، المفككة ، القلقة ، المحرومة ، تطلب المال فى مقابل اداء أى عمل ، انها سخرة عليها اقنعة كثيرة ... سخرة رهيبة ، ناعمة ، غادرة ، منقضة ، تتهاوى بها كل دعائم الدين واليقين ... سخرة غاص معها « القلب » فى الظلمات ، ليصبح الانسان « يدا » ممدودة فقط ، يدا شاحبة تصنع الحياة لحساب الآخرين ... يدا ممدودة تطلب خبزا بغير معرفة ، وبغير جماعية ، وبغير عدل ، وبغير اختيار ، فلا تجد الا الفتات ... لقد بقيت اليد الممدودة ، التى مات قلبها المؤمن فى المجتمع الرأسمالى ، وكان لابد ان تقوم ثورة ، ثورة الانسان ، الكائن الحى ذو اليد ... ثورة يقوم بها العبيد حقا ، عبيد الآلات والاحتكارات فى النظام الرأسمالى ... العبيد لسادة نزعت قلوبهم من صدورهم ... سادة من غـير البشر !

لقد كان الأمر هكذا قبل الاشتراكية العلمية ... اهدرت القــوى البشرية فى الخوف ، والسخرة ، والانقسام ، ثم فى الطمع والزلفى أخيرا الى الرأسمالى من أجل ما يلقى به لعبيد الحضارة الرأسمالية من الفتات ، وبذور الموت ...... هذا الرأسمالى الذى أصبح بعد امتصاصه ثمرات عصر الازدهار الاسلامى وتمثيلها فى اطماعه فى اتجاه القهــر والاستغلال هو الاه مجتمع الصناعة المقنع ، الذى يحــرك بمشيئته واشارة من اصبعه ملايين الرقيق الحديدى ، ملايين العمال والفلاحين الى الحياة أو الى الموت ... وفى ذروة هذا السلطان القاهر المستغل لقوة العمل تتجــه الرأسمالية بعنف الى الاستعمار ... وكان العرب المنقسمون ، وكانت الشعوب الاسلامية ، بين من فقدوا الحرية وجوهر الدين وموارد الوطن ، وأمل المستقبل مع عبيد الاستعمار !

* * *

١٤ — مولد الاشتراكية العلمية

بينما كان الاسلام فى أهله وحضارته يستهلك طاقاته الاولى التى خرج بها من مشرق الدين ، ومنبع الضوء ، ومركز الرصد العقلى للكون والحياة كان سماسرة الأموال والعقائد يدخلون بنشاطهم الخفى ، وحماسهم المحموم — تحت تسامح هذا النظام — افران الصهر والتكوين والتركيب فى الطريق الى مولد وقيام النظام الرأسمالى « ملكا » على عرش البنوك والآلات والمصانع ومستقبل التكنولوجيا ...

ولكن عندما كانت شمس الاسلام تغرب عن مشاهد واطلال الحضارة الاوروبية الرأسمالية البازغة فى دورها التاريخى على طريق الثورة الصناعية والاستعمار كان يتحرك فى الاعماق تيار متصاعد داخل جماهير العمل المظلومة ، تيار تصنعه وتدفعه الضرورة الطبيعية للعدل ... تيار يلتقى باتجاهه مع الدين والاسلام فى أكثر من موقف ، وان كان ينبع أساسا من الالحاد ... عن انكار البعد الدينى على فكر البشر أصلا وليس بالعداء للاهداف والشعارات الانسانية المنسوبة الى الدين ...

فى هذا التيار الجماهيرى سبح تحت قواعد القلاع الرأسمالية عدد من المفكرين الاشتراكيين ، وظهرت بعد جملة مراحل « عتلات » عقائدية لاقتلاع أسس هذا النظام ... ظهرت نظرية وتطبيقات للاشتراكية العلمية ، أو الاشتراكية المادية ، أو الاشتراكية الماركسية اللينينية ...

ولدت الاشتراكية العلمية فى القرن التاسع عشر ، مع مولد القوميات وثورة العلم ، وثورة الصناعة ، وحروب نابليون ، ونشاط الاستعمار الأوربى ضد الوطن العربى ، واعلان الصهيونية عن جانب من خططها فى ركوب الموجة الاستعمارية . والاشتراكية بالاسم هى ترجمة عربية غير دقيقة لكلمة Socialism أى « الاجتماعية » والواضح ان الترجمة العربية أخذت فى اعتبارها مفهوم « المشاركة » بين الأفراد

العاملين فى نصيب متساو من خيرات الوطن والعلم والتقدم ... بينما التسمية الأوربية تحدد أن المجتمع وليس الفرد هو الأساس الموضوعى للاشتراكية ...

ان مولد الاشتراكية العلمية بمقوماتها وهى « الثورة والملكية العامة والعمل والعلم » لا تعنى على الرغم من ايديولوجيتها الالحادية انتهاء ثورة الدين الانسانية ذات المقومات الاشتراكية الطبيعية ، بل تعنى أكثر حتمية امتداد الدين فى الثورة الاشتراكية العلمية ؛ لاستيعابها ، وتوسيع نطاقها ودعمها ... ولا بد من نظـرة مقارنة بينهما ـ على القرب ـ للتحقق من انهما يتوازيان فى سباق عظيم لتحرير العلم والعدل والعمل والجماهير ولا يتناقضان ...

ان نظرة مقارنة حول وحدة المقومات بينهما ـ ماعدا الايمان ـ تؤكد اصالة الدين وايجابيته ، كما تعطى ايضاحا لحلول الاشتراكية العلمية الماركسية الأقل تكاملا بالنسبة لبناء الفرد وتطويعه ـ لاقهره ـ للعمل الجماعى .

من السياق الذى أوردناه عن نشأة دعوة الدين فى منابع الاشتراكية الطبيعية البدائية بايحاء الحرية وليس بضغط الطبقة ... بالثورةالداخلية فى النفس ، وليس بالضغط الخارجى على النفس ، يتبين ان مصدرثورة الدين والاسـلام ـ فى الماضى ـ هو ثورة الاحرار ضـد ذنوبهم وانحرافاتهم نحو طريق العدل الاجتماعى الواضح لهم ، وذلك ليتطهروا ويستعيدوا قدرتهم على العطاء الاجتماعى المتزايد . بينما ثورةالاشتراكية العلمية هى ثورة المقهورين ضد قاهريهم حتى يتحـرروا ويستعيدوا السلطة التى يقيمون بها مجتمع العمل والتخطيط والعدل ...

ان ثورة الدين قامت قبل ان يقع الانقسام والاستغلال الطبقى حتى لا يقع هذا الاستغلال ، بينما ثورة الاشتراكية العلمية قامت لرفع الظلم الذى وقع بالفعل من وجود الانقسام والصراع والاستغلال الطبقى ...

ان ثورة الدين قامت ابتداء من الفرد فى اتجاه المجتمع فتكون بعد تمامها فى المجتمع كله متزنة فى مشاعر الافراد ، وكاملة الاشباع الثورى نهم ، بينما ثورة الاشتراكية العلمية قامت ابتداء من المجتمع فى اتجاه الفرد ، فهى ثورة مجتمع ، أو طبقة كبرى فيه ، موحدة فيها وممتزجة ارادة الأفراد ، وضائعة ومبهمة ملامح كل فرد بذاته ، مما يكون — رغم الانتصار الجماعى — ضاغطا على توازن الفرد الداخلى ، وذلك لان الثورة تكون بارادتها الجماعية فوق احتماله ، وبغايتها التقدميةمتجاوزة لذاته ، هذه الذات التى لا يمكن أن تمحى فى أى تيار ثورى دون أن تورث اهتزازا وقلقا ، أو فتورا ولا مبالاة .

ان ثورة الدين بدأت — فى نفس الفرد — « اخلاقية » ثم انتهت بانتصارها الى قيادة العمل ، وتنظيم الانتاج ، وبث العمران ، فى اطارها الاخلاقى ، بينما ثورة الاشتراكية تبدأ فى مجرى ارادة المجتمع ، وبحكم الضرورة الطبقية فى اتجاه الاقتصاد والانتاج ، ثم تنتهى الى أشكال اخلاقية يحكمها الانتاج اصلا كالعدل فى التوزيع والحوافز ودعم السلام ومقاومة العنصرية الفاشية والاستعمار والصهيونية ...

ان دور الدين سابق — فى المبادىء الثورية الانسانية والاجتماعية المشتركة — للاشتراكية ، ومستوعب لكل مبادئها بامتداد زمنى ، وهو لا يزال حتى اليوم قادرا على ان يمنحها — على نفس الطريق — صيغة التكامل للقضاء على تلك التراكمات التى خلفتها فى حضارات العالم اطماع السلطة الفردية للملوك والاقطاعيين والرأسماليين فى توجيه الجهد البشرى ، وفى تخطيط شكل المدينة القديمة ، الذى لا تزال ترثه المدينة الحديثة ... بينما الاشتراكية العلمية قادرة فى ظروف تخلف العرب على ان تعطيهم من معاوناتها فى اتجاه تطور التكنولوجيا وفى وجهالاستعمار والصهيونية عدوهما الواحد ما قد يمكنهم من استكمالالحرية ، وكسر العدوان ، وبناء التقدم ، وبالتالى من قدرتهم على التنشيط لثورتهم الاجتماعية امتدادا على ايمانهم ودينهم لبناء حياة الانسان العربى

الجديد ، وللمشاركة فى نفس الوقت فى دعم علاقات الاخاء والسلام مع انسان العصر الجديد ... وعالم الاشتراكية الجديد !

انه لم يحدث حتى اليوم ان بنيت مدينة بشكل طوبائى وانسانى من أول الأمر ، شكل يقوم من الجذور على الجماعية فى الاستثمار ، وعلى العدل فى التوزيع ، وعلى الحماية لكرامة الانسان ! لذلك فانه لا يزال امام ثورة الدين الانسانية ، وثورة الاشتراكية العلمية عمل كثير فى هذا العالم لفتح طرق أكثر اشراقا امام الانسان ، بعد ازالة هذه التراكمات والخطايا والذنوب الموروثة من عهود القهر السابقة ، التى لم تمحها حتى عبرات المسيح ، ولا نذر الأنبياء الأولين ، ولا تلك الثورة الانسانية العظيمة التى غير بها الاسلام كل مكتسبات العالم القديم ... ان محو هذه الخطايا ، وقهر هذه الاخطار التى ترابى وتزايد بها الرأسمالية الاستعمارية ، والصهيونية العنصرية فى هذا العصر قد يعتمد كثيرا على نمو هذا الاتحاد فى العمل ، الذى له جذور قديمة مشتركة فى المبادىء بين الدين والاسلام والاشتراكية العلمية ، يدا بيد بين شعوبهما . كما بدأت هذه التجربة الرائعة فى موقف المساندة والدعم من القوى الاشتراكية العالمية للامة العربية فى موقفها النضالى عن وجودها ضد الصهيونية والاستعمار . وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى .

لقد بدأ بالفعل شكل من أشكال هذا التساند بين المؤمنين الذين يبنون الاشتراكية وبين الاشتراكيين العلميين الذين لا يرفضون الايمان ولا يضيقون به صدرا ، وينظرون بعد استقرار اشتراكيتهم ومع تطورها نظرة أوسع الى تجارب شعوب جديدة تفهم الاشتراكية بأسلوبها وهى ليست غريبة عنها وقد تقدم الجديد والخصب الى تجاربها ومبادراتها .

أما بالنسبة للعرب فان تطبيقاتهم العربية للاشتراكية ــ فى اجزاء شعوبهم المتقدمة ــ مع ايمانهم بالله ، ووعيهم للجوهر الانسانى العملى والتقدمى فى مبادىء الدين فى كل تطبيقاتهم الاجتماعية هو التجسيد

فى واقعهم لصورة وحقيقة هذا التلاقى المشترك فى المقومات الاساسية التى تجمع عبر تطبيقات طويلة فى التاريخ بين الاسلام والاشتراكيــة العلمية ... بين الاشتراكية الفطرية الطبيعية الاخلاقيــة القادرة على تجديد قواها ومبادراتها وتجاربها فى الظروف العالمية الحديثة وبين اشتراكية عصر الصناعة والمواجهة للرأسمالية والصــهيونية فى بداية تجاربها مع مشكلات الحياة ومشكلات الانسان الجديد فى ضوء تحرير الفرد والمجتمع ، ورفض الاستعمار والعنصرية ، وحث الخطى لتسخير الطبيعة بالعلم والعدل ــ كما أمر الله ــ من أجل حياة اكرم ؛ وغــد أفضل ، وانسان أكثر اتساقا مع قوانين وفطرة الكون الذى بدأ على عتبته ينظر مشدوها الى مبدعه ...

* * *

١٥ — جذور المقومات الاشتراكية فى الاسلام

أشرنا الى ان مقومات البناء الاجتماعى للاشتراكية العلمية هـو الثورة ... والملكية العامة والعمل والعلم ... ان مثل هذه المقومات قائمة فى البناء الاجتماعى الاسلامى ، وعلينا ان ننظر الى شكلها الخاص وجـذورها فى الاسلام فى الاتجاه الذى يحدده اساسه العقـائدى وايديولوجيته .

أولا — الاسلام يقوم على أساس ثورة تغيير فى نفس الفرد ، تتحول بالقدوة والدعوة المباشرة الى قدرة اجتماعية شاملة . وهذه الثورة مستكملة كل عناصرها فهى فكر عقائدى ، وقيادة ، وتنظيم جماهيرى ، وتثقيف على اساس مقررات العقيدة ، وجهاز اعلام موجه ، وجيش قوى دفاعى . ان الاسلام بطبيعته نظام ثورى وعمل ثورى ، لأنه فى الأصل تغيير عملى مستمر ، وتصحيح مسار دائم فى الحياة للملاءمة بين وجهة الانسان ووجهة الكون فى كل حركة ، وكل فكرة ، وكل علاقة . ان ثورة كل يوم ، وكل لحظة فى الاسلام تنطلق فيه من المفجر الثورى الدائم فى جوهره وهو الاقرار العملى فى كل حركة ، وكل فكرة ، وكل علاقة بانه لا الاه الا الله ... ان طبيعة الثورة فى الاسلام ان انجازه يتم فى كل الحالات برفض شىء واقرار شىء آخر باقصى الوضـوح ... برفض كل النظريات الخاطئة والآلهة الزائفة من أجل اقرار العقيدة التى تبنى الحياة ... التى تبنيها بمشيئة وسنن من له الارادة العليا على الحياة وعلى قوانين الحياة ... وقد تمثل ذلك فى مرحلتين من حياة الرسول.

الأولى — دعوة تغيير ثورية — بمفهوم العصر — لتوحيد القبائل فى مجتمع واحد بايمانهم ... مجتمع ينفتح انسانيا على كل العالم ... وقد وجه الله فى القرآن دعوة التغيير هذه لطليعة المؤمنين الأولين فى ندائه لهم لحرب اخوانهم المرتدين : « تقاتلونهم أو يسلمون » .

المرحلة الثانية ـ دعوة ثورية لاسقاط النظم الاجتماعية الطبقية فى ارجاء الوطن العربى . وقد بدأها الرسول برسائل التحرير التى بعثها الى الملوك والولاة يقول لهم فيها من كلام الله : « قل تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ، وان لا نشرك به شيئا وأن لا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله » .

ثانيا ـ عن الملكية العامة فى البناء الاجتماعى للاسلام :

للاسلام طريقه الواضح الدلالة على الملكية العامة للاموال والموارد الرئيسية حتى فى المجتمع الطبيعى الذى ظهر فيه ـ ان قراره الأول هو ان الموارد والأموال والمصادر العامة كلها لله ، على أساس قاعدة الاستخلاف فى الأرض ، وعلى هذه القاعدة تكون هذه الأموال والمصادر والموارد هى للمستخلفين فى الأرض ، ولكل منهم نصيب فيها بحق العمل أو الحاجة .

ونظرة الاسلام بعد ذلك الى الأموال التى هى ثمرات الجهد البشرى انها تؤمم أيضا من طريق ما يمكن ان نسميه دورة الانفاق الطبيعية أو الرشيدة بين جميع المواطنين .

ان المال الذى هو دم الحياة الاقتصادية يجب ان يسير وينتشر فى كل جسد الأمة بنفس الانتظام الذى يتدفق به الدم فى عروق الاحياء الاصحاء . معنى هذا انه يجب ان توضع كل التحفظات على أية سدود امام هذه الدورة المالية النشطة حتى لا يقع انسداد ، أو تجلط اقتصادى يعيش به جزء من المجتمع محتقنا ويصاب بالشلل فيه بقية المجتمع .

وهذه الدورة لثمرات العمل فى الموارد المملوكة للشعب تنظمها ضوابط ، وتحكمها أبعاد تمنع الاستغلال ، أو تراكم رؤوس الأموال فى أيدى أفراد أو طبقة متميزة .

حكم الاسلام انه اذا ما وقع الاستغلال أو التراكم للثروات رغم ذلك فقد وجبت سيطرة الشعب على ثروته وموارده ، وعلى ثمرات

جهد العمل ، لينال كل مواطن بحق العمل أو حق الاخاء نصيبه الذى يفى بحاجته .

لقد اختار المسلمون فى التطبيقات الأولى هذا الطريق الأول وهو دورة الانفاق الرشيدة لانه لم يكن هناك مقهورون ومسخرون تحت طبقة مستغلة فى بداية ثورة التحرير الاسلامية . بل كانت هنـاك ثورة وقائيـة بين « الأحرار المتكافلين » الذين أراد الله لهم بهـا تصحيح مسارهم على طريق « المشاركة بالعدل » و « الاستخلاف بالعمل » فى مجتمع الاشتراكية البدائية التى كانوا بها قريبى عهد ، حتى لا يقعوا فى مخاطر الطبقية والاستغلال ومصارعهما ...

لذلك كان المؤمنون أول العهد بالاسلام ملتزمين بقوة الايمان بهذه المبادىء والوصايا التى قررها الاسلام فى قضـية الثروة والانفاق ، ومنها :

١ — ليست ملكية المال لأحد ، بل هى لله . وكل تصرف فى المـال الذى هو بايدى الأفراد لابد ان يعود الى شريعة الله الذى هو مالك المال ... وشريعة الله هى العدل ، وتنشيط النفقة من المال على كل أصحاب الحق فيه ...

يقول الله « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ... »

ويقول « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ... »

٢ — الوكلاء فى هذا المال الذى هو مال الله اخوة متكافلون ، وليسوا سادة وعبيدا ، ولقد ترجم الاسلام هذه العلاقات الأخوية بين المسلمين على انها وسط بين عبوديتهم لله وسيادتهم للموارد التى منحها لهم الله .

وفى هذا يقول الله « الله ولى الذين آمنوا » أى أن المؤمنين عباد لله .

ويقول الله « انما المؤمنون أخوة ... » فهذا اقرار بأخوة المؤمنين

ويقول الله « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الارض جميعا » معنى هذا سيادة المؤمنين على المواد والموارد التى أنعم الله بها عليهم ، ليستثمروها بمفهوم ملكية المال لله ، وثمرة العمل لله أيضا .

٣ — انفاق الاخوة المؤمنين للاموال فيما بينهم هو « وظيفة اجتماعية » يحكمها مبدأ اسلامى هو « الانفاق الموجه » وغاية هذا الانفاق هو مرضاة الله فى الدنيا ، واستحقاق جزائه بعد هذه الدنيا ، وقد تحدد بهذا المبدأ ان للانسان « نصيبا » فى ثمرات العمل والوطن هو « الحد المناسب » وما هو بعد ذلك من « فائض الحاجة » عليه ان ينفقه لصالح المجتمع .

يقول الله « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

٤ — اقبال المؤمن على الله وهو يوجه عمله الى مرضاته خفف من نوازع « الاستكثار » من المال ومن «حب التملك» وشهوة «الاقتناء» و « الفردية » فى الانفاق ، واظهار الثقة بالنفس من طريق « المباهاة » ان كل طاقات المؤمن فيما عدا « حد الكفاية » لنفسه يتجه به دعما وجهادا الى اخوته ومجتمعه كما لو كانت المسئولية عن هذا المجتمع كله تتمثل فى شخصه دون سواه ، قربى وزلفى الى الله .

وفى هذا يقول الله :

« قل لو كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » .

٥ — مبدأ الايمان بالبعث والحساب ، هذا الأمر الذى ينكره الماديون قد مد من نظر الانسان المؤمن فى ابعاد الكون ، واقطار الأرض والسماء ، فشمل الأرض وما بعد الأرض فى تأمله وتفكره ، وشمل

الدنيا وما بعد الدنيا فى توقعه وعمله ... وبذلك تحقق توازن كامل وعادل فى توزيع طاقات الانسان الفكرية ، وفى توجيه نوازعه واهتماماته الاجتماعية ، فالايمان بالحساب ولا شك يكبح من جماح الانسان فى عدوانه على الغير بكثرة المال ، وسطوة الاستغلال ، ويسلس من ضراوة الشهوة فيه الى تملك كل شيء ، حتى حياة البشر وكرامتهم ومشاعرهم وعقولهم ، وهو فى مقابل ذلك يزيد الانسان شوقا واستشرافا للعلم ، وحماسا واقبالا على العمل ...

ان الايمان بالبعث والحساب يضعف من علاقة الانسان بالشيء لذاته ، بينما يزيد من مسئوليته عن هذا الشيء من حيث حاجة المجتمع اليه . أو من حيث حاجته هو اليه وسط أخوة فى مجتمع هو مسئول فيه معهم ، أو مسئول فيه عنهم ، فى طريق طويل ، وكون متسع ، وزمن غير منته ، والذى سيسأله عن مواطنيه واخوته ـ وهو الله ـ اقرب اليه من حبل الوريد ، وهو أعلم به وبما ينفعه من نفسه .

ان الايمان بالبعث والحساب هو القوة الدافعة والواعية التى تصد فى المجتمع الاسلامى خطر الاسراف ، وتكافىء بين الاخوة فى « القيمة الانسانية » بالحق والصدق ، بالواقع والوجدان ، من حيث انهم وحدات واحدة امام الله كما علمهم الله ، وهى بذلك تضاعف من نشاط العمل ، وتوضح رؤية الامة المؤمنة لطريقها وأهدافها على المدى القريب والمسار البعيد .

يقول الله « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

٦ — يتجه التشريع الاسلامى فى كثير من المواقف الخاصة والعامة الى « تفتيت الثروات » وهو اتجاه وقائى يسرى فى كيان المجتمع الاسلامى كما لو كان عقارا متغلغلا بالحركة الموجهة ليذيب كل «تراكم» أو « تجلط » أو تشحم اقتصادى يعوق سير الدورة الاقتصادية ، كما

نجد ذلك فى تشريعات الزواج والطلاق والميراث ، والتحكيم والكفارات وغيرها ...

٧ — يشتمل الاسلام على كثير من المبادىء التى هى فى أصوله العقائدية أساس لتوجيه سياسة المجتمع ، فى الحال أو الاستقبال ، فهى مبادىء عامة تحدد دون لبس نظرة وقرار الاسلام بالنسبة للثروة والمشاركة فيها ومنع تراكمها ، واستغلال الناس بها ، وحرمان أحد من حقه مهما قل فيها ..

من هذه المبادىء والأصول الفكرية فى نظرة الاسلام الى قضية الثروة والمال :

(ا) يقول الله « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » وهذا قانون بعنى الحقائق الآتية :

أولا :اذا استغنى أحد عن المجتمع ـ بتراكم الاموال ـ انفصل عنه فى اتجاه الاستعلاء عليه ، وهذا يؤدى الى طغيانه فى هذا المجتمع وتحوله فى مجال الاقتصاد الى مركز قوة خطر يعبث بمصالح ومصاير المواطنين ...

ثانيا : لا يجوز لأحد أن يستغنى عن المجتمع لهذا السبب ، أى حتى لا يطغى ويؤثر ضد مصالح المجتمع . وهذا أساس لشرعية تأميم الثروات اذا لم تكن لها وظيفة اجتماعية .

ثالثا : لا بد لكل انسان لا يستغنى عن المجتمع ان يعمل من اجل هذا المجتمع ، فهذا هو الشكل الوحيد لمقاومة خطر الرغبة فى الاستغناء عن المجتمع ، اتجاها الى الطغيان عليه من مراكز القوة الاقتصادية .

(ب) ويقول الله فى نفس المعنى بالنسبة للطبقة أو للأمم :

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ... » أى لو كانت

الثمرات والأموال تأتى هينة وسهلة لاتنتهى تكاثرها فى أيدى البشر الى السيطرة والبغى والظلم ...

(جـ) ويقول الله فيما ينتهى اليه ترف الطبقة التى تجمع الاموال دون جهد ، ومن غير حق من هلاك المجتمعات وانحلالها « واذا اردنا ان نهلك قرية أمـــرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القـــول فدمرناها تدميرا ... »

ويقول « انه لا يحب المسرفين ... »

معنى هذا ان الترف والاسراف من اسباب الاختلال الاجتماعى التى تؤدى الى الانهيار أو الثورة .

(د) ويقول الله « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » أى ان الاسلام يرفض كل أشكال البخس للحقوق ، من الاستغلال ، وخفض الأجور ، والحرمان من حق التعليم ، والعلاج ، والسكن ، والرعاية الاجتماعية ، والموقع المناسب فى العمل ، وتوفير الكرامة الانسانية للفرد فى كل حال وتنيجة لهذا فان الاسلام يرفض الربا لأنه استغلال لحاجـــة الفرد ، وانقضاض عليه فى وقت ضائقة ، وسرقة فائدة المال منه بغير جهد ، اهدارا لحق الرعاية الذى كفله المجتمع الاسلامى لكل من فيه . لذلك فان الربا ليس هو استغلال الحاجة الى المال وحده ، وانما هو فى كل نوع من أنواع الضغط يعطى حقا من غير مقابل .

(هـ) ويقول الله « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن الســـبيل فريضة من الله ... »

ومعنى هذا ان الزكاة والصدقات حقوق مفروضة للمجتمع على الأفراد ، فى يد دولة الشعب ، وهدفها التأمين الاجتماعى فى شـــكل تأمين دورة الانفاق للمال بين جميع المواطنين ، هذه الدورات الطبيعية

التى تشيع بها الحياة والطمأنينة والاخاء والرخاء ... انها فريضة وليست مجرد تطوع !

(و) ويقــول الله « وما انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خــير الرازقين » أى ان دورة الانفاق التى اكتشفها الاقتصاد الحديث هى مبدأ اسلامى يمنع تركيز الأموال ، ويوقف كنزها ، ويحد من الاسراف، ويضاعف من حجم المعاملات ، ويؤكد الثقة التى تثبت الاسعار ، وتزيد الرواج ... الخ

ثالثا : عن قيمة العمل فى المقومات الاشتراكية بالاسلام نجد ان الاسلام منذ أربعة عشر قرنا جعل ـ أكثر من أى مذهب حديث ـ قيمة الانسان محددة بعمله ، فالانسان فى لغة القرآن هو عمله بغــير زيادة أو نقص . ليس عشيرته ولا لونه ولا لسانه بالذى يزيد من قيمته شيئا أكثر من « العمل » الذى يقوم به . فالعمل هو وحده القياس الوحيد لطول المجتمع الاسلامى وعرضه ، وارتفاعه ، جماعة أو أفرادا . والعمل هو طريق التقدم ووسيلته فى هذا المجتمع ، الذى تتجاوزحدوده وغايات العمل به هذا العالم الصغير ، القابل للزوال فى أى لحظة ، بل يمتد العمل بالانسان مع غاية هذا المجتمع الى هدف التمكن من موضع باق فى ذلك العالم الخالد الكبير الذى يسعى اليه ، وهو « الجنة » أى الطمأنينة بالعلم والايمان ورضوان الله الى الأبد ... بغير اضمحلال أو زوال !

ان الانسان فى الاسلام ليس سوى عمله ، حتى ايمانه لا قيمة له بغير العمل .

لذلك حرم الاسلام الربا لأنه كسب بلا عمل ، وحرم الاستغلال بكل صوره لأنه انتقاص لحقوق يكتسبها البشر بالعمل ، وجعــل الاستغلال بكل صوره مساويا للكفر والطغيان ، لأنه انتقاص للحقوق التى يكتسبها البشر بالعمل .

يقول الله « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

ويقول « انما تجزون ما كنتم تعملون »

ويقول فى معنى ان العمل هو تجسيد عقيدة العامين « قل كل يعمل على شاكلته » .

ويقول أيضا فى هذا المعنى « وقالوا لنا أعمالنا ولكم اعمالكم » .

ويقول فى أن تقييم الأفراد فى الدنيا والآخرة هــو بالعمل الذى يقاسون به على درجات وليس طبقات : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون » ... الدرجة هى المستوعى الاجتماعى الذى يتزايد أو يتناقص بمقياس واحد ، نحو اتجاه واحــد ... بينما الطبقة مركز مضاد بالقياس والاتجاه للطبقة الأخرى !

ثم يقول ان منتهى العمل هو الى الله الذى يقبل الصالح منه « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

رابعا : عن العلم فى المقومات الاشتراكية فى الاسلام وهو محل الحد المميز للاساس الثورى فى مفهوم الاشتراكية العلمية تقول ان الفهم الصحيح لجوهر الاسلام واساسه العقــائدى يؤكد انه مؤصل على العلم ، وان العلم بمفهوم « قوانين المادة » جزء اساسى فى مفهوم كلمة العلم بمعنى الدين فى القرآن ، وان برهان الدين فى كل دعوته التحريرية فى هذا العالم القريب من أجل ذلك العالم البعيد مشتق من العــلم الذى تقصد به قوانين المادة ...

ولكن ما هو الدليل على هذه الحقيقة التى لا تجد ما يسندها عند من يجادلون عن الاشتراكية العلمية فى رفضها للدين فى الجانب الغيبى من قضاياه ؟ ...

فى هذا الجزء الأول من هذا الكتاب أفردنا بابا للكلامعن « الاسلام والعلم » حيث أوضحنا بادلة عقلية علمية ان مفهوم العلم فى القرآن أوسع منه فى أى مذهب أو ايديولوجية سواه ، حتى ما هو فى مفهوم

الاشتراكية العلمية عنه ... وفيما يلى نوجز القول فى الأساس العلمى اليقينى للاسلام :

كشف التقدم العلمى الحديث عن حاجة المجتمع المتقدم الى «عقلية علمية» تكون أساسا لبناء هذا المجتمع بالعلم . ان العلم ليس فى تقدم المجتمعات عملا فرديا ، او نشاطا جزئيا لفئة من العلماء فى المجتمع . لا بد للتقدم العلمى فى مجتمع ما من « عقلية علمية » تبنيها « نظرة علمية » صحيحة وشاملة للحياة . هذه النظرة لها ثلاث قواعد اساسية :

١ — ان الكون المحيط بنا ، ما نراه منه وما لا نراه ، كل متجانس . هو كون واحد وليس أكوانا متعددة لكل منها قوانينها الخاصة ...

٢ — قوانين الطبيعة التى تسود هذا الكون الواحد متسقة ، وثابتة وليست عرضة فى جوهرها للتغيير والتعديل .

٣ — وحدات الأنواع فى المادة الكونية تساوى فى القيمة العلمية المادة نفسها التى هى منها .

هذه هى القواعد الثلاث التى يتألف من اتحادها فى الفكر « نظرة علمية » للحياة ، وحركة المادة ، وظواهر الطبيعة ، وفكر الانسان ، يمكن ان يقوم عليها صرح العلم ، لأنه بهذه النظرة وحدها يتم اكتشاف القوانين العلمية ، ويتضاعف الكشف عنها ، مع وعى عميق لحركتها وتفاعلاتها يطبع حياة المجتمع المتقدم بالطابع العلمى ، وتعطى لهذا المجتمع فرصة تقييم معتقداته الاجتماعية على اساس العلم .

وعندما نحاول ان نستكشف موقف الاسلام من الأساس العلمى فى بنائه ، العقائدى والاجتماعى والانسانى ، نبدأ بالبحث عن قواعد النظرة العلمية فى كتابه الفريد والخالد وهو « القرآن » فاذا تبين أن القرآن يسوق هذه القواعد نفسها فى مجرى دعوته وهو يبنى فى افراد

المدعوين به هذه « النظرة العلمية » أو « العقلية العلمية » لفهمه ، ولفهم ما حولهم به ، جاز لنا أن نسقط الدعوى المتعسفة التى تدعى انالاسلام بوصفه دينا ليس مؤسسا على العلم .

يقرر القرآن ان الكون الذى هو فى لغته « ملكوت السماوات والأرض » كون واحد ، وليس جملة أكوان ، وهو فى هذا يقدم السبب فى انه واحد ، ويقدم الدليل أيضا على انه لا يمكن ان يكون الا واحدا وهو مالم يقدمه المجتمع المتقدم الحديث ...

يقول الله عن وحدة الكون ، أى وحدة السماوات والأرض :
« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ... »

معنى هذا ان للكون الاها واحدا ، فهذا سبب وحدته وعدم انقسامه ، ثم يقول — ولا يمكن الا ان يكون للكون الاه واحد والا لفسد بغير الاه ، او بتعدد الآلهة فيه ...

ثم يقول فى هذا المعنى لوحدة الكون وتنزهه عن اكثر من مؤثر واحد « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن »

ثم يقول الله فى تأكيد هذا المعنى أيضا ، وفى تعادل الكون واستمراره بقوة « الالاه الواحد » الذى يديره :

« وما كان معه من الاه ، اذن لذهب كل الاه بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » .

أى لو كان آلهة متعددة لكانت أكوانا متعددة بقدر عددهم ، ولنشب بينهم صراع ينقض الكون ، ويهدم الحياة ، ويطمس العلم ، وهذا مالم يحدث يقينا ...

ويقول الله عن وحدانيته فى الكون الواحد : « وهو الذى فى

السماء الاه و فىالأرض الاه . » وبذلك تتسق القوانين ولا يحدث الاختلال فى أى موضع من هذا الكون الواحد المتسق .

ويقول الله فى ان وحدة هذا الكون تظهر فى اتساق قوانينه ، واتساق هذه القوانين يعبر عنه هذا الاطراد والاتساق فى مشاهد الطبيعة كما يراها الانسان ، اذ أنه لو لم تكن قوانين هذا الكون متسقة ما كانت الطبيعة التى تعبر عنها هذه القوانين متسقة ـ يقول الله :
« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ... »

ويقول أيضا « ان كل شيء خلقناه بقدر ... »

ويقول « ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم » أى انه حتى مع اختلاف الخلق والانواع والاطوار فان طابع الخلق على كل الأشياء واحد ... لا توجد بصمات لأكثر من خالق . . . لايوجد الا توقيع واحد على كل الخلق .. والأشياء ... هو الله

وفى مجالالتساوى لوحدات المادة فى القيمة العلميةبالمواد والعناصر التى تنتمى اليها يضرب الله المثال على هذه القاعدة وهو يعلنها فىالقرآن بالانسان نفسه ، ليبين بهذا المثال ان قيمة « الفرد » ـ الذى هووحدة المجتمع الانسانى ـ تساوى فى قياسات علم الاجتماع ، وقاعدة التحرير كما تساوى فى علوم التشريح والحياة ـ قيمة البشر جميعا !

يقول الله فى هذا المثال البالغ الدلالة على ان الدين علم :
« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن احياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

كذلك يقول الله « ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد » فالماء الذى لا يتغير بكل مكان يبنى الحياة المتغيرة الطعوم والاشكال والألوان والرائحة فى كل مكان ...

هذا هو القياس فى ـ علم الحرية ـ ديمقراطية واشتراكية ، سياسية

واجتماعية ـ لا ينبغى ان يكون واحد من البشر فى أى مجتمع أقل من واحد ، ولا ينبغى أن يكون واحد أكثر من واحد ، فاذا حدث ذلك فكأنما هو يحدث فى كسر الاساس العلمى للحرية بالنسبة لجميع البشر وهم متساوون علميا امام القوة الخالقة لهم .

بهذه القواعد المتكاملة لبناء نظرة علمية فى فكر المؤمنين المسلمين قدم القرآن من خلال التطبيقات الاسلامية ذلك المنهج العلمى التجريبى الذى أزاح عن صدر البشر كابوس الفلسفة اليونانية التجريدية ، التى استخدمت أدواتها المنطقية السفسطائية ، لتتكلم عن العالم من نقطة خارجة عنه ، وليس من واقع متحرك فيه ، فأوقعت العالم فى ظلمات الجدل البيزنطى حتى جاء الاسلام فحرر البشر ، وأوربا بخاصة ، من مباحث هذه الفلسفة العقيمة المضللة ، واهدى اليها حقيقة العلم فى منهج التجربة ... وما كان ليفعل ذلك وهو غير قائم ـ فى كل دعائمة ـ على هذا الأساس العلمى .

نظرة مقارنة اخيرة :

فى البناء الاجتماعى لكل من الاسلام والاشتراكية العلمية يقع هذا الاتفاق فى مقومات أساسية هى « الثورة والملكية العامة والعمل والعلم » كما يقع الاتفاق فى أهداف المقاومة للاستعمار وكل صور السياسة العنصرية مع دعم السلام العالمى والتعاون بين الشعوب من أجل الرخاء .

وفى نظرة أخيرة على تعريف الاشتراكية العلمية نلمح وجوه الاتفاق « الاجتماعية » واضحة بينها وبين الاسلام مع هذه التحفظات التى أشرنا اليها من قبل ، بين الطبيعى والقسرى ، الالاهى والبشرى ، من هذه المبادىء التى تستهدف حرية الانسان ورخاءه وسلامه بالمعرفة والعمل والعدل .

الاشتراكية العلمية فى أقرب التعريفات الى جوهرها ـ هى « نظام

علمى للعلاقات الاقتصادية فى مجتمع العاملين ، يقوم على اساس التفسير المادى للحياة ، الذى يقضى - بمفهومه للتطور الاجتماعى بحتمية الاتجاه من العلاقات الانتاجية المتناقضة فى مجتمع الاقطاع والرأسمالية الى العلاقات الانتاجية المتساوية بين العاملين المالكين لوسائل الانتاج فى المجتمع الاشتراكى بطريق الثورة » .

فى ضوء هذا يمكن أن يقال ايضا فى تعريف الاشتراكية العلمية :

« الاشتراكية هى طريق لبناء المجتمع تحت قيادة الطبقة العاملة والفلاحين على أساس اعادة العلاقات الانتاجية الى وضعها الطبيعى المتساوى ، الذى يكفل لكل فرد فى مجتمع العاملين - حدا مناسبا من المعيشة على قاعدة الاشتراك الجماعى فى التمتع بخيرات الطبيعة والعلم والمدنية ، والذى يتيح لكل فرد ان يعمل فى ظل تكافؤ الفرص ، وتباين درجات المعرفة والخبرة ، من أجل ان يتمتع بمستوى أعلى من هذا الحد المناسب تبعا لنتائج عمله فى خدمة المجتمع . بشرط ان لا يؤدى التفاوت فى الدرجات الاقتصادية على أساس العمل الى أى شكل من أشكال الامتياز أو الاستغلال الطبقى أو الرأسمالى » .

ان هاتين الصيغتين لتعريف الاشتراكية العلمية لا تبتعد بنا كثيرا - فيما عدا قضية الايمان - عن طبيعة التعريف الذى أوردناه سابقا عن الاسلام من حيث المقومات الأساسية فى النظرة الى بناء المجتمع ، الا انه من الواضح بسبب الفارق فى الأساس العقائدى ، وبسبب تركيز الاسلام على الفرد واعتباره هو البداية للثورة ، وتركيز الاشتراكية العلمية على المجتمع واعتباره هو مركز الثورة أى هو الفرد الثائر - فان المفاهيم الاسلامية تظهر بطابع واتجاه اخلاقى فى قواعد العمل أو الاقتصاد ، بينما المفاهيم الاشتراكية العلمية تظهر بطابع واتجاه عملى أو اقتصادى فى معايير الاخلاق .

* * *

١٦ — سؤال عن الله

يتبقى فى ختام هذه الدراسة الموجزة سـؤال عن الله من جانب الاشتراكية العلمية ، وجواب عن هذا السؤال من جانب المؤمنين بالدين والاسلام ، وذلك لاغلاق دورة الحوار عند نقطة امكان الاتفاق على الخلاف ..

لقد اشترك غير الاشتراكيين عبر قرون طويلة فى طرح هذا السؤال الذى كان اثباته أو نقضـه موضوع فلسفات متعـددة ، متعاقبة ، ومتناقضة مع نفسها ومع غيرها فى نفس الوقت . ولكن بالنسبة الى الاشتراكية العلمية فالجواب على تساؤلها عن الله أيسر من الجواب الذى يوجه الى غيرهم ممن لا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالانسان فى نفس الوقت ...

ما هو الجواب المتاح على هذا السؤال القديم والجديد ؟

هل من الممكن اثبات « الله » على أساس برهان علمى ؟

الجواب للاشتراكية العلمية نوجزه فيما يأتى من الجانب الاسلامى:

« انه بالنسبة للمؤمنين بالاسلام فانهم لا يستطيعون بالدليل الذى ينحصر فى أدوات الاختبار العلمى للمادة ان يثبتوا « الله » لمن ينكرون العلم به الا عن طريق هذه الأدوات ...

كذلك فان الاشتراكيين الماركسيين الماديين بالمقابل لا يستطيعون باستخدام هذه الأدوات نفسها لاختبار المادة علميا ان يثبتوا «استحالة» وجود الله لمن يؤمنون به يقينا من غير طريق هذه الأدوات ...

فالموقف اذن فى قضية الله متعادل بين الاسلام والاشتراكية العلمية ولكن حيث ان العلم هو أساس معتمد فى البناء الفكرى لكل منهما فان

انتظار حكم العلم فى هذه القضية ـ وهو مقبول منهما معا ـ لن يمنع مسيرتهما المشتركة المتوازية على الطريق الذى تمتد عليه نقاط كثيرة للاتفاق بينهما ، وأهداف كثيرة للعمل تجمعهما ، أهداف تتأصل بهـا صداقتهما يوما بعد يوم ، وهم يواجهون عدوا واحـدا للانسانية ، ويعملون معا على أن تخلص انسانية الانسان فى كل شعوب الأرض من قبضة القهر والتخلف والاستغلال والعنصرية ...

* * *

١٧ — الخلاصة ...

يمكن تلخيص ما سبق فى النتائج الآتية لهذا البحث :

١ — نشأة بداية الدين الآلاهى فى كل دعواته بين القبائل العربية بصحراء الوطن العربى لها أساس علمى ، هذا الاساس يبدو فيما اتيح لهذه القبائل بالحركة الدائبة فى الآفاق ، وبالضرورة الاقتصادية وراء المرعى — من اكتشاف وحدة الكون واتساق قوانينه ، وقيام هذه القوة العليا فوق كل شىء ، هذه القوة التى تمنع التصادم والاختلال ، وهى الله ... كما أتيح لهم — من هذا التلقى الطبيعى — تنمية لغة ذات شكل حى فى اشتقاقاتها ، قادرة على التعبير بمسمياتها وصيغها عن نفاذنظرتهم العلمية فى الأشياء ، وعن حسهم المتيقظ لهذا القانون الواحد الذى يحكمها ...

٢ — حياة هذه القبائل العربية الأولى فى نظامها الأبوى بأسمائها ، مثل بنو هاشم ، بنو عبد مناف ، بنو أمية ، بنو شيبان ، بنو تميم ، بنو خالد ، وفىتشكيلاتها ومنظماتها المتحركة ، وفىاقتصادها الاستهلاكى من اتناج مباشر للطبيعة « الماء والمرعى » كانت تجربتها الفريدة لبناء علاقاتها الاجتماعية على أساس « الذات الجماعية فوق الذات الفردية » لكل الافراد . وتأسيسا على ذلك المبدأ الجماهيرى فى الاجتماع استقر المبدأ الاشتراكى — بلغة العصر — القائل بان كل ما فى حوزة المجتمع من مصادر الثروة وما فى أيدى الأفراد من الأموال — من ناتج عملهم — هو « مال عام » للجماعة فى كل ما زاد عن الحاجة . وان هذا المبدأ عرف أو قانون تحمى القبيلة تطبيقه بالقوة ...

٣ — استقر من خلال هذه « الذات الجماعية » فى القبيلة ، ومن خلال حياة « عمومية الاموال » و « مشاعية الثروة » فى المرعى ، وطرق التجارة ، والمناجم ، مفهوم واسع ، علمى وعملى ، للحرية ارتبطت به

واتحدت حرية الفرد بحرية المجتمع ، انضباطا مع قوة الواقع الطبيعى ــ السماوى والأرضى ــ لمعترك حياة القبيلة ، وليس من خلال تنظيم وتدريب سياسى محدود الأثر داخل المجتمع الصغير . كذلك استقر مفهوم واسع وعلمى وعملى للعمل السياسى والقيادى ــ للديمقراطية كما نسميها ــ وذلك ان معنى الحرية السياسية للقبيلة ارتبط بمفهوم « العزة » التى هى ضد « الذل » والتى معناها الدقيق « مناعة المجتمع ضد الانهيار » وذلك بصلابته فى مواجهة المخاطر ، وقدرته الجماعيـة على تجاوز العقبات ، وهزيمة الاعداء ... ولذلك كان اختيار أفراد القبيلة لقيادتها امرا حتميا ، وعملا من أعمال الأمن للقبيلة وجودا ودلالة وتاريخا . وكانت الأهلية للقيادة هى القدرة على حماية وحدة القبيلة ودعم نظام تقسيم الأموال بينها ، والكفاءة لقيادتها فى الحروب ، التى تنشأ عادة بينها وبين غيرها من القبائل على خلافات عرفية ، أو على مفهوم فى نظرية تقسيم الأموال ومصادر الثروة بالتساوى ...

٤ — عاشت هذه القبائل ، أو هذه المنظمات الاجتماعية والسياسية النشطة داخل ذلك العالم الفسيح من «القفر المحرق والظمأ المستحكم» فى حالة نضال ميدانى ــ سلما وحربا ــ حول تثبيت هذه المبادىء فى الواقع ، وتسجيلها اليومى فى كتاب الشعر والوصايا ومأثور القول ، حتى جاء الاسلام فنقل هذه القبائل جميعها وهو يوحدها ــ دون أن يهدم نظامها الأساسى ــ من عرف القبيلة الموضوع الى شريعة الله الأزلية . هذه الشريعة التى نظمت بوضوح مبادىء وأسس الايمان وارادة التغيير والحرية والعـلم والعمل والعدل وعمومية الامـوال والثروات ــ ثم دفع بهذه الأمة الموحدة من أجزاء القبائل المتجانسة عرفا من مجال التدريب الضيق فى الصحراء ، بعد تخليصها من شقاق التنافس ، وتطرف العصبية ، وعتمة الشرك ، الى آفاق تطبيقية واسعة واطوار رحبة جديدة ، ومؤثرة فى تاريخ المجتمع الانسانى ...

٥ ــ كان امتداد هذا المجتمع العربى الموحد بالايمان ــ فى القرن السابع نافذا بالدعوة الاسلامية فى المجتمع العربى المجاور ــ الخاضع

للكسروية الفارسية والقيصرية البيزنطية ـ هو بداية تفجر هـذه « الثورة التحريرية » الاجتماعية العظمى ، بمفهوم ثورة انسانية علمية ، رفعت من الخليج الى المحيط ، ومن الهند الى جنوب فرنسا شعار اسقاط حكومات « الارباب من البشر » لاقامة مجتمع المؤمنين ، وأمة المسلمين ... على أساس العلم والعدل ومسئولية الفرد عما يعمل ، ومالا يعمل ...

٦ — الاسلام بهـذه التجربة الثورية التى بنى بها أول حضارة جماهيرية قائمة على ارادة التغيير ، وعلى مقومات وقيمة الانسان والعلم والعمل والوظيفة الاجتماعية للمال يكون قد نقل الاشكال المبعثرة لتلك المقومات الاشتراكية الطبيعية من منطقة نشوئها وراء أسوار المجتمع القبلى فى الصحراء العربية الى الصياغة الوحدوية النشطة لهذه القبائل داخل مجرى الشريعة الالاهية الأزلية ـ ودفعها الى أفق عالمى أوسع شمل كل أرجاء الأرض ، مما ادى الى وقوع عدة تغيرات جوهرية فى تاريخ الانسان ، أهمها تحول الفكر فى ميدان العلم من المذهب التجريدى فى فلسفة اليونان الى المذهب التجريبى الذى استخلصه العرب المؤمنون من القرآن ، الأمر الذى جعل الثورة الصناعية ، ونمو الرأسمالية ، وانطلاق الاستعمار ، ونشأة الاشتراكية العلمية ، احـداثا حتمية ، ومتداعية منطقيا خلال القرن التاسع عشر ... معنى هذا كله ان الاسلام لم ينشأ من فراغ ، ولم يكن فكرا تجريديا من عند الله لغير المستعدين له ، فالله « أعلم حيث يجعل رسالته » لذلك فالانسان العربى القبلى الأول هو الأساس الموضوعى لبحث تاريخ الدين ... واذا كانت اكثر الشعوب ، وبخاصة الاوروبية ، تحتفظ بشكل أو بآخر بتاريخ وجودها القبلى الأول كمنطلق لوجودها القومى ، وتتذكر ذلك فى اعيادها القومية وآثارها الادبية والمسرحية ، فان واجب المسلمين والامة العربية ان يسترجعوا دائما تفاصيل ودقائق الحياة القبلية الأولى ، والتى لا يزال لها وجود كامل على أرضهم ، كمنطلق لفهم مقومات وجودهم القومى وفكرهم الدينى فى تفس الوقت ...

٧ — قيام الثورة الاجتماعية الاشتراكية فى العالم القـائم على

أســاس الصناعة المتقدمة واتجاه المجاميع البشرية فى آسية وافريقية للتحول بالاشتراكية من رعاة وفلاحين وعاطلين الى عمال وجنود وساسة لايعنى توقف الثورة الدينية عن مهمتها فى تصحيح مسار المجتمعات الانسانية ، بل يعنى بداية جديدة حتمية لحل التناقض القائم والمتزايد بين الانسان ونفسه — فى هذا العصر — فى قضية الايمان وسلام النفس الداخلى ، ثم بين الانسان وظله « الانسان الآلى » الذى جعله الانسان يتحرك ويفكر وينطق . ليكون محور مشكلة العصر الكبرى ، وهى كيفيــة السيطرة بعقيدة ما على العلم من أجل سلام وبقاء المجتمــع البشرى ...

٨ — ان ما يحدث الآن فى هذا العصر هو طــور هام فى تاريخ الانسان يتلاقى فيه « الالآهى والبشرى » من النظم « الثورية » التى تتوخى بالعلم بناء المجتمعات الانسانية بالكفاية والعدل . وفى هــذا اللقاء المقدور تتجه حركة مئات الملايين من البشر المسلمين والمسيحيين الى ارادة التحرر الاجتماعى الاشتراكى ولكن على قاعدة الايمان بالله الذى هو امتداد رؤيتها القبلية منذ فجر التاريخ — لما وراء المرئى على أساس علمى . بينما تتجه مشاعر مئات الملايين من الشعوب التى اقامت مجتمع الاشتراكية العلمية بالفعل — فى أوروبا الشرقية والصين وكوبا — الى امنية الايمان الذى لا يمكن ان يكون ترفا أو غباء فى حياة الانسان الاشــتراكى الذى تجرد من الذات الفردية واقام النظــام الجماهيرى فوق انقاض الملكية والكهنوت . بل هو نزوع طبيعى تؤكده النظرة العلمية الى هذا الوجود المؤثر فلكيا وحيويا ونفسيا من هــذا الجانب الأعظم فى الكون غير المرئى حولنا ، هذا الجانب الذى وان كنا لانراه الا اننا نحسه ، ونتأثر به تماما فوق ما هو من قدرة أى أجهزة دقيقة على تســجيله ... ان هذه « الجاذبية » المؤكدة لهــذا الجانب الأعظم من الكون والتى لا يمكن ان تغفل عنها « أجهزتنا » الداخلية فى انفسنا وقلوبنا حتى فى أعظم الغرق فى لجج المشكلات اليومية المعقدة — هى أول بوادر الحاجة الشديدة الى هذا الايمان !

٩ — ان مثل هذا التصور — وكيفما كان الأمر — يلقى على كواهل المؤمنين بالله عبئا عظيما فى بناء مجتمعاتهم الاشتراكية على أساس فهم هذه المقومات الاشتراكية فى اساسها الدينى الصحيح ، اعتمادا على جوهره قبل تحريفه ، وعلى تطبيقاته السليمة ، كما يمكن تصور امتدادها على مبادىء الدين فى مشكلات العصر وحاجاته . ان « الله » الذى يفزع المؤمنون خوفا على ايمانهم به — فى عصر من أخطر عصور التحولات والتطورات فى عقل الانسان ومصيره — لا ينبغى ان يبقى مجرد كلمة فى الأفواه . ان الايمان الحق بالله هو ثورة تغيير — كما أثبت ذلك الأفراد والمجتمعات الطليعية السابقة فى تاريخ أمتنا ... الايمان هو ارادة حقيقية للتحول من الاستسلام للاشكال الخادعة التى يموه بها الاستعمار ونظمه الطبقية ، وانحلالاته الخلقية ، وافتراسه لمعتقدات وموارد الشعوب ، الى بناء هذا المجتمع الجماهيرى الانسانى الراسخ على دعائم العلم والعمل والعدل والايثار ، وهذا وحده هو البرهان على ان الايمان يستند الى علم ودافع وواقع . انه برهان حى لمن لا يؤمنون ، بل هو برهان حى قوى للمؤمنين أنفسهم !

١٠ — ان قيام هذا التكامل بين المؤمنين الذين يبنون الاشتراكية والاشتراكيين العلميين الذين لا يرفضون الايمان ، هو القوة الوحيدة القادرة فى هذا العصر على هزيمة تحالف الصهيونية والاستعمار هزيمة ساحقة ...

وأخيرا ...

عندما قال كارل ماركس ان « الدين أفيون الشعوب » لم يكن يعنى بالتحديد — كما تصور — ... أو ما كان يستطيع ان يعنى الا تلك الأشكال والطقوس والتعاليم المبتدعة فى أوروبا ، التى انحرفت عن الدين الصحيح ، والتى قامت بها هذه الجماعات التى تواطأت مع الملوك لاقتسام الأموال والسلطة ، أو حاربت الملوك لانتزاع الأموال والسلطة والتى ابتعدت بذلك كثيرا عن جوهر الدعوة الالآهية ...

لم يكن ماركس ورواد الاشتراكيـة الأولين يفكرون فى الدين الصحيح ـ أو يعرفونه ـ فى عصر لم يكن به مجتمع واحد قائم على الدين الصحيح . كان المؤمنون والابرار يعيشون ـ كما تتصورهم ـ فى الخلوات والاديرة . وكان الانجيل يناضل وحده ومن ورائه دعاة اكليروسيون غير اكفاء وغير صادقين فى تلك المعارك الجدلية العنيفـة التى ثارت فى القرن التاسع عشر بين المذهب العقلى والدين ... بين رجال اللاهوت والكتاب المقدس فى جانب ورجال العـلم والمختبر فى الجانب الآخر .. كان الكاثوليك متهمين من قبل العلمانيين بأنهم بقيادة البابا يحجرون على التقدم العلمى الذى تنهار بتقدمه السدودعلىالحرية أمام الجماهير . وكان البروتستانت متهمين من قبل الاشتراكيين بأنهم يصمتون عن الجرائم الاستعمارية البشعة ، وان مارتن لوثر فى القرن السادس عشر صاغ توبيخا قاسيا ، ونقدا مهينا للفلاحين الالمان الذين قاموا بأول ثورة مسلحة مشروعة على ظلم نبلاء الاقطاع ... وفى مثل هذا المناخ الفائر بالسباب السـياسى ، وصراخ الآلام الاجتماعية ، وضـوضاء وجلبة اللصوص من رجال الصناعـة ، وضجيج الصراع والتناطح بين السلطة والثورة والدين ... بين الدولة والكهنة والنقابات والعلماء ـ لم يكن متوقعا ـ وان كان القرآن قد ترجم الى الالمانية ـ ان يجد كارل ماركس أو أصدقاؤه وهو يؤسس فكر المادية الجدلية ، والمادية التاريخية ، حافزا للنظر فى كتاب المسلمين من خلال ترجمـة مغايرة للاصل ، وشروح استشراقية بعيدة عن الصواب ... !

ومع ذلك فان كارل ماركس وهو يقرأ تاريخ الأديان وتاريخ العرب والعبرانيين ، سأل نفسه هذا السؤال الهامالذى لميستطع الاجابة عليه، أو لم يجد حافزا لبحثه بذهنه المتوقد . ففى احدى رسائله الى انجلز فى عام ١٨٥٢ وهما يتبادلان الفكر فى لحظة عابرة عن العرب والعبرانيين والاسلام قال كارل ماركس مقررا هذه الملاحظات :

١ — (يمكن اثبات وجود علاقة عامة منذ بداية التاريخ بين كافة

القبائل فى الشرق « يعنى الشرق العربى » وبين استقرار الحياة فى جزء من القبائل وحياة البدو فى الجانب الآخر ...)

٢ — (فى زمن محمد جرى تعديل كبير فى الطريق التجارى بين اوروبا وآسيا ، وكانت المدن الدينية التجارية التى كان لها دور كبير فى التجارة مع الهند تعانى حالة من الانهيـار التجارى) ...

« يريد ان يربط بين ما يسميه ثورة محمد والعوامل الاقتصادية»

٣ — (بالنسبة للدين فان السؤال هو : لماذا يبـدو تاريخ الشرق العربى وكأنه تاريخ الدين ؟) ... استمرار لاقوال ماركس

لم يمض ماركس بعيدا فى استنتاجاته ، ولم يحدد اجابة واضحة فالأمر بمنطقه لا يهمه كثيرا ، ولكن فريدريك انجلز يحاول فى عملية التبادل الفكرى بالرسائل ان يضـع اجابة لأسئلة ماركس عن الدين فيقول فى رسالة منه اليه من مانشستر فى مايو ١٨٥٢ :

« ان الاسفار اليهودية المقدسة لم تكن اكثر من تسجيل للتقاليـد العربية القديمة » الدينية منها والقبلية ...

ثم يقول : « يبدو ان العرب حيث استقروا فى الجنوب العربى كانوا متحضرين مثل المصريين والآشوريين كما تبرهن على ذلك تلك المبانى التى شيدوها ، وفيما يختص بدين محمد فانه استنادا الى النقوش القديمة فى الجنوب حيث كانت التقاليد العربية القديمة والقومية الموحدة ما تزال سائدة فان ثورة محمد الدينية كانت رد فعل وعودة للقديم والبسيط » ... انتهى قول انجلز

ان هذه الأفكار البسيطة عن الاسلام ، وعن الدعوة الانسانيـة العظمى التى قام بها محمد صادعا بأمر الله ، والتى حققت أعظم تجاوب بشرى ، ثورى وعلمى وسلمى خلال قرون طويلة ومضيئة من تاريخ العالم والتى انتهت بطريق غير مباشر الى قيام الاشتراكية العلمية التى دعا

اليها ماركس وطبقها لينين ــ هذه الأفكار البسيطة عن الاسلام ومحمد والدين ، والعودة الى « القديم والبسيط » تدل على ان الفكر الماركسى كان ولا يزال خاليا من حقـائق كثيرة عن « الدين الحق » ... وتدل بوضوح على ان سؤال ماركس لا يزال قائما وهو « لماذا يبدو تاريخ الشرق العربى كانه تاريخ الدين ؟ ... » وبعبارة اخرى « لماذا ظهر الدين دائما فى هذه المنطقة من بلاد العرب ؟ » .

ان الكشف عن ايجابيات الدين الحق فى بناء الاشتراكية هو مهمة أجيال المؤمنين ، مسلمين ومسيحيين ...

ان مهمتنا أيضا ان تثبت ان الثورة الاسلامية التى انطلقت بمفهوم الدين لم تكن مجرد رجوع عن « القديم والبسيط » الى عزلة فى بيعة، أو خلوة فى صومعة ، ولكنها كانت بالرجوع الى القديم والبسيط من مقومات الحياة الجماعية « الابوية والاخوية » رجعة اخلاقية تنتزع نفسها بالثورة والقتال المسلح من مخاطر الفرقة والعصبية ، ومن تهديد التدخل الاستعمارى الفارسى والرومى ، الذى أراد أن يفرض نظمه الطبقية والقهرية على معقل الحرية الأخير للامة العربية ، وذلك لكى تدفع بثورة الدين من مجتمع المؤمنين الى قلب العالم تهزه ، وتسقط البالى والباغى من نظمه بهذه الثورة التحررية التى دفعت بأكثر أهل الأرض ــ وراء هذه الطليعة العربية المؤمنة ــ الى خط جديد للتطور فى مسيرة المجتمعات البشرية ... الى مسيرة جديدة أصبحت فيها يد الانسان التى تصنع الحياة خاضعة لارادة قلبه ، من حيث أن قلبه يكون بالسلوك الفطرى ، بالقديم والبسيط ، خاضعا لارادة الله ...

حقا ان هذه المسئولية هى مسئوليتنا فى هذا العصر ... ان نبنى الاشتراكية بتطبيقاتها العربية على قاعدة الايمان بالله ... وبالقـديم والبسيط الذى لا يتزعزع ... انطلاقا من معرفة واثقـة بالذات ... انطلاقا من دراسة واعية لحياة الانسان العربى الأول ... لحياة القبيلة ... لحياة مجتمع المشاع البدائى ... مجتمع الاشتراكية الطبيعيـة ..

التى اندفعت اجزاؤها المتجانسة فى وحدة انسانية وطاقة حضارية ، ومنهج علمى فاحدثت تغيرات ايجابية حاسمة لا يمكن انكارها فى تاريخ البشر ، تغيرات اذا كان من بينها قيام الاشتراكية العلمية فان منها أيضا دخول الامة العربية فى هذا العصر الى هذه المرحلة من مراحل المواجهة المصيرية لاعداء وجودها الاستعماريين والصهيونيين ، لكى تتجمع من جديد ، وهى تتسلح بسلاح الايمان والتنمية ، وتستعيد ذاتها وحقيقتها وحقها الأزلى فى النمو والبقاء ...

وسيظل سؤال ماركس قائما يتردد فى اسماعنا من خلال كفاحنا الانسانى عن هذا الوجود ؟

« لماذا يبدو تاريخ الشرق العربى وكأنه تاريخ الدين ؟ »

ان انتصار ثورتنا العربية المعاصرة هو أول جملة صحيحة فى بيان الاجابة العلمية عن هذا السؤال ...

* * *

التربية الدينية قضية الشعب والدولة

« التربية الدينية ، وليس التلقين الدينى ، هى دعامة أساسية لتنشئة المسلمين والمسيحيين ، وبناء أجيال من المؤمنين الأقوياء . التربيةالدينية تهتم بتغيير الانسان من الداخل ، وهى تعتمد بطبيعتها الانسانية على غاية ومنهج ، وعلى معلم وقدوة ، وهذه هىقضية الشعبوالدولة معا »

١ — متى لا تذبل الأزهار

تبدأ المشكلة عنيفة ، ومن كل الأفواه ، وفى كل العالم بأن الشباب فى هذا العصر ضائعون وممزقون ... هكذا يتردد هذا الحكم فى بلادنا أيضا فى أحاديث الأجيال الكبيرة من الآباء والمعلمين وعلماء الدين ... وعندما يبحث المهتمون عندنا بقضايا الشباب عن أشلاء هؤلاء الشباب « الممزقين » فى كل أنحاء المجتمع فانهم لا يجدون شيئا ممزقا .. انهم يجدون الشباب قويا ونشطا فى كل مكان ... فى الحدائق والملاعب ، وأمام دور السينما ... وفى مدرجات الجامعة ، وفى ساحات التجنيد ، وفى جبهة القتال ... ووراء الآلات الضخمة والمعقدة فى المصانع ، وصفوفا صفوفا فوق الخطوط المنظومة فى حقول القطن حيث ينحنى الأولاد والبنات معا ليدفنوا البذور السمراء بأيديهم فى مارس ، أو يمتطوا صهوات الجرارات الآلية يدورون بها فوق أكوام القش وهم يدرسون القمح فى حزيران ... انهم يجدون الشباب هنا وهناك يتغير بسرعة كما يقتضى ذلك تصورنا لمرحلة تحول خطرة وحرجة وسريعة ... انهم يجدونهم جادين كل الجد فى بعض الأحيان ، وضاحكين كل الضحك من أعماق قلوبهم فى أحيان أخرى ... ولكن المشكلة تتعقد أكثر وأكثر عند هؤلاء الباحثين عندما يتأكدون من تواتر الأنباء والظواهر أن الشباب فى كل شعب يعانون فى هذا العصر أزمة ، وأن هناك لذلك مشكلة حقيقية عالمية يمر بها الشباب ، وشبابنا أيضا ... فما هى جذور هذه المشكلة ؟ ..

المشكلة فى أفواه الآباء والكبار ان الشباب عندنا خرجوا فى هذا العصر عن كل انضباط ، وأن ذاتهم الوجدانية والتاريخية ، ومشاعرهم الدينية مائعة ومنحلة !

والمشكلة من قلوب الطليعة الشبابية التى تبدو متمردة وكثيرة

الاحتجاج يلخصونها فى قولهم « ان الآباء نقلوا الى عصرنا مشاكل عصرهم التى لم يحلوها ، ثم أخـذوا ينددون بنا ويصرخـون فى وجوهنا ... ومع ذلك فنحن نحمل أعباءنا ، ونحاول أن نكتشف الحلول لمشاكلنا ... ومشاكلهم معا ! »

والمشكلة عندما نبسطها تظهر لنا أمام ثلاثة عوامل :

١ ــ مرحلة الشباب هى بطبيعتها مرحلة الانفعالات الخطرة ، التى تحتاج الى توجيه ومساندة . ولكننا فى الوطن العربى بتأثير المناهج والأساليب الاستعمارية أغفلنا وتغافلنا عن خلق الالتزام فى كل أسرة تجاه أطفالها ، وفى خلق الالتزام أيضا فى مناهج الدراسة فى كل مستوى ، من هذا الجانب التربوى والدينى الذى يتولى منه الكبار برفق وفى حزم مهمة الترويض والتعقيل والترشيد لهذه الانفعالات .

٢ ــ يعانى شـبابنا من حيث أنهم يمثلون البراعم والأزهار التى تغذيها أصول وجذور شجرة المجتمع ــ من أمراض الشجرة نفسها ... أى أمراض مجتمعنـا القـديمة التى لا تزال فى حاجـة الى الحصر والعلاج ...

لذلك فانه فى كل دراسـة لمشكلات الشباب يجب أن نبدأ من مسئوليات المجتمع نفسه تجاه هذه البراعم والزهور التى هى أثمن ما فى الشجـرة ... وما فى المجتمع ! ... وعلينا أن نتذكر أن الكثير مما يعانيه الشباب المعاصرون من أعراض « التميع والانقسام النفسى » أو بعض الانحـرافات والشطحات التى نعيبها عليهم انما يرجـع الى انحرافات وأخطاء تؤثر عليهم وتبلبلهم من داخل هذا المجتمع الذى يعيشون فيه ... من انحرافات وأخطاء الكبار ، ومن نقص فى مصادر الثقافة القومية والتاريخ والدين . هذا النقص الذى يمكن اكتشافه فى الوحدة الصغيرة للمجتمع الكبير ، ونعنى بها الأسرة العربية ... نقص فى حيويتها ومناعتها بالدرجة التى تؤثر على واجبات الحاضر ، وامانى المستقبل ...

لذلك فان بداية علاج الأزهار يبدأ من الجذور ... يبدأ بحل جميع المشاكل الفكرية والثقافية والنفسية والانسانية فى المجتمع الكبير من خلال الأسرة الصغيرة ، وذلك لتصحيح علاقاتها الاجتماعية ، وتنشيط حوافزها الانمائية ، وتقريب رؤيتها العصرية للمستقبل ... بذلك يتنفس الشباب تنفسا هادئا ملائما لنمائهم ، وهم يجدون الطرق مفتوحة ، والأفكار متسقة ، والمثل حية فى اتجاه متصاعد لبناء المجتمع الجديد لبنة لبنة ، وجيلا بعد جيل ...

ان الأسرة هى مهد التكوين الأول للطفل ... وثقافة الطفل فى بلادنا بقدر ما نخطط لها عقائديا وقوميا وانسانيا ، ونوحد اتجاهها نظريا وعمليا هى التلخيص لمستقبل الشباب ، ومستقبل الأمة فى بلادنا المقبلة على صراع طويل ...

٣ ــ يتأثر شبابنا بسهولة التواصل الحضارى فى هذا العصر بالمشكلة العالمية للشباب ، وبالذات هذه المظاهر التى بدأت تجتاح أوروبا الغربية وأمريكا . وهذا النوع من الظواهر الذى يتركز معظمه حول الجنس ، وحياة الهيبيز ، وبيوت الاثارة والعروض الجنسية العارية والشاذة فى المسرح والسينما والطريق والصورة والكتاب ... كل هذه الظواهر فى الغرب يمكن تفادى انتشارها الوبائى فى وطننا العربى ، اذا تضافرت الجهود لحل مشكلات المجتمع الكبير على أساس نضالى اقليمى وقومى وانسانى يبدأ من الأسرة ... فمثل هذه المشكلات ــ فى مرحلة حرب مصيرية ــ لن تحل الا من خلال منهج يلتزم به الكبار والصغار معا ، المدنيون والجنود ، العمال والفلاحون ، الرجال والنساء بدرجة واحدة ... فى هذه الحالة ستستقيم العلاقة ، وتتوثق الروابط بين كل من البيت والمدرسة والمكتب والطريق والمستقبل ...

* * *

٢ — الغرب بلا مستقبل

ولكن المسألة ليست سهلة ... فهناك فى هذا العصر حروب صليبية بالأفكار عبر أجهزة اعلام مركزة ، وتعمل عقلانيا ، وباستخدام البث المتنوع بالصورة والأغنية والفيلم والكلمة السحرية ، والكتاب الملىء بالأخطاء الممتعة ، والأفكار الخطرة « المخمرة » حيث يفرض على عقول الشباب فى العالم بالقوة الجمالية للطباعة والتنسيق والغرض أن تشرب وتنتشى بهذه « الخمر العصرية » ذات البريق ، الخمر التى تدير الرؤوس فى هذه الكتب والكتيبات التى تنشرها مؤسسات ضخمة ملحقة عادة بأجهزة مخابرات الدول الاستعمارية ، ويعمل بها خبراء صهيونيون ، وتباع لذلك بأثمان زهيدة .. !

والفكرة السائدة ببساطة أن الشباب يتمزقون لأن « المادية » انتشرت ، وان « الالحاد » استشرى ، وأن الدين « العجوز » فى الزحام العصرى لم يعد يجد طريقه سهلا الى قلوب الشباب وعقولهم ... وهذه الفكرة تحتاج لبساطتها الى تحليل وكشف وبيان ...

فالمادية مثلا بمفهوم انكار الاعتقاد فى الاه ، وتصور الحياة تصورا طبيعيا يقوم على « حركة المادة » وحدها ولا شىء سواها قديمة جدا فى هذا العالم ، وكانت منتشرة أيضا ... والدين الحق كان دائما فى مستوى الندرة ، بينما كان « التدين » منتشرا أيضا . ولكن هذا العصر جاء بظواهر وعوامل جديدة أكثر تأثيرا فى الاستخفاف بفكرة الايمان نذكر منها :

١ — كثرة السلع الاستهلاكية وأدوات الرفاهية بأحجام وأنواع لا تكاد تحد ، وانقسام العالم حولها الى مجموعتين متصادمتين فى المصالح ، هما مجموعة الدول المتقدمة الغارقة فى هذه السلع والسكرى بها ، ومجموعة الدول المتخلفة المشدودة اليها ، والمعقدة منها ... والتى تتهافت للحصول عليها ...

٢ ــ هذه السلع والأدوات رفعت مستوى المعيشة بدرجات غير متوازنة مع حاجات الناس والمجتمع الحقيقية فزادت الأعباء ، وكثرت الطرق الملتوية للحصول على دخل أكبر ، وبذلك انحل من داخل المجتمعات الحديثة تماسكها الأخلاقى ، وأصبح رد الفعل الاجتماعى على جرائم الأموال التى تباع فيها الأمانة والضمير و « العرض » ضعيفا ، لأن اهتمام المجتمع الأول أصبح هو « الشغل والفلوس » ثم يرد الكلام عن الدين والأخلاق بعد ذلك .

٣ ــ مع التقدم الصناعى المتطور انفتحت مجالات كثيرة لأعمال وصناعات جديدة ، وارتفعت بذلك الأجور ، ومع الأجور المرتفعة وأعباء العمل المرهقة تنوعت صناعة المتعة والترفيه ، وأصبحت الاثارة علما تكنيكيا جديدا ، وأصبح علماء هذا العلم وكهنته مدفوعين الى مسايرة تطور أعباء العمل ، والارهاق العقلى والجسدى فى صناعات الحرب المعقدة والأسلحة الفتاكة ، وادارة المواصلات والفنادق ، والصناعات الثقيلة بأنواعها ، وطباعة الكتب ، واصدار الصحف ، وتوجيه الاذاعة والتليفزيون ، والحضانة والتعليم والتثقيف والتدريب، وأعمال الزينة والترفيه نفسه ، ومئات الألوف من الصناعات الصغيرة والكبيرة ــ وذلك بأن يبتكر علماء الاثارة كل يوم اثارة جديدة فى اتجاه يحقق الربح ، دون مراعاة أثقال الضغط العصبى والنفسى على المستثارين من هذه المجاميع الهائلة من العمال والمهندسين والمديرين الرجال والنساء والشباب ، الذين تمضى حياتهم على غير ارادتهم بين عبء التوتر بالعمل والانفراج بالترفيه ، بين الانقباض بلا حد والانبساط بلا حد ... الى حد الهوس والجنون ... من غير شك !

٤ ــ تعدد الأعمال وسيطرتها على تشكيل نظام الحياة لمن يقومون بها ــ دون تخطيط انسانى ــ سحق أو كاد نظام الاسرة .. الأسرة فى الدول المتقدمة تكاد ان تكون موجودة بالشكل فقط . أقل المخاطر هى هذه المخالفة فى مواعيد العمل بين الازواج والزوجات . فالبيت لم يعد أكثر من هذا المكان المغلق الصغير الذى يترك فيه كل من

الزوجين رسالة صغيرة لعزيزه الطرف الآخر ، ربما يكون فى أحدها اعتذار عن قضاء عطلة الاسبوع معا ... وهكذا تحركت قوافل الاطفال فى اتجاه دور الحضانة ، وأصبحت الدولة فى المشرق والشركات فى المغرب تعنى بالأطفال أيضا ، وبذلك أصبح واقع امتداد الاجيال فى احساس الأبوين خيالا شعريا أسطوريا ، يذوب ويحترق فى الأضواء . ومعنى هذا مزيد من الحاجة الى الترفيه ... الى الشذوذ فى الترفيه ، لانفاق الأموال ، وقتل الملل والخوف ... وقتل الحياة !

٥ — والصراع بين الشرق والشرب ، وذلك الاصرار الجنونى فى الغرب على امتلاك العالم الكبير بالأسلحة والتمويه السياسى ، ونقل « الموبقات » الى الشعوب التى صارت فى قبضة الاحتكارات الضخمة الضارية ، وتملق الشعوب الأخرى التى لم تدخل فى قبضتها بعدلتقبل هذه الموبقات وتخضع ... وفقدان الغرب لمعالم وسمات القوة الحقيقية فى « دعوته » التى يعرضها على العالم فى هذا الصراع ، وفى ثقافته التى يقدمها لفكر المجموعات البشرية المتفجرة بالحيوية الطبيعية فى الشعوب النامية ، وفى موقفه من السلام الذى يقطر تضليلا ونفاقا ، وفى سياسته العدوانية وغزواته العسكرية « الامبراطورية » على الوطن العربى وفيتنام وشرقى آسيا ... كل ذلك ينعكس على فكر الشباب الحر السطحى فى الغرب ، ثم تتسرب هذه الانعكاسات كالاشعاع الذرى المدمر الى أعماقهم ، وتلوث الحياة بالاكدار فى نظرهم ، ومع توالى الهزائم للاستعمار فى حرب المواجهة الباردة أو الساخنة مع الشعوب النامية ومع المعسكر الاشتراكى الذى تتوالد فكرته وتنمو فى جدار الدغائم والمقدسات القديمة للنظام الرأسمالى فان الشباب فى الغرب يحس بانه أصبح جيلا من غير مستقبل ، أصبح امتدادا للحياة الى حافة هاوية ، وكما حدث فى روما القديمة قبيل سقوطها وانهيارها ، وكما يحدث بين أى جماعة من البشر يقال لها « ان القيامة ستقوم بعد غد » فتصيبها حمى القنوط النوعى ، وتنكب على الجنس ، وتهذى بالجنس فان شباب الغرب مع ضخامة أجهزة الاثارة ، ومع الضراوة الاستغلالية فى القائمين عليها — سرا أو علنا — من العناصر والمؤسسات الصهيونية

وفروعها وجنودها ، فان الأرض والمدن والأزقة والأرصفة تنشق عن قوافل الهيبيز الذاهلة الشاحبة ، كجيوش انهارت مقاومتها ، فقدت قيادتها وايمانها ... فقدت عقيدة البقاء أو عقيدة النضال ، فسلمت كل أسلحتها . سلمت قلوبهـا وعقولها وآمالها وابدانهـا للماريجوانا وللمخدرات وللارصفة ... وللضياع !

٦ ـ فى هذه الفرصة المتاحة لعمل انسانى عظيم ... لشروق فجر دعوة صـحيحة الى الدين الصحيح ... لظهور معلمين ومرشـدين ينهلون من نقاء المسيح ، ويسلكون امانة محمد ، يفقد الدين فرصته، ويتوارى المعلمون الصادقون جزعا أو تورعا ، ويتقدم الى الميدان ـ باستخدام أحدث أسلحة العصر الدعائية ـ أولئك الذين يصنعون الدين وليس الذين يعيشون الدين ... اولئك الذين يقدمون السلعة الدينية ويقبضون ثمنها ، ويستمتعون بشقاء أشقائهم من البشر لقاء هذا الثمن !! ... والسلعة الدينية فى الغرب غالية الثمن ولكنها توجه الى المستعمرات ... أصبح أكثر رجال الدين فى الغرب مجموعة من « النقابات المهنية الاستعمارية » ... مجموعة من فرق العمل الفنيـة التى تخـدم فى « العالم الملون » خطط التحـالف بين الصهيونية والاستعمار ، وتمهد الطرق امام جيوشه وأمواله ومشروعات شركاته ... لذلك يضيع الشباب فى الغرب ... وتأتى الينا بالصور والانباء ومـع السيل الاعلامى ظواهر هذا الضياع !

ان الغرب الاستعمارى بلا مستقبل ... لذلك فان شيوخه يتشببون وشبابه يشيخون ! ... لقد فقد الغرب وأمريكا رؤية العصر الصحيحة، فقدوا عقيدة البقاء ... فقدوا الدعوة الانسانية ... فقدوا السلام فى أنفسهم ولذلك فلن يمنحوا سلاما لأحد .. فقدوا جوهر المسيحيـة الحقيقية النقية فى دعوة المسيح ، وجعلوا الاستعمار والصهيونية بديلا لها تحت شعاراتها ... وبذلك سقط كل ادعاء لهم بالحضارة القيادية للعالم وآن لشمسهم أن تغيب ... كما غابت شمس روما وأثينا من قبل !

* * *

٣ — المادة والمذهب المادى

وفى أمـــريكا والغرب أيضا تنطلق الأبواق الدعائية من هيئـــات وجماعات دينية كثيرة تهاجم « المذهب المـــادى » الخطر ، وتهاجـــم الماركسيين الملحدين ... ويصل الينا رذاذ هذه الملاحم ... وتنشط بيننا بالتقليد بعض أشكال ونماذج مصوغة فكريا وقياسيا فى هذا الاتجاه .. خوفا على الدين ، ودفاعا عن الشباب !

وهـــذه القضية تحتاج فى بلادنا الى ضـــوء كاشف نستخلص به الحقيقة من براثن الدعاية ... تحتاج الى ان نعالج مخاطر المذهب المادى ــ ونحن شعب مؤمن ــ فى ضوء المسلمات الآتية :

١ ــ المادة شيء والمذهب المادى شيء آخر . تنظيم المادة ، وتنمية المادة ، واستثمار المادة ، واستخلاص القوة التى تدعم الحق من المادة ــ كل هذا شيء والمذهب المادى شيء آخر . ان المادة هى الحيـــاة ، والعقيدة التى تحرك وتنظم وتنمى استعمالات المادة هى حياة هـــذه الحياة ! المادة هى كل الأشياء ... هى الأرض والسماء والفضاء ... هى الماء والشمس والهواء ... هى العطر والشجر والثمر ... هى الآباء والأمهات والأبناء ... هى البيت والكتاب والصديق ... هى المصحف والمسجد والمحراب ... هى الحب والنصر والســـلم ... هى الانوار والآفاق والظلال ... هى قلوبنا وعقائدنا ، وادمغتنا وأفكارنا ، ووجوهنا وملامحنا ، وسرائرنا وآمالنا ... والمذهب المادى شيء آخر .. هـــو الايمان بهذه الموارد وحدها ، بحركتها وقوانينها ، دون شيء آخر . ونحن نؤمن بأن الله وراء المادة ، وملء المادة ، وهو فى قلوبنا ومحيطنا ، ولذلك فنحن لا نرفض المادة ، لأننا لا نرفض الحياة التى اعطاها الله ، ولكننا نستعملها بعقيدة أخرى ترى المادة وسيلة والله غاية !

٢ ــ الغرب الرأسمالى يؤمن ايضا بالمذهب المادى ــ تحت قناع

مسيحى لا يخدع حتى مواطنيه . انه يؤمن بمذهب مادى تخريبى يجمع الى الالحاد بالله الحادا بالعلم ، وتسلطا بادوات العلم واسلحة العلم لقهر البشر ، وتجهيلهم ، واستنزاف مواردهم ، وابعادهم عن الله ...

٣ — ليس البديل من المذهب المادى هو « المذهب الروحى » ولكن البديل هو الدين الحق كما يفهمه المسلمون من القرآن ، وكما يمكن ان يستخلصه المسيحيون من الانجيل . هو حياة القوام فى كل شىء ... هو حياة الامة الوسط بين مسئولية النفس وامانة القلب ، ويقظة العقل ، وثمرة الأيدى .

المادة اذن ليست « حراما » لأنها نعمة الله بالحياة وحركتها ، واشكالها وغاياتها ... والمادية ليست فى حد ذاتها خطيئة لانها فى أشكالها وغاياتها الحيوية قبول لنعمة الله ، وامتحان بها اراده الله .. ولكن الحرام هو سوء استخدام هذه النعمة بالاسراف الذى يصنع الترف ، وبالترف الذى يبرر الاستغلال والقهر والطبقية والعدوان .

كذلك فان الحرام هو سوء استخدام هذه النعمة برفض استخدامها، بالانصراف عنها ، والزهد فيها ، مما يعنى رفضا عاجزا عن الحياة ، ومتعاليا على واهب الحياة ، ما لم يكن هناك حرمان بالقهر فهذا مايوجب علينا الايمان مقاومته ، واعلان الحرب عليه ، حتى تعود نعمة الله وموارد الأرض حقا مكفولا — فى عدل الله — لكل البشر .

ان القرآن الذى لا تحتوى كلماته كلمة واحدة عن الزهد بمعنى كراهية الحياة ، أو بغض المادة التى هى جسم الحياة ، وأداة الحياة فان آياته زاخرة بالنهى عن الاسراف ومحاسبة المسرفين ، والتنديد بالمترفين الذين هم سبب تظالم المجتمعات ، وانهيار الحضارات ، فهو يقول « ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » ويقول « والذين اذا انفقوا لم يقتروا ولم يسرفوا وكان بين ذلك قواما » ...

من أجل ذلك يروج الاستعمار فى دعايته ضد الايمان الصحيح

كلمة « المادية » فى موضع « الفلسفة المادية » وبالتالى يحاصرها فى مفهوم للالحاد والخطيئة والعدوان على « الحياة الروحية ! » ... ومن ثم فان دعاية الغرب والاستعمار تفيد من هذا الهجوم على كلمة المادية ، والتشجيع لكلمة « الروحية » من حيث يساعدها ذلك على أن تمسح خطاياها وجرائمها ومذهبها المادى أيضا فى وجه الفلسفة المادية وحدها، وان تضمن استكانة الأمة العربية والشعوب النامية الى مفهوم يزين لها حياة الروح باسم الدين ، لكى تنصرف عن جوهر الدين الصحيح وهو تنمية الحياة والموارد ، والدفاع عن علاقات استثمارها المتساوية بين الجميع ، من طريق القوة التى تكفلها التنمية لمادة الحياة، هذه التنمية التى تتمثل فى نشاط كل من الوطن والمواطنين والموارد والعقيدة والعلم والارادة الانسانية المؤمنة !

انه لمن اعجب العجب حقا ان يكون الهجوم على « الماديات » هو لحساب « الروح » بينما الروح هى فى حركة الانسان وقوامه وبمقتضى نص القرآن الكريم هى « مشيئة الله له بالحياة » .. هى «كن فيكون » وهى « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى » ... وهى « قل الروح من أمر ربى » ومشيئة الله وامر الله لا يمكن ان يتجها الى رفض الحياة التى أرادها الله ، وابدعها الله ، وجعلها للانسان مختبرا ، وجهادا ومفازة يعبرها ابتغاء وجهه ومرضاته ، نافذا الى رضوانه من خلال ماديات الحياة ، شكرا وعدلا ، وتصديقا وعملا الى يوم الدين !

* * *

٤ — الدين ... والتدين

ابناؤنا الذين يبكون ويضحكون ، ويتمزقون ولا يقنطـون ... وضعوا ايدينا على نقطة أوجاعهم ... فالكبار من آبائهم نقلوا اليهم مشاكل العصر الماضى التى لم يحلوها ... فحملوها مع مشاكل عصرهم ... والمشكلة ، أو المسألة المحيرة هى أن الآباء يرمون الأجيال المعاصرة بالمروق عن الدين ... ولكن الشباب يتساءلون ما هى اقرب الطرق الى فهم الدين ؟ ... ليس الشباب مارقا ... لم يكن ولن يستطيع ... ولكن اين الدين فى موضوعه ؟ .. وأين الدين فى قدرته ؟ .. هذه اذن هى مشاكل العصور الماضية كلها ... مشاكل عصور انحلالنا ، وقهرنا ، وتمزق شباب أمتنا الى حين ... وليست هى مشـكلة العصر الماضى وحده ... لذلك فانه لامبرر لأن يلوم الشباب الشيوخ ... كما أنه لا جدوى من ان يلوم الشيوخ الشباب ... ان بكاء القروى الذى ركبته الهموم فسار ينادى فى الطرقات على ولده الصغير الضائع ، والذى نسى أنه يحمل ولده على كتفه ليس أكثر دلالة على « المفقود الموجود » من هذا الموقف المرتبك والمحير بين الكبار وابنائهم ... بين الاجيال السابقة والمخضرمة وهذه الأجيال النضرة الجديدة النمو ... فى مسألة الدين... والحياة ... والانضباط !

ان الدين الذى يفتح الشباب أعينهم عليـه فى البيت بين الابوين والأخوة ، وعند الجيران ... وفى الشارع والمدرسة ... وفى الكتاب والمجلة ... وفى الاذاعـة والتليفزيون ... يعطيهم من الصغر أكثر من انطباع يهز يقينهم ، ويزعج فطرتهم ، ويتقطر فى أعمق أعماق انسيانيتهم بالامتعاض المزمن ، ولذعة الشك فى قيمة حماس الدعاة ، وطهـارة المتطهرين .. !

ونعود للمشكلة الكبرى ... المحمولة على اكتافنا ونحن ننادى

عليها فى كتب المستشرقين ، أو أسفار عصور الانحلال بين المسلمين ... بينما هى أقرب الى أيدينا فى القرآن الكريم ، وفى ملكوت السماوات والأرض ، وفى فطرتنا النقية الواعية المستبصرة ، كما فطرها الله ، وهدانا بها الله .

ان جميع الناس فى بلادنا مؤمنون ، ولكنهم فى دينهم الواحد طرق وفرق ، وشيع ومذاهب ... فكيف يستقيم هذا ؟ ... وأن جميع الناس فى بلادنا مؤمنون ، ولكن نظرة سريعة ، أو فاحصة على احصائيات « الخطايا والذنوب » و « الجنوح والانحراف » و « الشعوذة والعدوان » و « الاختلاس والسرقة » و « استباحة المال العام » ثم « الضرر والضرار » فى علاقات المؤجرين بالمستأجرين ، والرؤساء بالمرؤوسين ، والعكس صحيح أيضا ... كل ذلك يثير رعدة وتساؤلا... هل الايمان كلمة أم سلوك ؟ .. هل الايمان تصور أو واقع ؟

وننتهى الى ان الايمان فى أكثر الحالات — فى عصرنا — هو سمة اجتماعية طافية على سطح بحر لجى من النفاق أكثر منه حقيقة عقائدية جذرية ... ننتهى الى أن الدين عند الكثرة الكاثرة تدين ... والتدين لا يغنى من الدين شيئا ... الدين هو ما نطلبه ... والتدين هو علة ما نشكو منه ... التدين نشاط الظاهر الذى لا يتجاوز الصلاة والصوم والزكاة والحج فحسب ، والدين هو جهاد دائب لتوثيق العقد المتين مع الله ، واحتمال لامانة الاختيار لما هو من خيرة الله ، ومعاناة للتغير بالنفس والجسد عما يسخط الله الى ما يرضى الله .

التدين بغير دين هو الذى يجعل من العسير ان تفصل بين الدعوة الى الله ابتغاء وجه الله وبين التجارة بالدين ، والتكسب ببيع نصوصه ، والسعى فيه بحسب الاهواء ، والمصالح ، والقوى الدافعة ، والامانى القريبة . ومن هذه الأبواب الواسعة نفذ المستعمر الى قلاعنا ... ونفث نفثة الانقسام فى انفسنا وأفكارنا وحياتنا .

التدين بغير دين هو الذى يجعل جماعة من العلماء بالدين يقفون من الحياة المعاصرة على حرف ... ومن أفكار المعاصرين على حذر ... فلاهم يدخلون الحياة القائمة امامهم وحولهم فيقيسوا الأمر الواقع بمقياس الدين على بينة ، ويخاطبوا الجماهير فى الدين عن بينة ... ولا هم — وقد أبوا الا ان يتكلموا عن الدين من نقطة خارج الحياة بينما هم فى غمرة الحياة — يتركون الوصاية على الناس ... ويحاولون ان يحسنوا استقبال فكر المفكرين ، وحوار المعاصرين ، وحاجات الشباب والناشئين !

والتدين بغير دين هو الذى القى هذا الحجاب الكثيف بين أهل هذا العصر وبين الحقائق التاريخية الناصعة التى عاشت على أرضنا فى العصور السابقة ... فلا تزال كل مدونات عصور الانحلال من الاحاديث المفتراة ، والقصص المدسوسة نصوصا علمية ، وأقوال ثقات، يستخدمها الكتاب والخطباء على غير منهج او الى غير غاية .. ولا يزال الأمر يمضى هكذا دون اهتمام بتنقية التراث ، ودون قواعد ثابتة لتصحيحه وتقييمه ، والرد على شبهاته ، ثم العمل على احيائه ونشره .

لذلك سبح فكر عدد من الشباب فى تهاويم حول الدين باسم الدين وهى لا تمت الى الدين بسبب .. ووقع عدد آخر — من غير مرشد — فى فتنة « الفضول العصرى » الذى يدفع الشباب سرا وامتدادا لدهشة الطفولة الى مغريات عصر التكنولوجيا ، فيتذوقون ما يتصورون انه الخطايا المباحة ... وقد يبدأون بالخمر والمخدرات ... بينما هم لا يملكون من المعرفة والتجربة ولا من الروابط الانسانية الوثيقة بآبائهم ومعلميهم ما يعصمهم مقدما من الانزلاق ، أو ما يمكنهم بعد الانزلاق من المراجعة واستنقاذ المصير بقدرة النفس المؤمنة ... وصدقها !

التربية الدينية اذن ، وليس مجرد التعليم او التلقين الدينى — هى دعامة اساسية وراسخة لتنشئة المسلمين والمسيحيين ، وبناء الاجيال من المؤمنين الأقوياء ... فالتربية الدينية تهتم بالتغيير من الداخل ، وتعتمد

أساسا على غاية ومنهج ، وعلى معلم وقدوة ، وهذه هى قضية الشعب والدولة معا .

اننا فى التربية الدينية لا نحبذ أسلوب اليسوعيين ؛ الذى يعتمد على منع المناقشة حول مسلمات الدين ، ويأخذ بأسلوب الحوار التلقينى "Catechism" الذى يقوم على تعليم أصول الدين من خلال مجموعة من الأسئلة والأجوبة المحددة التى يصوغها « رجال الدين » فى قوالب لا تتغير ، فلا يحيد أحد عنها خوفا من الانحراف ... فالاسلام يرفض التلقين والتسليم ، ويفتح مجال الاقتناع والتذكر ، والرؤية الصحيحة للمبادىء الصحيحة فى ضوء العصر ، على أساس علمى يقينى ، وفى اتجاه حيوى ايجابى .. بانيا كهدف أساس الايمان الخالص .. ذلك لأن الاسلام فى دعوته يضع مسئولية الايمان والعمل بعقيدة الايمان على عاتق كل فرد بنفسه ، فلا يحمل احد عن أحد أى قدر من مسئوليته عن اعتقاد قلبه ، وكسب نفسه ، وعمل يده .. ولهـذا فان قضية التربية الدينية لأجيالنا هى قضية الآباء والاسرة بالدرجة الاولى . هى قضية الشعب قبل أن تكون قضية الدولة .. وفى هذا الاتجاه صدر قرار المؤتمر القومى الأول من حيث أنه تنظيم السلطة الأعلى للشعب ، واضعا بذلك اتجاها عاما للسياسة التى ينهض بها الشعب والدولة معا فى بناء الفرد ، وبناء المجتمع بالقيم والتربية الدينية .. فى كل مجال

* * *

٥ — مناهج جديدة للتربية

التربية العقائدية أساس فى النظم الاشتراكية ، والنظم الرأسمالية. الشعب والدولة يشتركان فى بناء هذه التربية . فمنذ الطفولة تلاحق الأطفال والشباب وتحتويهم مناهج متكاملة قام على اعدادها والتخطيط لها ووضع أساليبها وكتبها ومراحلها علماء كبار يقودون سفينة الشباب فى اتجاه سياسة الدولة .. التى هى ــ افتراضا ــ سياسة الشعب .

ان تربية الأجيال تخضع دائما ــ ويجب ان تخضع ــ لقواعد العقيدة التى تتحقق بها ذات الأمة ، وتتولد منها قدراتها على طريق حريتها وتنميتها ووحدتها . هذه حقيقة قديمة وحقيقة معاصرة تتحدث بها أخبار الأمم القوية الغابرة ، والأمم القوية الحديثة ــ على الرغم من تصادم هذه المعتقدات مع غيرها ، أو مع الحس الانسانى العام ، كما يجرى الآن من تربية أطفال الاسرائيليين على المبرر التاريخى الوهمى للعدوان ، ولسفك دم العرب ، ولاغتصاب وطنهم ، وهو ان هؤلاء الأطفال أبناء الأوربيين البولنديين والسلاف والتيوتون والفرنسيين ــ بالدم والفكر والتاريخ والثقافة ــ هم أبناء ابراهيم ... ابراهيم العراقى العربى من قبيلة كلدة !

لذلك فما كان غريبا ، ولا هو الآن بالمستغرب ان الأمة العربية منذ عاشت تاريخها كله على قاعدة متينة وأصيلة من الدين ستظل تدأب على أن يكون الدين هو الدرس الأول والأخير لابنائها وأجيالها ... انه درسها للحرية ، ودرسها للعدل الاجتماعى ، ودرسها للوحدة ، ودرسها للحضارة الموجهة ، ودرسها للجهاد .

ومن قرار المؤتمر القومى تنتقل المسئولية الى الدولة ... وتبدأ الدراسات لتطوير مناهج التعليم الدينى لتحقق الغاية منها فى بناء الفرد وبناء المجتمع !

لقد كان لابد مع عودة الحرية الى الشعب ان يعود الدين الصحيح ليكون بجوهره الواضح هو التفسير الشامل للحياة ، ليكون بمفهومه الايجابى مع الحياة هو القاعدة العقائدية التى يؤصل عليها الشعب فكره السياسى ، وعدله الاجتماعى ، ونظامه الاقتصادى ، ونضاله القومى ، وانفتاحه الانسانى ، سيرا بكل ذلك مع حقائق العصر ، ومنجزات العلم ، وحركة العالم ، دون انحراف او انزلاق .

لقد كان حتما ان تتفرغ بعض الهيئات الشعبية والتنفيذية معا لوضع قواعد* تطوير هذه المناهج القاصرة ، وان تفعل ذلك فى ضوء التحرر من جميع المؤثرات التى وضعت بها جذور المناهج الحالية فى عهد الاستعمار ، حتى يتحرر فكر الأجيال وتتحرر طاقاته من قيد هذه الرحلة الطويلة بلا جدوى داخل هذه الطرق الضيقة لفهم الدين بأسلوب « المناهج المقررة » اذ انه من غير المنطقى مع نمو مسئوليات الشعب ، وتزايد الأعباء التى ستلقى على كواهل اجياله — ان تكون هذه المناهج التى انعزل بها فكر الشعب — قبل الثورة — عن لمس الجوهر الحقيقى للدين هى القاعدة العقائدية لتربية أجيال الثورة تربية تؤهلهم للمشاركة بالفهم والعمل فى واقع النضال المعاصر للشعب العربى فى مصر ...

لقد تبين للكثير من المهتمين بهذه القضية ان دراسة موضوعية لقواعد تطوير المناهج التى تنهض على أساسها تربية دينية سليمة ينبغى أن تبدأ من الاجابات الصحيحة على هذه الأسئلة :

١ — من المفروض أننا ندرس الدين بمعنى محدد وليس بمعنى عام . لسنا ندرس أى دين فالأديان كثيرة ، ومفاهيمها وأسسها العقائدية متنوعة . فما هو تعريف الدين الذى ندرسه لأبنائنا ؟ ما هو الاسلام ؟

---

* اعد مكتب الشئون الدينية بلجنة الثقافة والفكر والاعلام باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى دراسة هامة تلخص أسباب ودوافع وقواعد التحول من اشكال التعليم الدينى فى المدارس الى طبيعة وأهداف التربية الدينية لجميع مستويات التعليم من الابتدائى حتى الجامعة وهى الان قيد دراسة المسئولين .

وما هى المسيحية دينا الاهيا تفسر به الحيـاة، ونحـدد به مفهوما انسانيا للانسان ، وعلميا للتاريخ ، واجتماعيا للمجتمع ، ونعتمده من خلال ذلك أساسا لفكرنا الذى لا يتناقض مع العلم ، ولا مع التقدم ، ولا يتصادم مع حقائق الحياة ؟ ... هذا هو السؤال الأول .

٢ ــ السؤال الثانى : « اذا عرفنا مفهوما محددا للدين الذى نعلمه لأبنائنا فما الذى نقصده اليه تماما من تعليمهم الدين ؟

هل نقصد ان نجعل الدين مادة من مواد « الثقافة العامة » لهم ؟ أم اننا نريد ان نبنيهم به من الاساس الاول بناء سلوكيا واجتماعيا هادفا ملتزما ، يتحركون بجوهره وايجابيته وثوريته صفوفا للنضـال عن أهداف الشعب الذى يشدهم الدين الى قوة السعى اليها ، وقوة البذل لها ، وقوة الدفاع عنها ... ؟

٣ ــ السؤال الثالث : « اذا كنا عرفنا ما هو الدين الذى نعلمه ، وعرفنا ما نريده لأبنائنا من تعليمه فما هو نوع وحجم واتجاه المـادة الدينية فى كل مستوى ومرحلة من مستويات ومراحل التعليم ؟ وما هى قواعد وضع الكتب الجديدة لجميع المستويات فى المناهج الجديدة ؟

٤ ــ والسؤال الرابع : اذا كنا قد عرفنا ذلك فمن هو المدرس الذى يحقق أهداف الشعب من هذه التربية الدينية ... ما هى طرق اعداده ما هى قدراته ... اماته ... كيف نعده ونقدره ونحاسبه ؟ ...

* * *

٦ - الايمان علم ...

لقد وعى الشعب ـ بعد الحرية ووعت الدولة معه ان « التربية الدينية » ـ وليس التلقين الدينى ـ هى القاعدة التى تمد فكرنا دائما ـ وخاصة الشباب ـ بقدرة المواجهة النظرية بالبراهين والمبادرات بمفاهيم حضارية نشطة ، تتجاوز بها مخاطر هذا العصر ، ومزالق صراعه المذهبى !

والدين ـ كما جاء فى الميثاق الوطنى ـ له جوهر واحد ايجابى وانسانى ... للدين جوهر واحد وليس له جوهران أو أكثر ، لذلك فان منهج التربية الدينية يجب ان يؤكد فى أسلوبه ومادته وهدفه هذه الحقيقة ـ فى كل مراحل التعليم حتى الجامعة ، وفى كل مستويات التثقيف السياسى حتى رؤساء مجالس الادارات والوزراء ـ بحيث يكون واضحا بمستوى تسلسل الأعمار من الطفولة الى الكهولة ان هذا الجوهر الواحد للدين ، والذى له بناء علمى ، هو المصدر الذى يفسر اصالة الثورة العربية التحررية ، وتطبيقاتها العربية الاشتراكية ، والذى يمدها فى نفس الوقت ـ وهو يصحح مساراتها ـ بطاقة النمو والتجدد والاستمرار .

ولكن الدين يقوم على « الايمان » والايمان ليس سلعة تباع ، ولا جهازا يصنع ... ليس خامة مدفونة فى الأرض ، ولا شعاعا نلتقطه من السماء ، انه حالة تنشأ فى قلب الانسان ـ الذى هو جهاز عقيدته ـ فيشير قلبه دائما الى الله ، كمصدر لتصحيح مساره مع قوانين الحياة التى شاءها الله .

هذه الحالة الملائمة فى جهاز الهداية .. هذه اللياقة الانسانية التامة فى قلب الانسان حتى يؤمن لا تحدث جزافا ولا اعتباطا ، انها تحدث

وتسير وتتطور بعلم الله وبالقوانين التى شاءها الله ... فما هو هـذا العلم الذى يقربنا الى الايمان ، ويحببنا فى الايمان ، وبعدنا للايمان ، ويعد للايمان ابناءنا وأجيالهم من بعدنا .. ؟

يقول الله لمحمد : « ووجدك ضالا فهدى » ... لقد هداه الله ، ولكن نعمة الله على محمد بالهدى بين ضلال قومه كانت لها أسباب قوية ظاهرة أخذ بها محمد ... أسباب يمكن أن نتأملها ، ونأخذ بما نستطيعه منها .

يقـول الله له : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ، ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا » ... لم يكن محمد يدرى قبل ايمانه ما الايمان ، وقبـل نزول القرآن عليه ما القرآن ... ولكنه تهيأ بقلبه وفكره طويلا حتى أصبح قادرا — بمشيئة الله — على تلقى وحيه ... تفكر محمد طويلا — كما تفكر ابراهيم من قبل — فى ملكوت السماوات والارض ، وهذا الملكوت كان مفتوحا امامه بلا مغاليق ، وبغير سحب ، وبغير صقيع ، ودون ثلوج ، كل شىء يسبح فى الضوء وفى النور مع تجربة مجسدة للايمان قريبة منه فى « بيت الله » ... وبقايا علم كاد ان يعفى عليـه النسيان فى عرف العرب ، واطلال دين — فى مناسك قومه — تدل على الدين ولكنها لا تغنى عنه . اطلال تحتاج الى تقـويم وتجديد على أساسها الثابت وهو الايمان بالله ... لقد تفكر محمد خلال اربعين عاما كاملة ، منذ نشأ فى طفولته نشأة صحيحة فضفاضة ، فى بادية بنى سعد فى أرض طيبة ، منحته اللغة الحية الغنية ، والأفق المضىء المرشد ، والدلالة على الله فى البيت ، وعلى بقايا مناسك الدين فى الحج ، وعلى بقايا معالم الدين فى العرف ... وكانت خاتمة هذه الاربعين عاما الحافلة بالتعلم شهورا من الصوم والتحنث والتفكر والنظر والاستهداء قضاها محمد فى مرصده المفتوح على أبعاد السماوات والأرض فى غار حراء بجبال مكة ، حيث كانت تمر به النهارات والليالى فى سكينة آمنة مطلقة لا يسمع خلالها الا أصوات دقات القوانين المنتظمة فى ساعة الكون العظيمة ، دقات ينتظم معها قلبه ، ويستوعب اصواتها وكلماتها عقله ،

فيدق قلبه بدقات هذه القوانين ويهتدى ، ويصغى لله فى أصــوات وكلمات هذه الآفاق ويتعلم . ويتزايد هداه وعلمه كل يوم وهو يرى برهان الله الواحد حتى يسمعه وحيا وقرآنا فيؤمن ...

لقد آمن محمد بالجهد والجهاد لنفسه ، وبالتفكر والتعلم مما حوله فلما آمن لم يكن يستطيع ان يمنح قومه الذين احبهم هذا الايمان الذى هداه الله اليه بالجهد والجهاد ... فكان جهاده ان يذكرهم بالله ، وان يجاهدهم بتلاوة القرآن عليهم جهادا كبيرا .

يقول الله لرسوله : « انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشــاء » ... أى ان الله يهديهم بسلوكهم طرق الهداية ، وأخــذهم باسبابها كما فعلت قبل ذلك وحيدا يا محمد ، وكما لازلت — ومن آمن معك — تفعل ... ويقول الله له : « فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى » أى ذكرهم بما فى قلوبهم من فطرة الايمان ، وما فى ذاكرتهم من علم الدين ، وبما حولهم من آيات الله ...

ويقول الله « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم » أى انكم بسلوك مسالك الهداية ، وأخذكم باسباب الايمان من التفكــر والملاحظة والتعلم وجهاد النفس قد وجدتم — كما شاء الله — حب الايمان فى نفوسكم ، ورأيتموه حسنا فى قلوبكم .

اذن فالايمان تعلم وعلم ، وجهاد وتربية للنفس واستهداء متصل الى الله ، فاذا وقع الايمان بالله كانت ثمرته حياة جديدة ، واذا لم يقع الايمان الا باللسان — نفاقا او متابعة بغير يقين — لم يقع من ثمرات الايمان شىء ، وبقيت الأمراض والمعتقدات القديمــة فى نفس الفرد تمزق سكينته ، وعاثت فى كيان المجتمع الغافل تدمر وحدته .

فالايمان الحق يجب ان يدخل القلب ... يجب ان يدخل اليه بما يحمله من علم والتزام وتفسير للحياة ، فيغير الانسان تغييرا جذريا مطردا وفق ما يقتضيه هذا العلم وهذا التفسير للحياة . ان الله لا يتقبل ايمان

الافواه من مرضى القلوب ... انه يرفض ايمان المنافقين « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين » ... والله لا يتقبل ايمان العابثين غير الجادين « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » .

ان الايمان الصادق اذن هو الذى يدخل الى القلوب بالعلم فيمنح الفرد هذه الرؤية الصحيحة لمكانه وذاته ومسئوليته من حركة الكون المتسق ، كما يمنحه هذه الارادة المبصرة التى تمكنه من توجيه عمله كله ليكون مع حركة الحياة ، ومنميا هذه الحياة بعلمه وعقله وجهده، غير متصادم معها خمولا وخضوعا ، أو استغلالا وتجبرا ...

هذه علامة الايما نالصادق فى حياة الفرد الذى « جاء ربه بقلب سليم » اما علاماته فى المجتمع فهى :

١ ــ الحرية والعزة :

« أعزة على الكافرين »

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »

٢ ــ تنمية الحياة :

« ولو ان أهــل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض »

٣ ــ الصلابة :

« أشداء على الكفار »

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا »

٤ ــ النصر :

« ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة .. »

« ولينصرن الله من ينصره »

٥ ـ الوحدة :

« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا »

الايمان اذن علم ، واسباب ، ومناخ ، وتربية الايمان هى اساس البناء القوى لحياة الفرد ، والبناء المتكامل لقطاعات المجتمع . واذا كنا لا نملك ان نصنع الايمان ، أو أن نمنح من نحبهم الايمان ، فاننانستطيع ان نهيىء مناخ الايمان ، وان نعد منهجا مرشدا لايقاظ الايمان ، أى للتربية الدينية التى تهيىء بنسبة كبيرة فرصة صحوة الايمان بدليله ، واشراقه بعلمه وقدراته ، فى كل مراحل الطفولة والشباب ، وفى كل مجالات التربية العقائدية السياسية لفئات الشعب العامـلة ولقيادات الشعب التنظيمية .

كيف اذن نتصور منهج التربية الدينية الذى يهدى الى الايمان .. الى برهان الايمـان ، وعلم الايمان ، فى وجـه اعاصير التشكيك ، والاغارات المذهبية والتكنولوجية .. فى هذا العصر الفاصل فى تاريخ البشر ؟

الأصل المستقر على البديهيات والمسلمات ان « الفكرة الدينية » حتى يتم تصورها واستحضار جوهرها ، وتركيز دلالاتها لها خمسة أبعاد لابد من دراستها ــ اى هذه الأبعاد ــ فى منهج متكامل تقوم عليه التربية الدينية بكل مستوياتها ... منهج أساسه المنطق العلمى ، والبرهان الحسى ، والربط بين الحدث التاريخى والواقع ، والنظر الى الدين كحقيقة مستمرة فى الحياة ــ مثل مجموعة القوانين العلمية التى تسير بموازاتها ــ وذلك حتى تعطى فى ضوء كفاح المؤمنين فى الماضى تفهما أصدق للواقع ، ورؤية أفضل للمستقبل ... هذه الابعاد هى :

١ ــ البعد العقائدى الذى هو مصدر الاشعاع فى نواة « الفكرة الدينية » ... أومصدر الضوء الذىيكشف موضوعية الدين وعلميته، والذى يتيح ادراك الاساس الذى ينطلق منه تفسير الدين لحركة الحياة

والانسان ، والمجتمع ، والتاريخ . وبالتالى تتحدد به الاجابات على كل الأسئلة التى كانت ، والتى هى كائنة بالفعل ، والتى يمكن أن تكون . هذا الأساس فى دعوة الدين هو « الله » والمرجع فى فهمه هو القرآن بالنسبة للمسلمين ، والى الكتاب المقدس بالنسبة للمسيحيين ...

٢ ـ البعد الاجتماعى الذى يفسر ارتباط الحرية للافرادوالمجتمعات بالاساس العقائدى للدين وهو الايمان بالله . وان مفهوم هذه الحرية سياسى واجتماعى ، وهو يشمل اقامة علاقات اجتماعية وانتاجية متساوية فىمجتمع يقوم على العمل الموجه ، وعلى عدالة التوزيع ، وعلىالمشاركة بقدر العمل والحاجة فى ثمرات العمل والعلم .

٣ ـ البعد التاريخى الذى يتناول بالعرض والشرح احداث التاريخ الدينى المتسقة المقدمات والنتائج منذ كانت بلادنا مهدا لثورة الدين الانسانية بالاسلام والمسيحية .

٤ ـ البعد الجغرافى أو الجغرافية الدينية التى تحدد طبيعة الارض العربية وآفاقها وطرقها واعلامها ، ومواقع معاركها ، وتحركات الرسل عليها ، وتأثير هذه الخصائص الجغرافية على أهل المنطقة وجماهيرها بالفكر والخصائص والاحداث .

٥ ـ البعد التطبيقى الذى يشمل نماذج الاثبات العقائدى من التاريخ الدينى ـ فى حياة الرسل وكبار الصحابة ، وفى الواقع المعاصر مما يؤكد ان الدين فى جوهره يسير فى حركة الانسان والاحداث وفق قوانين ثابتة تؤكد مبادراته الايجابية ، ونظرته الانسانية التى لا تتغير..

ان تكامل هذه الابعاد فى مناهج التربية الدينية فى المدارس والجامعة ، وللشعب وقيادات الشعب ، ضرورة تفرضها حاجتنا الى فهم الدين « كما هو » فى اصوله الثابتة ، وليس من طريق التوفيق ، او التجاوز ، أو الاسقاط ، أو التغافل ، من بين عديد من الصور والصيغ والتصورات العامة ، التى تنتمى الى الفكر الشاذ لبعض المبتدعين أو

الفرق والتى تعزل الدين عن طبيعته ، أو تحمله على غير طبيعته ، ومن ثم تعزله عن الحياة والواقع مما لم يكن هذا شأنه فى عصور فهمه الصحيح ، وتطبيقاته الكاملة . ومما لا يكون هذا شأنه اذا حكمنا القرآن والعلم والتاريخ الصحيح فى فهمنا للدين .

ان الاتجاه الذى كان يشجعه الاستعمار فى فهم الدين هو تجريده من كل ما يجعله امرا واقعا فى حياة الامة العربية ، فبدأ فى المناهج التعليمية وبتأثيره على التيارات الثقافية ـ يعزل اللغة عن الدين ، ثم يعزل الدين عن الارتباط ـ فى التاريخ والجغرافيا ـ بالقومية العربية وبالمصير الحضارى للعرب . لذلك مضى الاستعمار يؤيد ـ ويخترع احيانا ـ هذه الحركات التى تنادى بالاسلام منفصلا عن أى مضمون عربى ، أو التى تنادى بالعروبة منسلخة عن أى مضمون اسلامى ...

ان الجزء الصعب فى هذا المنهج هو قاعدته العقائدية التى هى أهم ما فيه . كما كان فى الماضى ، فان الايمان باللسان سهل ، ونتائجه سريعة ومؤكدة ، وهى التبعية أو الضياع ! وأما الايمان الحق فهو عظيم المشقة . ان قلب الانسان ـ كفتحة فى جدار أو كحفرة فى العراء أو كصندوق ثمين فى الصدر ـ لابد ان يمتلىء مع الرياح والأمطار والأيدى بشىء ما ... بفكرة ما ... بعقيدة ما ... بعبادة الله أو عبادة الأشخاص ، أو عبادة الذات ... ارادة الانسان هى التى تتحكم فيما يمتلىء به قلبه ، ولا ارادته أيضا .. لذلك فالايمان صعب لانه يلزم المؤمن أن يريد شيئا وأن لا يريد شيئا آخر .. أن يسمح لشىء ما بدخول قلبه ، وأن يرفض شيئا آخر فلا يدخل الى قلبه ، فاذا ما تجاوزت ارادة الانسان حاجته المحدودة ليعيش ويأمن الى حاجات جميع البشر ليعيشوا ويأمنوا ، واذا ما تجاوزت نظرته للحياة التى يعيشها ما يراه بعينه ، وما يلمسه بيده ، وما يعيشه باجهزته الى ما يراه وراء الذى لا يراه ، وما يحسه وراء الذى لا يحسه ، ومايقيسه بقلبه وعقله وان كان لا يستطيع ان يقيسه بادواته واجهزته فان قدر الارادة الذى يحتاج اليه ليفتح قلبه لشىء يدخل اليه ، وليغلق قلبه

عن شىء لا يريد ان يدخل اليه ... ليصنع شيئا ولا يصنع شيئا آخر ... ليبنى الحياة فى نفسه ومجتمعه بأسلوب ولا يبنيها بأسلوب آخر ... ليعبد الاها واحدا لا يعبد أحدا سواه ... ولا يعبد الالهة الزائفة التى تزلزل الارض ، وتغرى بما فى الارض ، وهى ملء عين جميع النـاس وجميع الحواس ــ هذا القدر من الارادة جليل ، لأن غاية الايمان به جليلة ، والمشقات امام غاياته عظيمة ... لذلك فالتربية الدينية هى فى جملتها تربية للارادة العظمى التى يمكن أن يمتلكها قلب الانسان بالايمان ... ومن أجل الايمان !

ولكننا مع ذلك نكتشف قانونا للايمان يسهل الأمر قليلا ... فهناك على التحقيق ثلاثة مصادر لعلم الدين ، أو علم الايمان هى الآن ــ فى عدل الله ــ فى متناول جميع البشر ، وان كان بعض الناس اقرب اليها من بعض وهى :

١ ــ الطبيعة ، وفى لغة القرآن ملكوت السموات والارض ، وفى لغة الماديين ــ المادة .

٢ ــ الفطرة وهى الصورة المقابلة لقوانين الطبيعة فى نفس الانسان هى اللوحة الرقيقـة الحساسة التى ترسم تحذيرا للانسان عندمصادمته للقوانين الطبيعية ، والتى تنقل اليه احساسا بالامن اذا ما سار فى اتجاه حركة هذه القوانين ــ وهى ما يسمى فى اللغة المعاصرة « الضمير » ..

٣ ــ القرآن والكتاب المقدس ...

لكى يستقر ايمان المؤمن على اساس لا يتزعزع يجب ان يتوفر له علم كاف بهذه المصادر الثلاثة . ولما كان من الميسر لكل انسان فى العالم ان يلم بأكثر من مصدر واحد من هذه المصادر فان بوسعه من طريق علمه باى مصدرين منها ان يتوصل الى زيادة علمه بالمصـدر الثالث ... وهذا هو القانون مبسطا :

١ ــ اذا توفرت للانسان يقظة فطرته ، وسلامة نظرته الى الطبيعة

والكون ، استطاع أن ينفذ بقلبه وعقله الى دقائق الكتاب المنزل بالدين ، الى آيات القرآن أو أسفار الكتاب المقدس ... « فطرة + نظرة علمية صحيحة للكون = هداية لفهم الكتب المنزلة »

لقد كانت صحوة الفطرة وسلامة النظرة العلمية الى ملكوت السموات والارض فى حياة مفتوحة غير مغلقة ، وحرة غير مقيدة سبيلا الى قدرة الرسل على تلقى كتب الله بالوحى والتزامها فى حياتهم الخاصة والعامة .

٢ — اذا توفرت النظرة العلمية السليمة الى الكون بالتفكر فى الطبيعة ، وفى ضوء دراسة العلوم ، مع وعى القرآن أو الكتاب المقدس ، تيقظت فطرة الانسان تماما ، واستقر ايمانه بها نظرا وتطبيقا ، وهذا ما يمكن ان يكون الآن موقف المؤمنين المعاصرين .. « نظرة علمية صحيحة للكون + هداية لفهم الكتب المنزلة = يقظة لفطرة الانسان تساعد على دعم الايمان » .

٣ — اذا صحت الفطرة وأمكن استيعاب القرآن أو الكتاب المقدس فان نظرة المؤمن الى الكون والآفاق تصبح نافذة وعلمية ومؤكدة لصوت فطرته وفهمه لآيات الكتاب ، وذلك بالقدر الذى يستقر به ايمانه نظرا وتطبيقا فى الحياة ... « صحوة لفطرة الانسان + هداية لفهم الكتب المنزلة = نظرة علمية صحيحة للكون » .

لذلك فانه فى مناهج التربية الدينية التى ينبغى أن توضع لكافة المستويات فى الشعب يجب أن نفك الحصار الذى تضربه المناهج الحالية على نفوس الصغار والكبار فتعوق يقظة فطرتهم ، ونظرتهم العلمية السليمة الى حركة المادة والأشياء فى الطبيعة والكون من حولهم وفهمهم النافذ الى حقائق ودقائق القرآن أو الكتاب المقدس ... يجب أن نعمق هذه المصادر الثلاثة لعلم الايمان ... التى هى فى حوزة جميع البشر ... وفى حوزة الأمة العربية قبل غيرها طبيعة ومسئولية !

يجب اطلاق النفوس الحبيسة عن الفطرة ، وعن الافاق ، والنفاذ بها الى النبع الذى يتفجر منه الاحساس باتساقها ووحدتها ، والى عالم الكتب المنزلة وما فيها من ايقاظ فطرة الانسان ، وتأصيل جذوره وعلاقاته فى الطبيعة التى يعيش فيها جزءا متحدا بها ، وليس مستقلا ومنفصلا عنها .

لهذا فان القواعد الآتية تكون ضوءا مرشدا لوضع مثل هذه المناهج وهى بايجاز شديد :

١ — المقصود من التربية الدينية تنمية الايمان الصحيح فى الاتجاه الصحيح ... المقصود منها جوهر الاعتقاد وليس شكله ... المقصود منها الدين وليس التدين .. المقصود منها تربية ارادة التغيير فى نفس المؤمن ليبنى نفسه ومجتمعه بالايمان .

٢ — لابد للدين من تفسير له بناء « ايديولوجى » تواجه به أجيال الشعب مسلمين ومسيحيين ايديولوجيات العالم ، المسلحة ببراهينها ، ليس لاذكاء روح التعصب ولكن لانارة الطريق أمام هذه الأجيال لتتفاهم بذاتها الحقيقية مع كل العالم على اساس فكرها وقوميتها بانفتاح انسانى لمعتقدات ومنجزات كل الشعوب .

ان التعريف السائد حتى الآن عند علماء الدين المسلمين ان الدين هو « وضع الاهى سائغ لذوى العقول باختيارهم » والمطلوب ان تقدم فى التعريف الشامل منهج الدين فى تفسير الحياة ، فالدين هو التزام بتفسير الحياة وحمل اماناتها على اساس مشيئة الله ، وفى ضوء ما جاء من عند الله ... انه لابد من هذا التعريف الاشمل فى هذا العصر الذى يتضمن مفهوم الانسان فى الدين ، ومفهوم المجتمع ، ومفهوم التاريخ ... والنظرة الواسعة الى المستقبل .

٣ — يقتضى الامر كذلك تعريف كلمات أخرى مثل الايمان والاسلام ، والقرآن والكتاب ، والفطرة والملكوت ، والقلب والعقل

والنفس والروح ، والعلم والعمل ، والحق والعدل ، والمشيئة والخير ... مما يلزم وضوحه واتساقه مع تعريف الدين ... لانه لا يتيسر فهم « الدين » بتعريف محدد دون ارتباط هذه الكلمات التى هى لبنات فى بنائه بنفس الوضوح الكاشف لمنهج الدين فى تفسير حياتنا .

٤ ــ احادية الله هى أساس الدين ، وهى اساس ان الكون واحد، وهى أساس العلم وقدرتنا على اكتشاف قوانينه . والايمان بهـذه الوحدانية هو أساس النظام الاجتمـاعى السليم القائم على الحـرية السياسية والحرية الاجتماعية . ومن أجل تثبيت معنى الوحدانية لله تبدو أهمية المشاهدات الحسية للطبيعة وراء المواجهة بالدليل على وحدة قوانينها واتساقها .

٥ ــ من خلال التفكر فى الطبيعة وآياتها ، وفى النفس ، وفى القرآن والكتاب المقدس على المناهج ان تقدم اجابة مرتبطة بهذا المعنى على هذا السؤال :

(لماذا كان الوطن العربى بطبيعته المتميزة مهد الدين ، وتاريخه هو تاريخ الدين ؟)

٦ ــ هذه المعانى كلها وافية فى القرآن ــ ووافية بالنسبة للمسيحيين فى الكتاب المقدس . لذلك فان تحفيظ قدر كبير من القرآن ــ كما يفعل المسيحيون لكتابهم ــ أمر حيوى لتنمية الحس الدينى ، والحس العلمى ، والحس التحررى ، مع ما تميز به القرآن فى « نظمه الخاص » من احداث الشعور بوحدة الكون وقوانينه بمجرد الاستماع اليه حتى لمن لا يستطيعون من الأطفال تعمق معانيه فى مراحله الأولى .

٧ ــ ربط جميع العلوم فى موادها بما يقابلها من آيات القرآن التى أشارت اليها ليتجاوز فكر الناشئين هذه الفجوة المفتعلة بين العـلم والدين ، وبين الدين والحياة .

٨ ـ العمل الميداني في مجالات البر ، وبناء المجتمع ، والدفاع عنه جزء من التربية الدينية بقيادة المعلمين ، كذلك اقامة الكثير من العبادات كالصلاة بامامة المعلمين في اطار المعنى التنظيمي والاخائي كجزء من التربية الدينية .

٩ ـ ايضاح الاجابات الصحيحة على جميع الاعتراضات والمآخذ التي أثارها ويثيرها المستشرقون والعلمانيــون على الدين . وذلك لتحصين الأجيال الناشئة ضد مخاطر الشك والتمزق بلا دين أو بدين لا ثقة في أسسه ، ويزيد هذا المستوى من طرح المشكلات والاجابة عليها بالنسبة لطلبة الجامعة والمعاهد العليا .

١٠ ـ التربية الدينية بالنسبة للناشئين من المسلمين والمسيحيين تستهدف بين أهدافها الكبرى تأكيد الوحدة بين عنصري الشعب حول جوهر الدين ، وتجاوز اهداف المستعمرين وضيقي النظـر في اثارة المسائل الخلافية التي انحسمت الآراء فيها بعد نزول القرآن ، وبعــد قيام المسلمين بتأكيد وحدتهم مع المسيحيين في كل مجالات الحياة ، وغايات المجتمع ، ومصير الامة العربية .

* * *

٧ - أدوات ثقافة الطفل

من المجالات الحديثة للغزو الاستعمارى للشعوب مجال غزو الطفل ... غزوه بالكتاب ، والصورة ، والفيلم ، والأغنية ، والحركة ... وغزوه باجتذابه هو بشخصه ، وادخاله تحت أى شعار فى عملية « اعادة صياغة » ... فى عملية تحويل عقائدى ... يصبح بعدها الطفل عاجزا عن تغيير اتجاهه بارادته — عندما يكبر — فى أى عملية ضرورية للتصحيح، انه يصبح عاجزا عن اعادة الصورة الطبيعية لقسمات وجهه بحسب تراثه القومى ، واتجاهه الانسانى ... لان المستعمر راعى من خلال تلك الأدوات لغزوه ان يقترف معه بقسوة عملية التشويه الفكرى — فى أحد الملاجىء أو المنظمات — تحت عنوان « التجميل » ! ... وان يقترف بحقه جريمة المسخ الانسانى والقومى تحت شعار « التنشيط ! » والتنظيم لقدراته ومهاراته ... فى اتجاه عالمى ! ... أى فى اتجاه برامج الحياة وانماط الفكر ، كما يبرمجها وينمطها لتحقيق سيادته المطلقة ... الرجل الأبيض ... الرأسمالى ... الصهيونى !!

ولقد اتنبهنا هنا بالثورة فى مصر بعد التيه الطويل وراء الأساليب الغربية ، المتفقة كلها على النظر الينا بمقياس نظرة « الاوربى للافريقى » الى ضرورة استنقاذ « ثقافة الطفل » العربى من بين المخالب الكثيرة والحادة الممتدة للسيطرة عليها ، واحتكارها لتحقيق واحد من اخطر أهداف التبعية العدوانية .. لقد تيقظنا الى ان « الطفولة » هى « المستقبل » ... هى مستقبل القيادة ، ومستقبل قوة العمل ،ومستقبل حيوية التخطيط وتصعيد التنمية ، ومستقبل الاتجاه الذى نسير فيه « عقائديا » بين البشر ... ومستقبل الدفاع المسلح والفدائى عن هذا الاتجاه ... الدفاع عن جميع أهدافنا الذاتية والتاريخية والانسانية ... فى الوطن العربى !

لقد اتنبهنا على مستوى جهات كثيرة مسئولة فى وطننا عن تربية

وتثقيف الأطفال ... فى وزارة التربية والتعليم ... وفى الجامعة ... وفى وزارة الثقافة ... وفى التنظيم الشعبى ... وقريبا سيصل هذا الاهتمام - ربما - الى مجمع البحوث الاسلامية بالازهر ...

لقد اتبهنا ... بعد ظهور « شروخ » كثيرة فى عقلية أطفالنا ... بعد أن بدأت لغتهم تضعف ، وبدأ الانطباع الجغرافى والانطباع التاريخى لوطنهم الاقليمى وللوطن الكبير يدخل فى الظلام ... وراء صور براقة صاخبة لحياة الشارع الاوربى الحديث الأنيق فى عواصم العالم المتقدم أو وراء صور الغابة المحاصرة بالثلوج فى الاوطان الاوربية وما تحتويه من ثروة اسطورية عن عالم « الجنيات » "Fairy Tales" وحوار الحيوانات الذكية المسلية ... معروضا فى جمال وروعة « الكتب المقدسة » ... طباعة وألوانا واثارة !!

فى حياة الطفل العربى منذ قبيل الثورة كانت تتراجع وراء زينة صناعية ... وراء « ديكور أوربى » ... كانت تتراجع عن عالم الطفل العربى آفاق وطنه الحقيقية ، فى أضوائه وظلاله ومكوناته الطبيعية ، من النخيل ، وأشجار الكافور والارز والزيتون والحيوانات الاسيوية والافريقية ، والجبال والأنهار والصحارى والسهول ، ومشاهد السماء المرصعة ، ودرجات الحرارة المتكاملة مع أجزاء الطبيعة كلها ، حيث اندفع الماضى ، وتشكل الحاضر ، وتهيأ بزوغ المستقبل ... فالطفل أريد له باختصار أن يعيش مع الفقمة والثعلب القطبى والدب الشمالى، والغابة التى عاشت فيها سندرلا ، وروبين هود ، والطحان والقزم لينشأ فى جذور عاطفية وانثروبولوجية بطبيعة يتحد بها مقهورا مع الطفل الأوربى ! وبذلك - مع هذه النشأة غير الطبيعية للطفل العربى - يصبح « جاهزا » للخنوع للطفل الغربى عندما يصبح رجلا ... من حيث أن الأوربى هو صاحب الطبيعة الأصلية ... من حيث انه الأصل ... والطفل العربى - كما يراد له - هو الظل ... هو التابع الى الأبد !!

وفى اتجاه آخر للصرف عن الثقافة القومية للطفل العربى تنشط

بعض الاتجاهات لنشر الاساطير الهندية فى كتب الأطفال ... التى لاشك فى انه مع وجود بعض العناصر المشتركة بين طبيعة بلادنا وطبيعة الهند الا أن محاور الأساطير الهندية فى مقومات فكرها الروحانى الفنائى تشكل تصادما عميقا مع الفكر العربى العلمى والواقعى ...

ان موضوع ثقافة الطفل يحتاج لعرضه الى كتاب مستقل يعدد ظواهرها ، ويبحث تاريخها وأطوارها ونماذجها ومدارسها فى بلادنا — فى مراحل الوحدة والقوة — وفى البلاد القوية الأخرى المعاصرة ... ولكنى هنا اكتفى بالاشارة الى مفتاح قضية الطفولة فى بلادنا من حيث تحديد المصادر التى نقدم منها وننظم ونعد مناهج وأدوات الثقافة لأطفالنا .

ان هناك آلافا من الأخبار القصيرة الغنية باتجاهاتها التربوية فى تراث الأدب العربى القديم ... وقد كانت هذه القصص نفسها الثروة التى اعتمد عليها الفن القصصى فى عصر النهضة فى كل من اسبانيا وفرنسا وانجلترا ...

وان هناك آلافا من مشاهد التاريخ الحية التى يمكن ان تكون وقائعها مجالا لتربية الأطفال ... هناك قصص الرواد الأولين للكشوف البحرية فى بلادنا ، وقصصهم العجيبة على مياه البحر الأحمر والمحيط الهندى والمحيط الأطلسى ... هناك هذه الأخبار التى تروى عجائب الرحلات القديمة فوق البحر ... من مصر الى بلاد بونت أى بلاد الساحل العربى حيث جاء المصريون الأقدمون ... وهناك أخبار القوافل التى نقلت التجارة العالمية على طرق بلادنا ... وهذه الطرق التى لاتزال فى الوطن العربى وفى مصر تحكم مصادر الثروة الاقتصادية للعالم الحديث ... هذه الطرق تجرى فى كثير من المواقع الاستراتيجية الهامة فى وطننا مثل سيناء ، وهى فى نفس الوقت قاعدة حافلة بالمشاهد الرائعة والتكوينات الطبيعية الجليلة ، والجيولوجية الأخاذة ، وأخبار واحداث التاريخ الدينى المتعددة التى لا تنقضى عجائبها ... متمثلة فى

وحدات وطننا من البشر والكائنات الحية والنباتات التى تنفح بعطر بلادنا ، وتكتب بظلالها المتحركة بلا انقطاع تاريخنا الذى لا ينسى .

انه بينما يحاول اليهود والاوربيون فى اتجاه الصهيونية احتكار الكتابة والأعمال الفنية عن هذه المناطق ، كما لو كانوا اصحاب البلاد الأصليين نجـد اننا منصرفون بتأثير الدعاية الصهيونية والاستعمارية نفسها ــ عن هذه الكنوز المملوكة لنا ... الى استعارة المواد الخاصة لثقافة الطفل الأوربى عن وطنه ...

انه لا توجد مصادر غنية بالثقافة الوطنية والقومية والانسانية لطفل ما فى العالم أغنى من مصادر هذه الثقافة للطفل العربى فى مصر ، وفى كل جزء من أجزاء الوطن العربى ... وقد آن الوقت ليوضع هذا الأمر فى موضعه من الأهمية ، والقدسية ، ومن اعتبارات « الأمن القومى » على المدى البعيد ... والقريب ... بقدر ما تتصور ... وما نكتشف بالتحليل مدى الخطر فى تغلغل هذا الغزو العقائدى لقومية وانسانية الطفل العربى ..

ان ثقافة الطفل معركة قومية يجب أن نكسبها ... وأن لا تتوانى فى وضع القواعد التى تنتهى الى تخطيط شامل لها ، ورعاية موحدة لكل مناهجها ، وتصعيد لمستوى وأهداف هذه الثقافة فى مستويات الأعمار بالتتابع الى مرحلة الشباب .

ان هناك مثلا أعلى يجب أن نضعه فى بلادنا نصب أعيننا عندما نفكر فى ثقافة أطفالنا ... كيف نشأ محمد فى طفولته ؟ ... ماهى مصادر ثقافتـه التى أهلته لمقام النبوة ، ودرجة القيادة للامـة العربية ... وللانسانية ؟ ... وما هى هذه المصادر فى « الثقافة » التى ترعرعت وازدهرت بها طفولة المسيح ؟ ...

لقد نشأ كل منهما فى أحضان طبيعة بلادنا ... لم تكن هناك بينهما حجب وبين الطبيعة التى تقود الى اليقين بالله وبالملكوت... بالعلم الذى

ينتظم حركة الكون ... بالله الذى تملأ مشيئته الكون والسماوات ... وتحركهما .

ولقد نشأ كل منهما قريبا من لغة أمته ... من مصادر لغتها المعبرة عنها ... وعن مبادئها ... وعن التقويم المستمر لحركتها .

ولقد نشأ كل منهما قريبا من تاريخ الأمة ... من تاريخ انبيائها وقادتها ... وكتبها ... وانجازاتها ... وهزائمها وصراعاتها من اجل الانتصار فوق الهزائم ... النفسية والشعبية !

ولقد نشأ كل منهما داخل قضايا الأمة ... من قاعدتها ... وليس من قمتها ... لقد عرفا مع البشر البسطاء ... الأشياء البسيطة ... عرفوا البرية .. والنخلة .. والربوة .. والجبل .. والبحر . والسماء الصافية والناقة الرؤوم .. والاتان النشطة .. والشاة الضالة .. والشاة المهتدية والزنبقة .. زنبقة الوادى « التى تلبس ولا تزال أفخر مما كان يلبس سليمان فى ملكه » .. فى أجمل ساعات الليل والنهار فى بلادنا المضيئة على الدوام !

ان هذا ينقلنا الى ضرورة استرجاع مرحلة حياة « الراعى والقبيلة» الى فكر وذاكرة المجتمع ، وخاصة فى تربية الطفل ... ان هذا ماتصنعه الدول الاشتراكية والرأسمالية ، وتصنعه اسرائيل باعتداد واسراف... ومن حقنا ان نحبط مخطط الاستعمار الذى اجتهد فى اسقاط أهم مراحل تاريخنا من كل حياتنا !

اذن فلا يمكن أن نخدع أنفسنا ... أو أن نسمح لأحد أن يخدعنا باننا مجردون من مصادر حقيقية وايجابية وهادية لأطفالنا ... أو أن ما نملكه من هذه المصادر لايكفى الطفل العربى من أجل أن يؤمن ... أو لا يكفيه لينمو على حب وطنه ، وعلى معرفة نفسه ... لا نستطيع ان نزعم ان ما نملكه من هــذه المصادر الخصبة لا يكفى لكى يكتشف الطفل العربى هذا الانسان الانسانى فيه ... الانسان الذى دعا البشر

الى الدين ... وكشف للبشر عن العلم ... وبنى للبشر أعظم وأبقى انماط الحضارة الانسانية !

لذلك فان ازالة هـــذه الحجب الصناعية ــ العــدوانية فى أكثر اتجاهاتها ــ وبين الطفل العربى ــ فى هذ االعصر وما بعــده ــ وبين آفاق الثقافة القومية الانسانية الخصبة التى يملكها فى الطبيعة وبالتاريخ وبالعقيدة وبالواقع ــ هى امانة هذا الجيل ... هى امانة رواد الثورة وابرار العقيدة ... واحرار الأمة .. فى أعظم وأخطر الصراعات البشرية على أرضنا فى معركة الوجود العربى .

مسئولية من ... ؟ وامانة من ...؟ ... ثقافة أطفالنا ! ؟

انها مسئولية كل الشعب ... ومسئولية كل مؤسسات الدولة ... ومسئولية التنظيم الشعبى ... ومسئولية الطليعــة الواعية ... وهى مسئولية تظهر ثمارها أولا فى منــاهج التربية الدينية ... بالبيت ... والمدرسة .. والطريق .. والمجتمع .. والكتاب ..

* * *

٨ — لمن الفجر الجديد ؟

فى يوم من الأيام جاءنى هذا الشاب المنفعل ، الذى يتهدج صوته وهو لا يصدق أن أحدا سيستمع الى اقتراحه باحترام .. قال « لا بد ان تنشىء حول كل مسجد حديقة جميلة ، وان نبث فى هذه الحديقة مقاعد وثيرة ، ونسمح فيها بدخول الأطفال والشباب والعائلات، ونوافق على تناول المثلجات والحلوى بها من متجر صغير فى الحديقة ... » ثم قال « هذه الحديقة هى فترة اعداد وتكييف نفسى لدخول المسجد للصلاة ، أو لسماع الدروس فى التاريخ الدينى ، وتفسير الآيات المتصلة بواقع الحياة ، والتى يمكن أن تصحح بها الأسر والشباب مسار حياتهم على أساسها ، ملتزمين بالفهم واليقين ، وبطهارة النفس واليد والقصد فى بناء المجتمع ... ان الشباب والشابات ، والآباء والأمهات سيسمعون الاذان ... وسيسمعون آيات من القرآن ، وسيرون عددا من المصلين من كافة قطاعات الشعب ... وبذلك يألفون الأمرويدخلون بتقبل للصلاة ... ! »

ثم نظر نحوى نظرة طويلة يتفحص آثار كلماته . وقال باختصار « ما رأيك ؟ »

قلت وأنا ابتسم له « أنت تكلمنى كأنك غير مقتنع باقتراحك مع مع انه معقول ... وفى أوروبا وأمريكا يأخذون الآن بهذا الأسلوب التقريبى والتحبيبى للدين فى نفوس الشباب والأسر ... ونحن أحوج الى التفكير فى هذا الأمر بهذا المنطق ... فما الذى يقلقك ؟ »

قال « لقد عرضت هذا الامر على كثير من رجال الدين فلم يشجعونى ... وناقشت فيه بعض رجال الفكر والصحفيين فلم يهتموا بالامر ... وتحدثت عنه الى بعض أصدقائى فى العمل فضحكوا وقالوا اننى مجنون ! »

قلت وانا أضحك « اننى سأضحك ايضا ... ولكنى لا أتهمك الا بالذكاء ، وبعد النظر ، وروح العصر ... ان هذا الاقتراح كفكرة مقبول ، ولكن مرحلة التنفيذ تحتاج الى خطة ، والخطة تحتاج الى أفكار منظمة حول غايات واضحة ، مع وجود ارادة تنفيـذ قوية ، واعتمادات مالية وبعض الوقت ... »

ثم أذكر أننى تحدثت طويلا الى هذا الشاب الأمين المتحمس كثيرا فى هذا الموضوع ، وانتى قلت له فى هذا المعنى وهو ما أريد أن أقوله هنا « ان المسجد والكنيسة هما الآن مراكز الاشعاع بالهداية التى يمكن باقل ما تحققه أن تحدث التوازن المطلوب بين الضغط الخارجى العنيف على عقل وأعصاب الانسان المعاصر وبين قدراته النفسية الداخلية ؛ بحيث يستطيع امتصاص هذا الضغط فى رد فعل تقدمى مع الحياة ... رد فعل معناه ان هذا الانسان المؤمن يستطيع ان يقود سفينته الصغيرة رغم كل شيء وسط الأعاصير والظلمات والامواج الصاخبة بالهدى والصبر والتفاؤل .. !

« ولكن المسجد — كما كان قبل — يمكن ان يسترجع سيرته الأولى عندما كان جامعة شعبية فى كل المدن والقرى ، وندوة تنظيمية وملتقى يومى على الحب الاجتماعى بين الجماهير وقادتها ، انه المكان الظليل الذى تأوى فيه القلوب المكدودة من سعى النهار — والعقول الحيرى فى دنيا العيش — الى سكينة الاقتراب من الله ، والتعاقد مع الله ، والتواثق مع الله ، ... انه من الممكن ان يلاحق المسجد الكنيسة الغربية فيما نهجته من أشكال التقرب العصرى الى روادها ... فيصبح كل من المسجد والكنيسة معا فى بلادنا بيتا للهـداية ، ونبعا للحب ، ومصحا للنفوس الكليلة ، ومركزا للاشعاع بدعوة العدل الاجتماعى ، والتسامح الدينى ، والتفاؤل بالمستقبل القريب والبعيد .

معنى اننا نكرس المسجد والكنيسة لهذا الاتجاه هو اننا سنفتح أبوابهما للعلماء فى كل مجال ، يعلمون من العلم باسم الله ليكون العلم مقدسا ، فلا يتجه به أحد الا الى عمل مقدس هو شد صفوف الوحدة ،

وغرس بذور الثقة ، وتفجير قدرات العمل ، وملاحقة حركة التقدم ، واحباط كل خطط الأعداء ...

كما انه امام ضرورة محو الأمية الهجائية فان ألوف المساجد فى بلادنا تتسع لانجاز هذه المهمة فى أقصر وقت ، وبأحسن منهج ، وبأقل نفقة ... فلقد كان المسجد هو أول مكان فى مجتمع المؤمنين الأول ، تحرر فيه الأميون من الأمية ، وتلقى فيه المؤمنون كل فروع العلم . وقد اتجه بناء بعض المساجد الحديثة فى ضوء التجربة الاسلامية الأولى فظهر المسجد الأمثل الذى يشتمل فوق رحبة الصلاة والمحراب على قاعةمحاضرات ، ومكتبة ، وفصول تعليمية ، وناد للرياضة ، وجانب لاجتماعات مجلس ادارة المسجد ... ما عدا الحديقة والمثلجات !! ظهر ذلك فى القاهرة والسويس ومدن أخرى ... وسيصبح ذلك طابع كل مسجد جديد ... ولكن المهم هو المضمون ... هو نوع الناس ، ونوع الكلام ، ونوع العمل ! »

ومع حديث الشاب المتحمس لحدائق المساجد ، وهى فكرة جميلة تحتاج الى دراسة ضوابطها ، ووسائل تنفيذها ، تذكرت قصة اخرى فى نفس الموضوع عن كنيسة فى مدينة ليبزج بالمانيا الديمقراطية قامت بتجربة مثالية لأول مرة فى مجتمع شيوعى . فقد حدثنى صديق تعرفت عليه بهذه المدينة الالمانيةالقديمة — عمرها نحو ٧٠٠ سنة — فترة زيارتى معرض المدينة الدولى سنة ١٩٦٩ وهو الاستاذ كارل هارتز كاليتا العالم المتخصص فى نباتات المناطق الحارة ، وله أصدقاء من أساتذة الجامعة بمصر — كما انه من وجهة العقيدة يمكن أن يوصف بأنه « مسيحى ماركسى » مؤمن وملتزم فى وقت واحد — قال من خلال حديث طويل فى بيته ووسط أسرته : « ان احدى الكنائس الكبرى فى ليبزج قامت بمحاولة لاجتذاب هذا النوع الجديد المهزوز من الشباب — أصحاب البنطلونات المحزقة والسوالف المدلاة والعيون الزائغة والروح الضائعة — وقد كثر عددهم نسبيا فى هذه المدينة ، ونحن لا نسميهم البيتلز أو الهيبيز بل نسميهم « الجملر Gumlar » ... وتتلخص

التجربة فى أن رعاة الكنيسة توصلوا بالمعالجة النفسية فى جو دينى ووسائل عصرية كالموسيقى والمناقشات الحرة ، وبروح علمية متفتحة من هؤلاء القساوسة الى أن يغيروا أسلوب حياة نحو ١١٥ شابا خرجوا يذيعون فى ارجاء المدينة بعد جملة لقاءات مفيدة ان رجال الكنيسة عاملوهم كبشر ... وليس كما كان يعاملهم رجال الشرطة ...! » وقد كان هذا بالنسبة اليهم أمرا رائعا للغاية ، ونقطة تحول بارزة فى حياتهم ...!

كنت قد سألت كاليتا قبل ذلك ـ هل أنت ماركسى أم مسيحى ؟
قال ـ انا مسيحى الايمان ولكنى ابنى وطنى بالنظام الماركسى ..
قلت ـ وما رأيك فى الموقف بين المسيحية والماركسية عندكم ؟

قال ـ « ان الماركسيين هنا يأخذون ببعض الأشكال الدينية عند المسيحيين مثل التعميد الثانى للاطفال فى سن ١٤ لتزويدهم ـ كما تفعل الكنيسة ـ بوصايا مرحلة المراهقة والشباب ، وكذلك يحتفلون بالأعياد المسيحية مع غيرهم ، ويحترمون رجال الدين ، ويتركون التدين حرا ... »

قلت له ـ « هذا لا يكفى فى الشرح ... »
قال ـ « كانت الماركسية قبل الآن متطرفة عندما كانت تواجه الاستغلال فى ذروة ظواهره ، وخاصة فى ألمانيا ... يقول ماركس ان النظرية العلمية ستبقى ولكن التطبيقات ستختلف حسب الظروف الموضوعية لكل بلد . لا يوجد جمود من حيث التطبيق ... وكما تطورت الماركسية فى الماضى فستتطور فى الحاضر ... النظرية نفسها جسر الى هدف آخر ...

« اذا نشأ مجتمع آسيوى أو أفريقى فستكون له ظروفه الخاصة التى تنطلق منها الديالكتيكية وتتجه حسب ظروفها الى الهدف الواحد وهو تقدم الشعب من غير استغلال » .

قلت « ولكننا فى مصر والوطن العربى ، فى قلب العالم ـ ودون أن يكون ذلك أمرا بعيدا عن التصديق ـ قمنا فى القرن السابع تحت شعار

الدين ودعوة محمد ومبادىء الاسلام ببناء وتحريك هذا المجتمع الذى يتقدم بالعلم والعمل والعدل دون استغلال . وكانت هـذه التجربة بذاتها هى التطبيق العملى لدعوة المسيح التى قضى على امكانيـات تطبيقها من أول الأمر كهنة اليهود والعسكريون الرومان معا .. وعندما انتقلت المسيحية الى أوروبا وئيدة كالنار فى فتيلة اللغم لم تلبث ان أخذت تحت تأثير عقلية أوروبا الوثنية اشكالا يونانية وهى تحاول التعبير ـ أى المسيحية ـ من مصدرها الالاهى عن « انسانيتها وترفعها عن المطالب الحضارية العميقة والمطالب المضادة لها » كما يقول أرنولد توينبى ـ ثم لم تلبث المسيحية عندكم فى عصر البابوات العظام أن حالفت العسكرية القيصرية المتألهة ، وساندت بكل ثقلها ذلك الوجود الامبراطورى والملكى والاقطاعى الظالم ، ثم فعلت نفس الشىء مـع الاستعمار ... ربما كان ذلك هو ما استطاع الماركسيون ان يقرأوا الدين فى ضوئه ... وهو بعيد كل البعد عن دعوة المسيح المثالية ، ودعوة محمد الأمينة فى التطبيق » .

قال « ان الخلاف النظرى بين المادية الماركسية والعقيدة كما أفهمها كبير جدا . يوجد تناقض نظرى بينهما . نحن المؤمنين نعتقد فى الله وفى النبى وان كنا لم نر ذلك . وبالنسبة للماديين يقولون ويثبتون أن المادة فى حالة تطور طول الزمن ... ولكن من أين هذه المادة ؟ ... لقد بحث الماديون عن جذور المادة حتى وصلوا الى نقطة وقفوا عندها كما وقف رجال الدين ... اذن هنا عند العجز نقطة لقاء بين المؤمنين والماديين ... الدين لا يثبت ان الذى خلق المادة هو الله ... والماديون لا يثبتون أن احدا غير الله أوجد المادة ... وعندئذ يقف الاثنان ينظر كل منهمـا الى الآخر ..

ولكن السباق سيحصل مع الزمن ... ولا بد للدين ان يتطـور بسرعة ويتحرك من موقعه ، فان صمته لمدة ألف سنة لا يفيده . لابد أن يقدم من فكره فكرا جديدا يحرك هـذا العالم ... ان الفيتناميين فى آسيا قدموا بالروح الفيتنامية مثلا لما تملكه القدرات الاسيوية مما قد

لا يكون مثله موجودا فى أوروبا فى أعظم مستويات العقيدة . ان السباق مستمر ، وسينتهى الى بقاء الاشتراكية الحقيقية وليس الاشتراكية الحالية التى لم تنته من خلافاتها حتى الآن ... وربما كان الاسيويون والأفارقة هم الذين يقدمون المثال بالنسبة لمن يفهم الاشتراكية ويطبقها. ان الاوربيين ليسوا « أنبياء » ولم يخرج منهم نبى ، وقد تنتقل القيادة بمقياس الاخلاص للهدف الاشتراكى الى أيدى الآسيويين والافارقة»

قلت : « الآن اوجه سؤالى الى السيدة كاليتا ... كيف تربين ابنتيك هاتين وكانتا معنا على مائدة الشاى ـ انجيليكا وكورنيليا ... فتاتان ناضرتان حييتان ذكرت معهما وجوه العذارى المعبرة عن النقاء والامل فى الصور الدينية المسيحية بمتاحف روما ... كما أن اسميهما وهما المانيتان يعطى نفس الانطباع !

قالت السيدة كاليتا « ان الزوجة فى الأسرة الاشتراكية تعمل تماما كما يعمل الزوج ، والأطفال ترعاهم الحكومة طول النهار فى الحضانات وعندما يحضر كل من الزوجين الى المنزل يتساوى كل منهما فى اداء العمل المنزلى ... !

« ولكنى بدافع من زوجى تركت عملى كمهندسة تصميم آلات لأعمل معه فى عمل أقل اجرا حتى اتفرغ لتربية بناتى ... اننى أعتقد ان الانسان يعمل ويدافع ويناضل بقوة جذوره فى المادة « الوطن » وبقوة جذوره فى الانسانية « الاسرة » ... »

« ان رأيى ورأى زوجى ان التربية فى دور الحضانة مهما كانت ضرورية حاليا للنظام الاشتراكى الا ان تربية الأطفال فى حضانة آبائهم المخلصين لهم ـ بصورة طبيعية ـ هى من ناحية الهدف التربوى افضل وقد اثبتت الاحصاءات ان أطفال الأسرة أقل فى النزعة العدوانية كثيرا من غيرهم ... »

ثم عادت السيدة كاليتا تقول ـ « لقد وضعنى زوجى أول الأمر امام اختيار صعب فقد قال لى اما ان تكونى زوجة لى أو زوجة للمصنع وقد اخترت فى النهاية أن اكون زوجة له ، وقبلت لذلك عملا صغيرا وأجرا صغيرا من أجل الأسرة ... وقد اكتشفت معه أخيرا اننا حققنا بالدخل الصغير نسبيا سعادة أكبر ... الا اننى ارى ان المرأة لابد لها ـ مع رعاية الاسرة ـ ان تعمل ، فهى بعيدا عن العمل ستعيش معزولة عن المجتمع ، وواجبها ان تكون وهى فى مجتمعها الصغير فى البيت على صلة قوية باحوال مجتمعها الكبير ، وفى خدمته أيضا بقدر ما تستطيع من طريق اداء أى عمل فيه .. »

لقد عدت من لقاءاتى وأحاديثى مع هذه الأسرة الالمانية المسيحية الماركسية السعيدة بانطباعات كثيرة وحسنة ، لقد أعجبنى اكثر من أى شىء آخر هذا الوئام بين الدين والماركسية فى وحدة صغيرة من وحدات المجتمع النشط فى المانيا الديمقراطية . وتذكرت أن أهم تقدم ينبغى على العالم أن يحرزه هو سحق روح التعصب والتهجم والعدوان على الآخرين ... سحق الروح الفاشية المتعصبة فى كل مجال ... ان السلام هو أعظم أهداف البشر ... ومن السلام التعايش حتى بين الاضداد ما لم تكن هناك اثارة ... وفى بلادنا لا تزال توجد ظاهرة تهز كل مناهج التربية الدينية على قواعد الوحدة الانسانية والسلام وخدمة المجتمع . ظاهرة يشجعها الاستعمار وهى هذه المساجلات الدينية « التى انتشرت حول بعض الخلافات المحسومة ... » فان بعضا من المؤلفين تصيبهم فجأة حالات الاهتمام غير العادى بقضايا فرغ كل دين من تسجيل رأيه فيها ، فتنشر الكتب من طرف فى اتجاه الطرف الآخر ، بينما ينسى الطرف الذى يعلم ان يتعلم ، ينسى حاجته الى تصحيح الكثير من مفاهيم بعض فئاته حتى تنطبق على الايمان الصحيح ... ونحن اذا كنا نملك الأسف من أجل توفير الجهد لمواجهة أولئك الذين يعتدون علينا بالفعل من الساسة الامريكان والعسكريين الاسرائيليين ، فنحن نملك ايضا الأمل

القوى من أجل وحدة ابناء هذا الوطن العربى فى مصر ، وفى ارجاء الوطن الكبير ... مسلمين ومسيحيين ...

انه مهما كان الطريق طويلا والعبء ثقيلا والافق مكفهرا ... فان لنا ولابنائنا الفجر الجديد ... لنا الفجر الجديد فى الوطن العربى ... وللمكافحين معنا لروح العدوان الامريكى الغربى والصهيونى الفاشى فى آسيا وافريقية ... انه لنا هذا الفجر الجديد بالايمان والعلم ، وبالعدل والعمل ، وبالدين والاشتراكية ... ان لنا هذا الفجر الجديد الذى يشرق على أمتنا من آفاقها المقدسة ، وكتبها المقدسة ، وغاياتها المقدسة ، مهما كانت نغمة الايمان غريبة فى سمع العالم المعاصر ... ان كلمة الايمان تتردد فى أفواه الملايين ممن ينتظرون المعجزات والعجائب! ونحن علينا أن لا ننتظر شيئا يأتى من بعيد ، أو ينزل من فوق . ان آيات الايمان يجب ان نصنعها نحن بمشيئة الله وجهادنا الى الله ... يجب أن نصنعها فى كل مواقع العمل ، وفى كل ساعات الجهاد ، وفى كل جبهات القتال ... آيات كالتى صنعها البسطاء الأولون من غير اعلان ، ومن غير مقابل ، الا الايمان بالله ، والتصديق بالاهداف العظمى للانسان ... عند ذلك سيصدقنا المجدفون اذا قلنا لهم ان هناك جنة للمؤمنين على الأرض ، وأخرى لهم فى السماء ... وسيصدقنا المفلسون اذا قلنا لهم ان ايمانكم سيمنحكم كل كنوز هذه الأرض التى تعيشون عليها فى مقابل الاغلال التى تعدها الصهيونية لكم ، ويعدها الاستعمار لاجيالكم .. !

انهم فى أوروبا يرفعون فى هذه الأيام شعارا بسيطا جدا له مغزى عظيم وهو « اشربوا كثيرا من اللبن تصحوا » ... وعلينا ان نرفع فى بلادنا هذا الشعار نفسه ، وشعارا موازيا له هو « تعلموا كثيرا من الايمان تنتصروا » ... وهذا هو الاساس الموضوعى لمناهج التربية الدينية كما ينبغى ان تمتد بآثارها فى الحركة الذاتية والتنظيمية للشعب والدولة ... فى حركة وحياة الاسرة والمدرسة ... فى نشاط واهتمامات الاباء والمعلمين ... هذا هو الأساس لمناهج التربية الدينية فى جوهرها

من علم الايمان ــ بعيدا عن ايمان العجائز ــ كما ينبغى ان تكــون لابنائنا وبناتنا ... لاجيالنا بامتداد الزمن ... ولكل طلائع الشعوب الانسانية غير العدوانية فى آسية وأفريقية ... الذين لهم معنا ... فجر العصر الجديد ... !



الجهاد وعقيدة القتال فى الإسلام

« أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا
وان الله على نصرهم لقدير . الذين
اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن
يقولوا ربنا الله »

« قرآن كريم »

١ — عقيدة القتال فى الشرائع الكبرى

يجمع الله عقيدة القتال وشرعيته فى الشرائع الكبرى والكتب الثلاثة فى قوله تعالى :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن » .

فى هذه الآية نص صريح على شرعية القتال وان عقيدته هى انه « فى سبيل الله » وان هذا يشمل حكم الدين فى الاسلام والمسيحية واليهودية.

وسبيل الله معناها « العقيدة والوطن » فالقتال فى سبيل الله معناه القتال من أجل أمن المؤمنين ليقيموا عقيدتهم على وطنهم ، دون عدوان منهم أو عليهم .

ولكن التوراة الموضوعة وهى تأخذ بمبدأ القتال تنحرف به عن سبيل الله ، وتجعله عدوانا وتدميرا وسفكا للدماء فى سبيل أطماع اليهود لتحقيق السلطة بالأموال ، واغتصاب الأموال بالسلطة .

وفى ذلك تقول التوراة المحرفة : « الموت لجميع الناس والحياة لاسرائيل » .

وفيها أيضا : « لا تقطع لهم عهدا ، ولا تشفق عليهم » .

وفى الدعوة المسيحية لم تكن تجربة القتال متاحة فقد جاءت لتقويم اليهود واتجهت لاصلاح فساد عقائدهم ، وزجرهم عن البغى والعدوان، ومن ذلك ما قيل على لسان المسيح فى الأناجيل ...

« من ضربك على خدك الأيمن فادر له الأيسر » ، وعلى لسانه أيضا: « أحبوا أعداءكم ، واستغفروا للاعنيكم » .

٢ — العقائد القتالية المعاصرة فى أهم الشرائع

ا ـ الجماعات اليهودية منذ تفرقت فى الأرض تعمل بوحى التوراة الموضوعة على تدبير العدوان فى كل مكان تحل فيه ، وهى تدبره وراء المال والسلطة وهى تسير فى ذلك وراء الاله لها صنعته من أهدافها وخاصا بها هو « يهوه » أو « يهوذا » ، وسواء أعلن اليهود حربهم على الأمم « الجوييم » أو جعلوها سرا فان عقيدة قتالهم هى « تسخير الحيوان الانسانى لصالح اسرائيل » فهم فىحرب دائمة مع الجنس البشرى، حرب مخربة ليس لها حد ، وليس لهارادع من أنفسهمويقول الله عنهم : «كلما أوقدوا نارا للحرب اطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فسادا » . ويقول : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

ب ـ واما بين الشعوب المسيحية فقد اتجهت الغالبية منها فى أوروبا وأمريكا الى معتقدات موضوعة لا تمت الى أصول دعوة المسيح بسبب. وجذور هذه المعتقدات فى الماضى هى الوثنية الاغريقية الرومانية ومنذ العصور الوسطى تدخلت الغواية اليهودية وايحاؤها الخفى فى كثير من الفلسفات والقصص والجمعيات السرية وشركات الاحتكار وخطط الساسة التى اتفقت فيها جميعا وجهة اليهود والاستعمار نحو السيطرة على العالم لافساد معتقداته ونهب أمواله ..

وكانت عقيدة القتال للشعوب المسيحية الأوربية الموجهة ضدشعوب آسيا وافريقيا هى « حق الرجل الأبيض فى خيرات الملونين » .

وقد كان لليهود أعظم الأثر فى توجيه روح القتال والعدوان فىأوروبا ضد المسلمين حيث تحركت الجيوش الصليبية لغزو الأرض العربية واحتلال القدس خلال ٢٠٠ سنة ثم بدأت عقيدة القتال تتجه الى الموارد مباشرة تحت شعار « وصاية الاستعمار على الشعوب الأقل مدنية » ..

واما وظيفة البابا أو نائب المسيح فى أوروبا فلم تعد الا القاء التصريحات التى لا جدوى وراءها ومنح بركات يديه فى الهواء لاعداء السلام ..

جـ ـ واما الشعوب الاسلامية فقد بدأت تتلقى فى أعقاب الحروب الصليبية صدمة العدوان الأوربى الموجه الى أن فقدت حريتها واستقلالها ومواردها وتعرضت مقوماتها من اللغة والدين ومناهج التعليم للتحريف والتشويه والتجميد حتى خيم عليها ظلام دامس وأوشكت على الفناء ، لولا بزوغ عصر الشعوب من جديد حيث تقدم العلم واندلعت الحركات القومية فى كل مكان فهبت تطالب بتحرير ارادتها وبسلطاتها الكاملة على مواردها .

وفى الوطن العربى بدأت اليقظة القومية فى أوائل القرن العشرين ، وكانت عقيدة القتال هى « حرية الوطن » أولا فلما تفجرت ثورة ٢٣ يوليو فى مصر أخذت عقيدة القتال وجهة التكامل فى تحرير الوطن وتحرير المواطن ، أى على أساس تحرير الوطن وتحرير عقيدة المواطن الذى تحققت له الحرية السياسية والحرية الاجتماعية .

* * *

٣ — جذور عقيدة القتال فى التاريخ الدينى

هذه المقدمات كلها عن أصول عقيدة القتال فى الاسلام توجهنا الى البحث فى التاريخ الدينى عن البذور الأولى لهذه العقيدة وحيث انوطننا هو مهد الرسالات الالاهية فان تاريخ هذا الوطن والمحرك الأعظم لاحداثه هو الدين . بل أن وطننا نقل موجات هذا التأثير الى العالم الخارجى بحيث أصبحت كل أحداث المجتمع البشرى القديم والمعاصر تتحرك فى اطار دينى وبمؤثرات دينية ظاهرة أو مستترة وان اختلفت التسميات ، فالمعتقدات اليهودية التى هى تشويه للشريعة ومعارضة لله تحرك اليوم معظم السياسة الأمريكية والأوربية والرأسمالية الغربية التى ترتدى على حضارتها وسياستها واستعمارها الجديد رداء الديانة المسيحية ...

والماركسية فى الشرق تؤكد الدين وهى تقف موقفا معارضا له وفى نفس الوقت فان لب النظرية الاجتماعية للماركسية يقوم على تفسير مادى لعبارة شهيرة فى الانجيل هى « لن يدخل ملكوت السماوات غنى » .

واذا مددنا الطرف الى بضعة آلاف من السنين قبل الميلاد وجدناعلى ضفاف النيل والفرات — مطمع اليهود الحالى — قصص الملوك والمجتمعات وحركة الحياة والعمارة تدور كلها حول الدين .

وتقودنا الرحلة من نصوص القرآن الكريم الى أول قتال نشبعلى وجه الأرض بين الأخوين من ابناء آدم على عقيدتهما الدينية .
يقول الله :

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لا قتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك ، انى أخاف الله رب العالمين » .

تتضمن هذه القصة تصورا كاملا لحياة الانسان من وجهة النظر الدينية فهى تعرض الحياة كاملة الأبعاد والجوانب على انها تسابق بالجهد البشرى فى اتجاه الله والقربى اليه . والتنافس فى هذه القصة هو بين أخوين أحدهما مؤمن بار والآخر فاجر ، كشف « عمله» « حقيقة ما فى قلبه من البعد عن الله » .

فى هذه القصة نجد « القربان » وهو دلالة الشكر لله ، انه فى موضوعه ثمرة عقيدة ، ولكنه فى شكله ومادته هو ثمرة عمل ، اى انه نتيجة لعمل الانسان فى موارد الطبيعة التى انعم بها الله ، وهو بهذا يصور مع العمل الموارد ، أى يصور قاعدة العمل وهي دار الاقامة أو الوطن .

وتلخيص القصة اذن هو أن الصدام بين الأخوين كان محوره الخلاف على العقيدة والوطن ، وان أحد الأخوين اراد أن يحقق الأمن لنفسه بان يزيح عن الأرض من يعتقد ان له عقيدة مقبولة غير عقيدته ، وان الأخ الآخر أراد ايضا ان يحقق الأمن لنفسه عند الله الذى آمن به فرفض ان يقتله وهو قادر عليه .

والقصة وهى توضح أسباب القتال وتردها الى أصولها « العقيدة والوطن » تضرب مثالا متساميا اذا حققه الأفراد فان الجماعات لا تحققه بل هى تقاتل عن العقيدة والوطن دون هوى أو عدوان ، لأنه بهذا القتال يظل لواء الحق مرفوعا ، وكلمة الله هى العليا فى حياة المؤمنين به وعلى أوطانهم الآمنة .

وقد أورد القرآن الكريم دلالة هذا الحادث فى حكمة التشريع الآتية حيث يقول الله تعقيبا على القصة :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » ...

واذا انتقلنا على خريطة التاريخ الزمنية الى العصر الذى تحرك فيه

العبرانيون على سطح الأحداث فى وطننا العربى فاننا نصل الى ٢٠ قرنا قبل الميلاد حيث شاء الله أن يهاجر ابراهيم من العراق فى اتجاه فلسطين والحجاز ...

فى تلك الأيام عبر عدد من العبرانيين الاردن فارين من العراق الى فلسطين . وفى نحو ١٧١٥ دخل يوسف ومن بعده أبناء يعقوب «اسرائيل» مصر واصبح يوسف وزيرا لاحد ملوك الهكسوس بها .

وقد تزايد عدد العبرانيين فى مصر واجتمع حولهم عدد من العشائر السامية والاسيوية الأخرى .

وفى سنة ١٥٨٠ رحل الهكسوس على أثر حرب التحرير التى قادها أحمس ضدهم ولكنه لم يتعرض لبنى اسرائيل .

وفى نحو ١٤٩٠ ظهر موسى فى عهد الملوك المصريين رمسيس ومنفتاح ولم يكن المصريون يريدون اخـراج العبرانيين من بنى اسرائيل لأنهم عدوهم مواطنين معهم ما داموا خاضعين لقوانين البلاد ، فالوطن العربى مفتوح لكل أبنائه . ولكن موسى أراد الخروج تحقيقا لأمر الله . أما بنو اسرائيل فأكثرهم أراد الخروج معه تحقيقا لنزعات الاغتصاب والعدوان.

اننا نستنتج من سير الأحداث ان المصريين أصروا على طرد الهكسوس الذين عدوهم أجانب عنهم ، وسمحوا فى نفس الوقت باقامة الاسرائيليين والعبرانيين كما تسمح مصر اليوم باقامة القبائل البدوية فى أى ناحية من نواحى الوطن .. ولكن الغالبية ممن اتبعوا موسى لم يتبعوه ايمانا خالصا بدين ابراهيم بل نزوعا الى التخريب والعدوان والاغتصاب المركب فى طبائعهم ، وهكذا فانهم لم يكادوا يغادرون مصر حتى صنعوا لهم الاها ذهبيا وعبدوه ..

ان هذه المرحلة القديمة من التاريخ تصور لنا المثال لما يصنعه اليهود اليوم بعد أن امنوا فى حياتهم وعلى اموالهم فى شتى الأقاليم العربية ، ولكنهم أبوا عندما واتتهم القوة والتدبير الا أن يغتصبوا ما يظنون انهم قادرون عليه من أرض العرب ..

٤ - مفهوم الجهاد والقتال فى الاسلام

الجهاد قسمان :

جهاد النفس . ثم جهاد بالنفس والمال .

ا - جهاد النفس هو مرحلة النضال الداخلى من أجل استقرار العقيدة ، وسيطرة ارادة الايمان على فكر الانسان وافعاله .

وهذا الجهاد هو معركة حقيقية يقودها القلب المؤمن ضد نزعات نفسه التى تهيجها وتفسدها رهبة السلطان أو فتنة الحياة واغراء متاعها القريب .

وجهاد النفس يعتمد أساسا على تقوية الجانب السلمى من الارادة أى على تقوية ارادة الرفض والمقاومة والامتناع ، وهو الجانب الذى لا بد من وضوحه فى حياة المؤمن حتى يبرز الجانب الايجابى فى حياته وهو جانب الموافقة والاقبال والتنفيذ ، فعلى المؤمن أن يقول « لا » لكل الطرق الملتوية ، والأهداف العدوانية ، والآلهة الكاذبة ، والمتع الشاذة وبذلك يستطيع تلقائيا أن يقول « نعم » للطريق المستقيم ، وللمبادرات البناءة ، وللطيبات من الرزق ، ولمشاعر الانسانية والبر ، طاعة لله الواحد الحق والتزاما بشريعته ... « فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » .

بهذا الجهاد يسقط الظلم فى المجتمع ، ويختفى الاستغلال والكسب المحرم ، والترف المهلك ، ويذوب الكبر والاستعلاء فى الأرض ، وبالتالى تتحرر كل القوى والطاقات فى المجتمع المؤمن لبناء هذا المجتمع بالعدل والعمل والدفاع عنه وعن عقيدته بالمال والنفس .

ب - الجهاد بالأموال والأنفس :

وعندما يصبح المؤمن فى مجتمع المؤمنين الاحرار فهو عند ذلك يدخل

بقوة ايمانه وعقيدته شريكا مع جميع المؤمنين فى بناء هذا المجتمع وحمايته .

وحماية هذا المجتمع تعنى العقيدة والوطن ، لأن الوطن هو قاعدة العمل ، والعقيدة هى قوة التوجيه للعمل بما فيه حياة المجتمع كله ونماؤه على أساس من الأمن النفسى والأمن السياسى والامن الاجتماعى أى على أساس الحرية السياسية والحرية الاجتماعية كما تنادى بذلك ثورتنا العربية المعاصرة ، حتى لا يكون على أرض الوطن ظل للسيادة الأجنبية من الخارج أو للنظام الطبقى من الداخل ..

يقول الله فى معانى الجهاد : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » أى ان الله يهدى المجاهد فيه سبل النصر دائما ويقول الله : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه وان الله لغنى عن العالمين » أى ان بناء المجتمع السليم ومحاربة العقيدة المضادة للمجتمع فى الداخل والخارج هما مسئولية الفرد المؤمن لأن هذا الجهاد هو فى صلاح أمره ، أو مشاركة منه فى قضية ترجع مكاسبها اليه ، والى الأجيال من بعده ..

جـ ـ مفهوم القتال هو بذل النفس وهو أقصى ما يجود به المؤمن دفاعا عن عقيدته ووطنه .

يقول الله : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » ، فالقتال عبء على النفس والانسان لا يقدم عليه الا كارها ، ولكنه يخف ويهون بالايمان ، بل يصبح نشوة وتساميا وشوقا ، ذلك لأن المؤمن الصادق يرى بحق أن رضوان نفسه فى رضوان الله ، وان أى عمل يقربه الى الله فهو أحب الى نفسه . وبذلك فانه فى سبيل الله يتخطى حدود الزمان والمكان ، فتختفى رهبة الموت فى حمية القتال وتظهر للمؤمن المقاتل حياة جديدة أبهى وأعظم يطلبها وراء الموت نفسه وهذه هى القوة الخارقة التى يتضاعف بها عدد المؤمنين فى أعين أعدائهم وفى حقيقة جهدهم .. وفى تدرج حمية القتال فى قلوب المؤمنين يقول الله : « فلما

كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس » ، ويقول : « وقالوا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب » . أى حتى تتأهب ..

ولذلك يقول الله للنبى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال».

فهذه صورة فى فجر الدعوة الاسلامية للتعبئة النفسية للمقاتلين وما نسميه اليوم بالتوجيه المعنوى . ويقول الله :« ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » ، ذلك لأنه لا بقاء لاحدى الطائفتين مع الأخرى باختلاف العقائد فاما مجتمع الايمان والعدل أو مجتمع الشرك والجاهليـــة . ويقول الله : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » ، أى لابد من قتالهم دفاعا عن وجودكم ، ويقول الله بعد أن تقوى المؤمنون بالممارسة والثبات الحق: «فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا» ، أى لاتخشوهم فانما تقاتلونهم بذنوبهم وان شعاراتهم الكاذبة ستسقط فى أيديكم .. ويقول الله : « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » . أى لابد من الوحدة والحشد لجميع القوى امام تحالف الاعداء وحشودهم .

ثم يضع الله امام المؤمنين مسئولية تطهير الأرض العربية من أعداء الله وأعدائهم فيقول : « قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . أى حتى لا تسود أرضكم الا عقيدة واحدة تحققون بها الامن والعدل والرخاء بينكم .

* * *

٥ — درجات القتال

يبدأ القتال فى تاريخ الدعوة الاسلامية بجهاد النفس . فقبل الهجرة صبر المؤمنون على معارضيهم ورفضوا فى السر والعلن ان يتزحزحوا عن ايمانهم . لقد استطاعوا أن يقولوا « لا » للكفار ، وأن يصمدوا ويتكاثروا حتى كانت الهجرة وبدأت نواة المجتمع الاسلامى فى المدينة حيث تحددت مشروعية القتال دفاعا عن العقيدة والوطن .. ففى المدينة بدأ الاذن بالقتال لأن المؤمنين أوذوا فى عقيدتهم واخرجوا من وطنهم.

ويقول الله :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » .

وقد تحدد الأمر والاذن بالقتال على النهج الذى أوردته الآية عن شريعة القتال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . أى ان القتال للمعتدين فقط دون اسراف عليهم. ثم يعد الله المؤمنين بالفتح الذى يحرر به ارادتهم ، ويجعل لعقيدتهم الكلمة العليا على وطنهم ، وهنا يأمرهم باعلان المشركين بالقتال حتى يؤمنوا ، وتتحقق وحدة المجتمع والشعب العربى على أرض الدعوة .

وفى هذا يقول الله :

« ان الله برىء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب اليم ، الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا

لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » .

فالقتال هنا قد بلغ حده بالنصر للمؤمنين ، أو وجوب التوبة على المشركين لأنهم جميعا « أهل البيت» الذين يدينون بدين ابراهيم ، وقد أحدثوا فيه الشرك والبغى والربا ، ولانوا لغواية اليهود حتى كادت الفتنة ان تقضى عليهم ، وامتلأ بيت الله بالأصنام ، فكان لا بد من أخذهم على احدى الطريقتين : الاسلام أو القتال .. ولم يبق بعد ذلك فى مسيرة الدعوة الاسلامية الا صورتان من صور القتال :

الأولى : قتال الطائفة التى تبغى من المؤمنين على طائفة أخرى حتى تفىء لأمر الله ، وفى هذا يقول الله : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » .

والقتال الآخر — هو قتال الاعداء من الروم والفرس الذين استباحوا الوطن العربى خارج الجزيرة العربية ، وقد استمد من قاتلوهم من خلفاء رسول الله ذات العقيدة القتالية التى أمر الله بها ، وهى القتال عن العقيدة والوطن دون عدوان أو حيف .

وكان الشعار المرفوع على هذه المعارك الفاصلة « الاسلام أو الجزية أو الحرب » وذلك مع ايثار السلم اذا استسلموا وخرجوا من أرض العرب : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

* * *

٦ — العدو الذى نقاتله

من هو العدو الاسرائيلى الذى نقاتله اليوم على أرضنا ؟

فى نحو ٢٥٠٠ ق .م نزحت من شرقى الجزيرة العربية قبائل تحركت فى اتجاه الساحل الشرقى للبحر الابيض فسكن بعضهم امام جبل لبنان وقد سماهم اليونان بالفينيقيين ، وسكن البعض الآخر الى الجنوب منهم فى فلسطين واسمهم العربى الكنعانيون .. فالكنعانيون العرب ومعهم مهاجرون من جزر البحر الأبيض هم السكان القدماء لفلسطين ..

وفى ٢٠٠٠ ق.م خرج ابراهيم من العراق وهو من قبيلة كلدة العراقية المستقرة فى أور ، واتجه الى أرض كنعان ، وتحرك ايضا فى اتجاه الحجاز حيث أقام مع ولده اسماعيل قواعد بيت الله من جديد ..

وفى نحو ١٧١٥ كان يوسف وزيرا فى مصر لاحد ملوك الهكسوس.

وفى نحو ١٧٠٨ كانت المجاعة الشهيرة ، ودخل يعقوب وابناؤه مصر ومن بينهم يهوذا الذى تسمى اليهود باسمه ..

وفى ١٥٨٠ طرد أحمس الهكسوس وترك اليهود ولم يتعرض لهم ـ كما ذكرنا قبل ـ ولكن اليهود اساءوا كعادتهم مقابلة هذه المعاملة الطيبة فعكفوا على اثارة الفتن وجمع الاموال بالغش حتى لقد ظهر بينهم من الأثرياء الأسطوريين أمثال قارون أو روتشيلد العصور القديمة ، وظهر بينهم التمرد ..

ثم شاء الله ان يدعو موسى لاخراج بنى اسرائيل من مصر لتقويمهم أو ليمنحهم فرصة اختيار طريق ابراهيم مرة أخرى وكان لا يزال فى ظهورهم من الرسل والأنبياء من سيقومون بدعوتهم خلال مراحل قصتهم الدامية حتى تنتهى فيهم الكلمة ، وترتفع عنهم الرحمة ، ويحل

عليهم غضب الله ، وتمزقهم لعنته .. لقد كان لا يزال فى قدر دعوتهم بقية من الزمان والاحداث !

ولقد أخطأ من اشاروا على فرعون بابقاء اليهود فى مصر وانتصرت مشيئة الله فخرجوا الى قدرهم وقدر العالم معهم وراء موسى ... أليس الله هو القائل : « ثم جئت على قدر يا موسى » .

وخلال معارك دامية ومذابح وحشية سارت هذه الكباش المذعورة من مصر تضرب بقرونها فى كل اتجاه وقد أعماهم الحقد والبطروالغرور حتى اذا كان عام ١١٠٠ ق.م كان اليهودقد اغتصبوا البقاع الجبلية من أرض كنعان ونصبوا عليهم شاول ملكا ، وتبعه داود الذى بنى له بيتا حصينا على جبل صهيون ، ثم سليمان الذى شاد الهيكل على جبل القدس ووسع ملكه من الشمال والجنوب .. ولكن ظل الساحل فى يد الفلسطينيين فى الجنوب وبقى الكنعانيون « الفينيقيون » فى الشمال..

لقد أقام اليهود فى فلسطين بقوة العدوان ، واستخدام الدسائس والأموال ، والزلفى . وأقام الرومان مثلهم ومعهم احيانا على هذهالارض وهم بين الذين ضربوهم عليها ضربات قاصمة . الا انهم قد عاشوا جميعا اجساما غريبة داخل الوطن العربى ، الذى لم يتوقف عن التململ بهم حتى لفظ سلطانهم بالفتح الاسلامى ..

وفى خلال الفترة التى اغتصب فيها اليهود أرض فلسطين تعرضوا بسبب طبيعة التمرد المتأصلة فيهم ، واستعصائهم على الاندماجوالعمران المستقر لكثير من الضربات التى سلطها الله عليهم حتى تم خروجهم . نذكر أشهرها فى ٧٢١ ق.م عندما ضرب سرجون الثانى ملك آشور مدنهم . وفى ٥٧٦ وقع نفى الكثيرين منهم الى بابل على يد نبوخذ ناصر البابلى .

وفى ٧٠ م أحرق الرومان أورشليم بقيادة تيطس بن فسباسيا قائد نيرون وذلك اثر ثورة لهم فى الاسكندرية ارتكبوا فيها كثيرا من الفظائع ضد اليونانيين .

٧ — صور من عدوانهم بالوطن العربى

بعد ١٢٠٠ سنة من حوادث التخريب فى المناطق المجاورة اقتلع الله بنى اسرائيل من جذورهم ، واجلاهم عن الارض العربية التى خضبوها بدماء الأنبياء والابرار والأبرياء .

وقد نزح فريق منهم الى شمال افريقية واسبانيا والمانيا وسائر البلاد الاوربية وفريق آخر اتجه الى داخل الوطن العربى لتستقر جماعات منهم فى تدمر وفى الحجاز وفى يثرب وخيبر ووادى القرى وتبوك وتيماء وفى اليمن ، فى هـذه المناطق كلها بدأت خمائر العـدوان وخطط الاثارة والاغتصاب وجمع الأموال والتجارة فى كل ما من شأنه ان يقضى على وحدة وطهارة المجتمعات التى عاشوا وسطها أو قريبا منها .. وهـذه صور من عدوانهم داخل الوطن العربى منذ خروجهم :

(ا) نشروا اليهودية فى اليمن وعندما اعتنقها الملك اليمنى ذونواس حرضوه على المسيحيين بها فجمعهم وحفر لهم اخدودا واحرقهم فيه . وفى القرآن الكريم « قتل أصحاب الاخدود .. »

(ب) وعندما انتقم الرومان من اليمنيين فارسلوا اليهم القائد الحبشى ارياط كان اليهود بعد مقتله على يد ابرهة وراء تحريضه على هدم الكعبة التى حاول هدمها عام الفيـل باتفاق مع الروم البيزنطيين .

(جـ) كان اليهود هم المخططون للثورة المضادة للدعـوة الاسلامية ، وكانوا الحركة الدائبة بالدعاية والوشاية والأموال لاجهـاض الدعوة الجديدة وقتل الرسول وأصحابه ..

(د) كانوا مع الفرس فى كل مخططاتهم لاسقاط الحكم العربى على

العالم الاسلامى ، وكانوا وراء كل الحركات الهدامة بالفكر والتآمر ودعاوى الانحلال التى أعقبها سقوط الدولة الاسلامية فى أيدى السلاجقة ثم الاتراك العثمانيين .

(هـ) كانوا وراء التحريض على الحروب الصليبية ضد العرب والمسلمين ليعودوا فى موجات هذا العدوان الى مراكز السلطة فوق الارض العربية .

(و) وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التى لقيها اليهود فى معايشتهم للمسلمين بالاندلس حتى لتعد أيامهم بها هى عصرهم الذهبى الوسيط فانهم كانوا أقوى العوامل على تفكك الحكم العربى والاسلامى بها ، حتى انتهى الأمر الى وقوعها فى أيدى الافرنج بعد ثمانية قرون تعد من أزهى عصور الحضارة .

(ز) بعد سقوط الاندلس بدأ بعض اليهود الذين لم يخرجوا منها فوضعوا أنفسهم ومعلوماتهم عن البحرية الاسلامية فى أيدى ملوك أسبانيا والبرتغال وبذلك مهدوا للكشوف البحرية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، التى أوحت بحركة الالتفاف حول العالم الاسلامى لغزوه من ظهره بعد ان عجزت الحروب الصليبية أن تغزوه فى مواجهته . وهكذا وضع اليهود فى أيدى أوروبا الوسائل والوثائق والمعلومات التى مكنتها تحت رايات الاستعمار من الغزو البحرى لشواطىء العالم الاسلامى والهند والشرق الاقصى ونهب ثروات هذه البلاد .

(ح) بعد الغنى الذى حققته أوروبا فى مغامراتها الاستعمارية بدأت الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر والثورة العالمية والقومية فى القرن التاسع عشر واتيحت لليهود فى أوروبا بعد أن تسربوا الى قيادة الفكر الأوربى وخصوصا من معقلهم فى المانيا حيث نشأ جوته وسبينوزا وهيجل وماركس وسيجموند فرويد ـ

فرصة التمكن من الثروات الاوربية نفسها ، ومن أجهزة الرأى والاعلام ومن مؤسسات السياسة والسلطة ، وهكذا فى صورة هذه السلطة وبعد أن انتهت وسقطت كل قيودالاذلال عن اليهود بين سنة ١٧٩٠ و ١٨٩٠ بدأت الاحلام الصهيونية تتجسد فى فكرة العودة الى أرض فلسطين ليس بقصد العبادة ، ولا ايثارا للقربى الى الله ، ولا حبا فى يهوه وصهيون ، وانما طمعا فى العودة لغزو العالم والسيطرة على كل سكانه وأمواله من مركز قوة يكون لهم فى أرض العرب بفلسطين .

(ط) بدأ الاعداد العملى لهذه الجريمة الكبرى ضد العرب بصفة عامة وضد شعب فلسطين بصفة خاصة بذلك النداء الذى وجهه الامبراطور الاهوج نابليون سنة ١٧٩٩ الى جميع اليهود فى آسيا وافريقية لينضموا تحت لوائه فيرد لهم المجد الضائع فى أرض فلسطين !

وبعد مؤتمرات سرية وعلنية واجه العرب سنة ١٩٤٨ اعنف صدمة لهم بانشاء دولة على أرضهم اسمها اسرائيل ، وهم لم يفيقوا بعد من دوار الاستعمار التركى الطويل ، ومن اغلال ومناورات وضربات الاستعمار الفرنسى والانجليزى .

(ى) هذه الدويلة التى ولدت بغتة فى جو يملأه دخان الحرائق وصراخ القتلى والجرحى من نساء العرب وأطفالهم لم تلبث أن تهيأت لها بحلفها مع أمريكا والمانيا الغربية فرصة التمرد ومتابعة العدوان وراء حلم كبير ورهيب لم يترددوا فى اعلانه وهو «من النيل الى الفرات » فكان عدوان ١٩٥٦ وعدوان ١٩٦٧ .

لقد اختار حكماء صهيون انسب الأوقات لتوجيه هذه الضربة الى العرب وهم فى حسابهم ممزقون بجراح الاستعمار الطويل ، قد فرغت ذاكرتهم كما توهموا من حقائق التراث ، وخلت أرضهم من الموارد ، والجماهير المترامية الاطراف الوفيرة الاعداد تتخبط فى الأمية بابعادها

المتعددة فهى عاجزة عن ان تفرز قيادتها القادرة على صد العـدوان اليهودى ، ورده خاسرا على اعقابه .

هكذا ظنوا فجاءوا يرفعون شعارهم القديم : « ليمت كل الناس ويبقى اسرائيل وحده » .

ولكن خاب ظنهم لأن الجماهير العربية ولدت فكرتها للمقاومـة وافرزت قيادتها للصمود والنصر بنجاح الثورة العربية فى مصر واتجاه الشـعب العربى فى كل مكان الى مساندة هذه الثورة والايمـان بقيادتها .



٨ — الانتماء اليهودى

يقول المسيح لليهود « لو كنتم ابناء ابراهيم لكنتم تعملون اعمال ابراهيم » ولقد ذكرنا قبل أن اليهود منذ كانوا فى مصر وهربوا منها هرب معهم عدد من العشائر الاسيوية التى دخلت مع الهكسوس فى تلك الفترة . ومنذ أيام اسرائيل الذى هو يعقوب كانت نسبة ١٠ : ١ من ابنائه مع العدوان والشيطان وكان الواحد وهو يوسف مع الله على دين ابراهيم ... اما بنيامين الثانى عشر فكان محايدا لا يعطى صوته !!

وقد بدأت تترسب فى اليهود كل عيوب الجنس البشرى وعقد الانسان ابن الارض المستغل والخاضع فى سبيل متاعه الشخصى وشهوة تعذيب الآخرين لكل القوى التى يراها والتى لا يراها .

وقد بدأ اليهود بالثورة على موسى فى رحلة الخروج وعبدوا آلهة مجسدة غير الله ، واسالوا الدماء على أرض فلسطين ، وعندما ضربهم آسروهم من الاشوريين والبابليين والرومان نقلوا عنهم أقبح ما كان فيهم من المعتقدات السرية والجهرية التى أباحت لهم تخريب العالم والتنكيل بكل ابنائه واطلاق صرخات النصر فوق أشلاء المهزومين .

وعندما بدا عهد الانتقام المسيحى من اليهود فى أوربا فى العصور الوسطى بسبب ما وقع منهم ضد المسيحيين فى اليمن ومصر وغيرها من البلاد الشرقية والغربية أخذ اليهود فى التخفى والدخول فى المسيحية واختلطت دماؤهم وأفكارهم حتى انقطعت — ما عدا الكتب المحرفة والعدوانية التى فى أيديهم — كل رابطة بالدم أو الفكر أو الوجدان بالأصول التى زعموا انهم ينتسبون اليها وهى الأصول العبرانية ودم اسرائيل نفسه .. وبالتالى فانهم غرباء بالدم وبالعقيدة وبالحق عن الأرض التى اغتصبوها فى زى بنى اسرائيل الذين عبروا بتاريخ الوطن

فى مرحلة من أشد المراحل غموضا واضطرابا وازدحاما بالفتن والمذابح والاحداث المتناقضة .. وعندما نعرض هـذه الاحداث التى يمارسها اليهود فى هذا العصر على منطق الاحداث السابقة التى جرت من بنى اسرائيل نجد ان الجماعات اليهودية اليوم لا تمثل الا هذه المنظمـة الاقتصادية العسكرية التى تدين بمجموعة التعاليم السرية الهدامة التى جمعها اليهود الأولون ، والتى ينتمى أكثر اعضائها الى الدماء الاوربية والشعوب الأوربية وقد نجحت هذه المؤسسة من خلال الممارسة الصارمة لتعاليمها فى أن تستحوذ على هذه السلطة الخفية على كل مؤسسات السلطة فى العالم الغربى وبذلك أتيح لها الظهور بلا خوف وهى ترتدى ثوب اسرائيل وتحمل فى يدها تفويضا ممهورا بتوقيع حلفائها لتقيم امبراطورية الشعب المختار على (الأرض) أرض العرب .

لقد استخدم اليهود الاوربيون أو الاوربيون المتهودون كل ذكائهم وأموالهم لاختلاق نبوءة عودتهم الى أرض الميعاد .

استغلوا الأدب الغربى والأدباء الغربيين واستخدموا الاعلان على نطاق واسع ، ولكن يقظة العرب أصحاب الحق والدين والأرض كفيلة بابطال هذا التدبير وايقاظ من يسمون انفسهم باسرائيل من غرور هذا الحلم الرهيب .

أن أرض فلسطين العربية تلفظ من عليها اليوم من المغتصبين . لقد عجزوا فى الماضى وهم أبناء اسرائيل أن يقيموا عليها رغم ارادة « أبناء عمهم » فكيف يستطيعون وهم العناصر السلافية والجرمانية التى تجدد علينا الحملة الصليبية تحت نجمة اسرائيل .. ان يذوبوا بيننا ، ويتمددوا فينا ويقضوا علينا ..

أما الاقليات الشرقية بينهم فلا تزال راغبة فى ان تستعيد حياتها الآمنة بين العرب فى مصر والعراق واليمن كما كان الأمر من قبل ، فاذا ما كان فى هؤلاء الغزاة الاوربيين ثمة دم باق من اسرائيل فلقد قال الله فى حكمه النافذ عليهم بقانون عملهم وفسادهم : —

« واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » . هذا اذا لم يقبلوا ما يعرضه عليهم شعب فلسطين من معايشة تحكمها دولة ديمقراطية لجميع الفلسطينيين .



٩ — أهداف العدوان الاسرائيلي

المال هو هدف اليهود المباشر ، وهو عندهم غاية فى حد ذاتهووسيلة فىنفس الوقت لتحقيق السلطة ، والسلطةهى بدورها وسيلة لجمع المال وما بين المال والسلطة تتحرك مخططات اليهود الرهيبة ، السرية والمعلنة يوما بعد يوم منذ مقررات مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ والمال والسلطة يتحققان فى المظهر الذى يرضى غرور هذه الجماعات « غليظة الرقبة » قتلة الأنبياء ومدبرى الفتن ، عندما يتم لهم ادراك الحلم الذى حلموا به فوق ثلوج أوروبا بامتلاك ملك أعظم من ملك سليمان يصلون اليه فى غفلة من ضعف العرب ، وفى سكرة من وعى الرأى العام الاوربى الغربى الأمريكى ..

ليس الدين أو التقوى أو تجفيف الدموع التى سالت على حائط المبكى هى أهداف الجماعات اليهودية الاوربية من غزوها للارض العربية .. انها مؤامرة الاستحواذ على شبكة الطرق الرئيسية برا وبحرا التى تتوسط العالم ، ونهب موارد الوطن العربى الضخمة ، ثم التحكم فى جميع دول الأرض وشعوبه والمناداة بأحد مديرى البنوك اليهود ملكا على كل العالم .. !

لقد بدأت حركة هذه الأهداف باثارة مستمرة لمخاوف أوروبا من يقظة العرب ، ومن قيام وحدة للامة العربية على أساس من عقيدتها وحبها للحرية .. وقد وردت هذه المخاوف فى التقرير الذى اعدته اللجنة المؤلفة بتوجيه من كاميل بترمان رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٠٧ وكانت هذه المخاوف التى اثارها اليهود هى مقدمة التحالف الوثيق بين الانجليز والصهيونية وكان هو التمهيد المبكر لوعد بلفور سنة ١٩١٧ .. ولليهود أهداف خاصة فى الوطن العربى ، فهم الى جانب أهدافهم الرئيسية يثقون من انهم قادرون فى حالة سقوط الأنظمة التقدمية العربية

باتتصاراتهم سيتمكنون من الاجهاز تماما على كل المقومات التى تكفل فى المستقبل القريب أو البعيد قيام أمة عربية ممتـدة من المحيط الى الخليج .. انهـم سيمزقون بقايا المفاهيم الدينية الصحيحة تمـاما ، وسيحتالون على تحريف القرآن ودفعه الى الظل. واما اللغة العربية فهم كفيلون بالقضاء عليها تماما بمجرد تنفيذهم لمشروع الحروف اللاتينية، وبذلك يصبح جميع العرب بغير ذاكرة وغرباء فى بلادهم ويتم ــ اذا استطاعوا ذلك ــ القضاء على الوجود العربى فى هذه المنطقـة بعد عشراف الألوف من السنين كان العرب خلالها هم الشهود الوحيدون لكل أحداث العالم القديم ..



١٠ — تواريخ تضىء الحقائق

وامام يقظة العرب المفاجئة تثور من اركان العالم الأربعة زوابع للتشكيك فى بعض الحقائق ، ولكن التسلسل التاريخى لبعض الاحداث يضىء هذه الحقائق ويؤكدها ..

من المحقق ان الصهيونية القديمة ظلت تحت الأرض ، وعبر الانفاق المظلمة الطويلة تعمل لذات الهدف المزدوج الذى أعلنت عنه الصهيونية الحديثة وهى ترفع رأسها من تحت ثلوج أوروبا فى القرن الماضى : « رفض الاندماج فى أى جماعة واقتناص الفرص لابتزاز كل جماعة » ولا بد لتدور هذه الطاحونة الاستغلالية دون انقطاع من ان تهب دائما على اسماع العالم رياح وأعاصير تحمل صراخ وانين اليهود من الاضطهاد الدينى ، الذى يحرضون الناس عليه دائما .. حتى يقع عليهم فيكون الصراخ ، وتكون الدعاية ، ويكون الابتزاز ..

انهم يرفضون الاندماج لأنهم يريدون العودة الى فلسطين ، أرض العرب ، وهم يريدون العودة لأنهم ملأوا تاريخهم بالبكاء الكاذب على تلك البلاد ، وعلى جبل صهيون الذى سبق لهم ارتكاب أقبح الجرائم على قمته ، ومن حوله .. فهم «الشعب المختار» وهذا كلام من المهم لهم ان يقولوه بالنسبة لمن يعيشون معهم من المسيحيين الاوربيين داخل جلدة كتاب واحد لهم فيه أعظم قسط وهو « الكتاب المقدس » .. !

انهم منذ النفى البابلى يقولون « وبكينا عندما تذكرنا صهيون » فهم يرفعون شعار العودة وان كانوا لا يعودون ... وهم يعودون اذا استطاعوا لكى يكون صهيون قاعدة انتشارهم مرة أخرى فى العالم كما يحلمون ... وهم اذا عادوا ظلموا وأفسدوا ، واذا ظلموا تعرضوا للقمع ... واذا تعرضوا للقمع من الشعوب المضطهدة بأعمالهم سموا

ذلك اضطهادا ... ثم يكون الصراخ ، وتكون الدعاية ، ويكون الابتزاز ... هذه هى طاحون الصهيونية منذ فجر التاريخ !

لذلك فلا صحة للقول بأن الصهيونية لم تكن تصر فى البداية على « فلسطين » بدلالة أن هرتزل زار مصر سنة ١٩٠٤ ليفاوض الانجليز فى تنفيذ مشروع الاستيطان فى شبه جزيرة سيناء ــ كأن سيناء ليست من أطماع اسرائيل ، وليست فى حدود مجاورة مع فلسطين ... ومعنى ذلك فى نظر من يزعمون هذا الزعم أن القضية لم تكن فى المحل الأول ايمانا بوعد الاهى ، أو ذات علاقة بتأويلات اليهود على هواهم ، ولاشك أن هذه سذاجة ، لأن اليهود ، والصهيونية بالذات ، ليسوا على أى قدر من الايمان بالدين الذى نزل على موسى ، ولذلك فهم شديدو الادعاء لهذا الايمان ، ويملكون كل الجرأة على اختلاق القصص الدينية التى تبرز أهدافهم الأساسية العدوانية «غير الدينية» التى هى موضوع ايمانهم الحقيقى ... وهم يفعلون ذلك بالطبع لأنهم غير مؤمنين بالدين !... ان معرفة الجذور الحقيقية لمشاعر وخطط وأهداف الصهيونية اليهودية منذ القدم ، كما يدل شعار « صهيون » هو شرط أساسى لصحة المواجهة العربية لهذه الخطط والاهداف العدوانية ، واكتشاف ظواهرها فى كل حركة ، أو كلمة من جانب العدو ..

التواريخ الآتية تؤكد أن فلسطين كانت هدفا مرسوما منذ أكثر من قرن من الزمان عندما ذهب هرتزل سنة ١٩٠٤ ليفاوض الانجليز عن سيناء ... ومنذ نحو قرنين من يومنا الحاضر !

١ — فى سنة ١٧٨٩* كانت البداية الرومانسية لبعث مشاعر قومية بين اليهود الاوربيين داخل الجيتو ، وذلك عندما بدأ موسى مندلسون فى تلك « الحوارى » حركة فكرية عرفت باسم

---

* من الابحاث المفيدة والنادرة فى مرحلة الاعداد للعدوان الصهيونى دراسة للعالم اللواء حسن البدرى لخصها فى محاضرته التى القاها فى رمضان سنة ١٣٨٩ هجرية بقاعة الشعب بمقر الاتحاد الاشتراكى .

« هاسكالا » او « التنوير » وهى من معنى قريب فى العربيـة من « الصقل » أى التثقيف .. وهدف هذه الحركة توجيـه اليهود للانفتاح على ثقافات العصر حتى يصبحوا أهلا — مع عزلتهم — للمساواة بمواطنيهم ، والاستعداد للحوار معهم عن أهدافهم . وهذه الحركة العقلية « العبرية » هى التى اتجهت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى « حركة قوميـة يهودية » تدعو الى احياء أمل « العودة الى صهيون » وتنمى حلم « الخلاص من الشتات » ... !

٢ — فى ١٧٩٩ وجه نابليون أمام عكا — طمعا فى الأموال اليهودية — نداء الى اليهود بالعودة لبناء القدس ... مما يدل على قيام اتصال مبكر — على أساس الصهيونية — بين اليهود والقـوى السياسية فى أوروبا ...

٣ — فى ١٨٢٧ قام موسى حاييم موتنفيورى المالى اليهودى الانجليزى بسلسلة من الزيارات الى فلسطين للاستكشاف حتى سنة ١٨٧٤ من أجل ربط اليهود بالأحلام الصهيونية للعودة !

٤ — فى سـنة ١٨٤٠ حاول اللورد موتنفيورى أن يتفـاوض مع الحـكومة الانجليزية (بالمرستون) من أجـل تنفيـذ خطة « الاستيطان » الزراعى « لليهود فى فلسطين » !!

٥ — اشترى موتيفيورى * أول مزرعة بفلسطين بجـوار يافا دخلها لفقراء اليهود . كان ذلك فى سنة ١٨٥٥ .

٦ — أصدر « الحلف المدرسى الدولى لمكافحة العـداء للسامية » وهو حركة نشأت بين رجال الدين المسيحى فى انجلترا للتعاطف مع الأمانى الصهيونية — كتابا عن رحلة القس آرثر بنرين ستانلى دكتور فى اللاهوت — والتى قام بها بأموال يهودية — بعنوان « تاريخ سيناء وفلسطين » . وقد كان هدف الرحلة

* كان الصهيونى مونتيفيورى قد حاول بعروض مغرية شراء جزء من فلسطين من محمد على فلم ينجح .

كما جاء فى الكتاب اكتشاف وتسجيل رحلة « الخروج » التى قام بها بنو اسرائيل « أكثر الشعوب على الأرض تميزا » !! أول طبعة من هذا الكتاب كانت سنة ١٨٥٦ .

٧ — فى سنة ١٨٦١ تم عقد مؤتمر صهيونى مبكر فى مدينة ثورن فى بروسيا دعا اليه الحاخام زفى كاليسكر ليشرح وجهات نظره فى ضرورة اعتماد اليهود على أنفسهم لتحقيق حلم العودة لفلسطين ... وكانت نتيجة المؤتمر وضوح المرحلة الأولى فى مخطط الاغتصاب من خلال انشاء « جمعية استعمار أرض اسرائيل » كما كانت نتيجة المؤتمر فيما بعد انشاء أول مدرسة زراعية فى فلسطين ..

٨ — فى سنة ١٨٦٢ ظهر كتاب الفيلسوف اليهودى موسى هيس وهو « رماد القدس » الذى هاجم فيه فكرة الاندماج ، ودعا الى تدعيم حياة الجماعات اليهودية باغتصاب أرض الشعب العربى ..

٩ — فى سنة ١٨٦٥ تم بناء على دعوة مؤتمر ثورن انشاء صندوق « اكتشاف فلسطين » فى بريطانيا . وقد تم بواسطة اعتماداته تزويد جمعيات « محبى صهيون » بما هم فى حاجة اليه من المعلومات عن فلسطين . ورسم الخرائط المفصلة التى استعادت الأسماء التاريخية الدينية فوق الأسماء المستحدثة ... وكان معظم العاملين فى هذا الصندوق من الضباط الانجليز ..

١٠ — فى ١٨٧٠ بدأت الحملة الصحفية للكاتب الصهيونى برتس سولنسكون لاذكاء حب صهيون ضد ما أسماه « العبودية الروحية » والفراغ الفكرى لحركة الاندماج ، كما كان له أعظم التأثير لانشاء جمعية « قديما » أو « الى الأمام » ، وهى أول جمعية تنادى بالقومية اليهودية قبل هرتزل ، وكان مقرها فينا..

١١ — فى ١٨٧٠ تم انشاء أول مدرسة زراعية فى فلسطين اسمها « مكفيا اسرائيل » .

١٢ — ١٨٧٨ بداية المحاولات لتنفيذ « الاستيطان الزراعى » اليهودى فى فلسطين ، ففى هذا العام حاول ياؤول موسى سالمون «يهودى من القدس » مع بعض اليهود المجريين المهاجرين انشاء مستعمرة زراعية على نهر الراكون باسم « بتاح تكفا » أى باب الأمل ...

١٣ — فى ١٨٨١ وقع اغتيال القيصر الروسى الكسندر الثانى فنشطت على أثره بعد اجراءات القمع ضد اليهود جمعيات « حب صهيون » تنادى بأفكار الشباب ضد الاندماج فى الأوطان التى يحملون جنسيتها ، ونشط جمع الأموال لاستيطان فلسطين ..

١٤ — فى ١٨٨٢ صدر أقوى نداء يهودى للدكتور ليون بنسكر أحد اليهود الروس فى كتابه « التحرر الذاتى » وفيه لعب باللغة الالمانية على مشاعر اليهود ، اذ يذكرهم بوقوعهم تحت « استغلال » الشعوب التى هم فيها ... وكان بنسكر أحد من ذهبوا لاستكشاف سيناء وفلسطين .. وفى هذا العام ــ كما نذكر ــ احتل الانجليز مصر ليعدوا لجريمة اسرائيل ... وقبلها فى سنة ١٨٨١ كانت قد أنشئت جمعية يهودية بالاسكندرية تحمل اسم « مصر الفتاة » مهمتها التدخل المقنع فى الثورة المصرية التى قادها عرابى لاحباطها من خلال اثارة مشاعر تحررية زائفة ، والهدف هو التمهيد للاحتلال الانجليزى لعلاقته بالمسألة الفلسطينية !

١٥ — فى ١٨٨٢ أيضا قامت حركة «بيلو» نتيجة سريعة لنداء بنسكر. واسم هذه الحركة يتألف من الحروف الأولى من كلمات التوراة « بيت يعقوب هلم فنسلك فى نور الرب » وبالعبرية « بت يعقوب ليخ أويتلحا » ...

١٦ — فى ١٨٨٧ عقد مؤتمر عام فى دورسكينكى حيث توحدت الحركة اليهودية المنادية بالعودة الى « صهيون » لأول مرة

« هوفوف زيون » أى « احباء صهيون » ... هذه الحركة صنعت مجالا واسعا لتدريب القادة الصهيونيين الذين ظهـروا من بعد كقادة فى المنظمة الصهيونية حين وضعت لها أســاسا فكريا عدوانيا لتنطلق نحو تحقيق غاياتها القومية بانشاء الوطن القومى والدولة اليهودية .

١٧ — من ١٨٨٧ حتى ١٨٩٧ قامت مرحلة التسلل الى فلسطين ــ قبل سنة ١٩٠٤ المزعومة ــ وكان شعارها « المحراث والسيف » واشتملت على الدعوة للهجرة وبدايتها .. فى ١٨٩٧ اعــلان الصهيونية فى مؤتمر بال .

١٨ — من ١٨٩٧ حتى ١٩٠٧ ــ التخطيط للوطن القومى ــ مؤتمــر بال ــ واحياء اللغة العبرية وانشاء صندوق الجباية ...

١٩ — من ١٩٠٧ حتى ١٩١٧ ــ خلق النواة العسكرية « هاشومير » أى «الحارس» .. فى سنة ١٩٠٧ أتمت لجنة بيترمان الانجلبزية عملها حيث أقرت انشاء الوطن اليهودى تأسيسا على ضرورة القضاء على امكانية الوجود العربى ... وجود الأمة التى تملك روح الحرية والعقيدة الثورية واللغة والأرض والبشر .

٢٠ — من ١٩١٧ حتى ١٩٢٧ بداية مرحــلة الاغتصاب وشــعارها « السور والبرج » ، وفيها تم وضع القوانين التى تساعداليهود على الهجرة وتعزيز الاستيطان الاستعمارى ..

٢١ — من ١٩٢٧ حتى ١٩٣٧ ــ مرحلة مقاومة المد الثورى العربى الفلسطينى ، وهذا مهم دائما بالنسبة للصهيونية ، واثره واضح فى مؤتمرات قتل المقاومة الفلسطينية فى كل المراحل .

٢٢ — من ١٩٣٧ حتى ١٩٤٧ ــ مرحلة انطلاق الارهاب حتى احتلال فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ .

٢٣ — من ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ ــ بداية مــرحلة التوسع وشــعارها الانقضاض والأمر الواقع ، وفيها تم الاحتواء الأول أى تعزيز احتلال الأرض المحتلة أولا ، وفيه حدث العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ الذى لم يحقق أغراضه .

٢٤ — من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٧ وهى مرحلة الانطــلاق بالعــدو ن الى حدود آمنة وتنائجها معلومة لنا بعد ذلك ..

٢٥ — ١٩٦٧ حتى ١٩٧٧ كما هو متوقع من التخطيط الصــ محاولة الاحتواء الثانى أى تعزيز الأرض الجديدة التى احتلالها ــ منذ ١٩٦٧ وانشاء المستعمرات بها وتهويدها ...

٢٦ — التوقعات بعد ذلك فى التخطيط اليهودى تسير كلها نحــو اسرائيل الكبرى فى مراحل رسمت الصهيونية لها أهدافاتحققها هى « الاستغلال الاقتصادى » و « التغلغل العقائدى » ثم « التفتيت السياسى الاجتماعى » ... وهــو ما تقف جميعــا وأجيالنا من ورائنا لنحول دون وقوعه .. ليس بالتمنى ولكن بالايمان والعمل ، والتخطيط والتوقيت ، والعرق والدم .. بالتوجيه الذاتى المبرمج « السيبرناتيك » لكل قوى وموارد وعقول الأمة العربية .

* * *

١١ - عقيدة قتالنا للغزو

اذا كانت اسرائيل قد افتعلت شعارا لعقيـدة قتالها هو « أمن سرائيل » فان عقيدة القتال التى نواجه بها العدو هى « الوجود العربى رضا وعقيدة » ... فالعدو اذا كان يحتاج الى الأمن لمواصلة عدوانه بانه يعلم أن له مرجعا ينتظره فى الأرض والأوطان والجيتو التى تركها وراءه فى أوروبا ، أما نحن فالذى نقاتل عنه هو الوجود نفسه ، لأنه على غير هذه الأرض لانجد عيشا ، ولأن هزيمتنا عليها معناها اننا لم نستطع أن نؤمن الوجود ، ولا مجرد حق الحياة ، لنا ولابنائنا الىأزمان طويلة ...

وتأمين الوجود العربى هدف عظيم يمنحنا جميع الحوافز الانسانية التى تجعل القتال هو الطريق الوحيد الذى لا خيار فيه لحماية هـذا الهدف .

ومن أصول عقيدتنا تستمد القدرة على الجهاد الى غير ما توقف ، جهاد للنفس وجهاد بالنفس ، وجهاد بالمال والعمل والفكر . وبذلك تستقيم عقيدتنا القتالية فى اتجاهها الطبيعى لتحقيق النصر ...

وسنظل دائما نستمع لنفس الصوت الالاهى الذى استمع اليـه آباؤنا فى مثل هذا الوقت ؟

« فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا » .

ان قدرتنا على منع هذا العدو من تحقيق أهدافه هى أعظم ثمرات النصر ، ولقد شاء الله فانبعثت تحت وطأة العدوان على فلسطين هذه الثورة العربية فى مصر التى تحمل اليوم أعباء المواجهة الفعلية لاسرائيل على غير ما كانت ترجو وتتوقع اسرائيل ، وحلفاء اسرائيل .. انها الثورة

التى تحمل فى مضمون تطبيقاتها ومعلن أهدافها كل ما فى قدرة البشر من الايمان بالله والعمل بجوهر الدين ، جوهر عقيدة اسماعيل وابراهيم ... تصحيحا لتاريخ الرسل ... ودعوتهم ، واعتراضا على أكاذيب اليهود ومخططاتهم .

لقد انبعثت الثورة العربية من مصر ، مؤمنة بالله ، وبوحدة الشعب والوطن ، وبأهداف الحرية والتقدم ، وبأن شرعية القتال لمن يزعمون أنهم أبناء ابراهيم تمد جذورها الى أعماق التاريخ ، والى أعمق أعماق كلمات الله ونداءاته ... مؤمنة بأن كل من استشهد بنفسه فى دفع العدوان الاسرائيلى على الوجود العربى ـ شعبا وأرضا وتراثا ـ فكأنما أحيا بنفسه الناس جميعا ..



محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٠/٦١٠٠



دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

القضايا التي يناقشها الكتاب :

- العرب والإسلام والعالم الجديد
- وحدة أجزاء العلم في الإسلام
- القومية العربية في جهادنا المعاصر
- الإسلام والاشتراكية العلمية
- التربية الدينية قضية الشعب والدولة
- الجهاد وعقيدة القتال في الإسلام



مكتبة القاهرة الحديثة
ت : ٣١٥٤٣